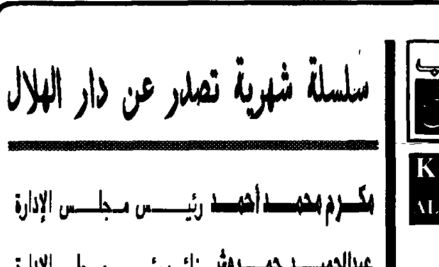

ما بعد
عام ٢٠٠٠
د. ميلاد حنا

KITAB AL-HILAL


سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

مكرم محمد أحمد رئيس مجلس الإدارة

عبدالحميد حمروش نائب رئيس مجلس الإدارة

مركز الإدارة

دارالهلال ١٦ ش محمد عزالعرب. تليفون: ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

العدد ٥٤٣ - شوال - مارس ١٩٩٦ No-543-MA-1996

فاكس FAX-3625469

مصطفى نبيل رئيس التحرير

سكرتير التحرير

ما بعد عام ٢٠٠٠

بقلم
د. ميلاد حنا

●

دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

الجزء الأول

ما بعد عام ٢٠٠٠

العالم والمنطقة ومصر

إلى أين ؟



يولد البشر مختلفون فى الشكل والعقلية والطباع ، ويظل هذا الأمر مثيرا لخيال الناس وتساؤلاتهم لماذا هذا ذكى وذلك غبى ولماذا هذه السيدة جميلة وشقيقتها ليست على ذات الدرجة من الجمال وهكذا، غير أن كل ذلك - فى التحليل النهائى - يؤكد على أن التنوع ظاهرة كونية ومن ثم قبول الآخر.

بعض البشر يحركهم الماضى فيتخلفون، وآخرون يتطلعون إلى المستقبل وعادة يتقدمون، ولا يوجد من هو سلفى بالتمام والكمال وإلا انعزل عن العالم وصار كأنه من أهل الكهف، وإن كان مستقبليا فقط يصبح حالما واهما وكأنه فاقد الذاكرة، ولذا فإن أغلب البشر «بين بين» وأنا شخصيا ممن يدرسون التاريخ بهدف رؤية المستقبل ... وكان هذا - وسيظل - توجهى فى الكتابة والفكر.

وبعض البشر متشائمون ويتوقعون - من خلال خيال مريض - العديد من الأحداث المؤسفة قبل أن تقع، والبعض الآخر أميل إلى التسامح والتفاؤل، وفى اعتقادى أن التفاؤل أو التشاؤم هى توجهات وخصائص غالبا ما تولد مع الإنسان، وبعض البشر

قادر على تعديلها فى حدود ضيقة لقناعاته التى يكتسبها فى رحلة الحياة.

وفى هذا الإطار - ومن منطلق ذاتى متفائل ولأن رؤيتى مستقبلية - لذلك رغبت فى أن يكون عنوان هذا الكتاب عما يمكن أن يحدث فى المستقبل القريب أى «مابعد عام ٢٠٠٠» وهو ما يسمونه باختصار «٢٠٠٠ +».

□□□

ولدت عام ١٩٢٤، فعشت حتى الآن معظم أحقاب القرن العشرين من العشرينات حتى منتصف التسعينات وأتمنى أن يمتد بى العمر - والأعمار بيد الله وفى علمه وحده - أن أعيش لأرى فجر القرن القادم أى أن أحتفل بمقدم أول يناير عام ٢٠٠٠ لأنه سيكون يوماً فاصلاً أو يوماً مفصلياً بين عصر وعصر، فهو علاوة - على كونه بداية للقرن ٢١ أيضا بداية لألفية ميلادية ثالثة تبدأ من عام ٢٠٠١ إلى عام ٢٩٩٩ وهو مدى هائل من التاريخ، لابد وأن سيشهد أحداثا عالمية هائلة لايمكن التنبؤ بها، لأن التقدم العلمى وتداعياته يسير بمعدلات متسارعة، وسيتغير نوع الحياة والحضارات على سطح الأرض، ونتوقع خلال هذه الألفية الميلادية عالما جديداً تماما. حتى توجد تنبؤات بأن الأحوال المناخية قد تواجه بعض التغيير.

خلال القرن العشرين – وفى الحقبة التى عشتها فيه وكأنها قطرة فى بحر الألفية الميلادية الثانية – عاصرت الحركة الوطنية المصرية، وتوهمت – كما توهم معظم جيلى – أن حصول مصر على استقلالها – أى أن يحكمها أهلها – سيكون بداية لعصر جديد تزدهر فيه مصر وتقل الفجوة الحضارية بين مصر والعالم المتقدم. ولعل كثيرين مثلى – فى دول أخرى مثل الهند أو الجزائر أو المكسيك أو غيرها – قد توهموا مثلما توهمت ، وإذ بنا جميعا نخرج – لا أقول من حلم إلى آخر – بل من إحباط إلى إحباط.

ثم تصادف أن حلمت – مثل غيرى – بأن العدالة الاجتماعية أو «الاشتراكية» ستحقق حلم البشرية وتقرب الفوارق بين الطبقات وربما كان تعاطفى وانتمائى إلى الاشتراكية انعكاسا لمودتى وانحيازى لبسطاء الناس أى «المستضعفين فى الأرض»، وفى حدود الحقبة الزمنية التى عشتها، تصاعدت أسهم الأفكار الاشتراكية حتى طرحت عبارة «حتمية الحل الاشتراكى» ولكنها هوت مع تفكك الاتحاد السوفييتى فى أواخر الثمانينات، غير أن تعاطفى مع بسطاء الناس لم يتغير بل لعله يتعاظم مع الزمن.

وهكذا تولد لى احساس داخلى – قد يكون أقرب للحدس – بأن عام ٢٠٠٠ أو أى وقت قريب منه، قد يكون ١٩٩٨ أو ٢٠٠٥ وحتى ٢٠٢٠ «وهو مدى لن أراه» ستحدث تغيرات هائلة فى المجتمع فى مواقع كثيرة من العالم لأن ثورة المعلومات ستفرض

«الشفافية» وسيكون حجب الأسرار محدودا، فتاريخ العالم «ما قبل عام ٢٠٠٠» فى معظمه مزيف لأن معظم أسراره قد ماتت فى صدور أصحابها، ولا يروى التاريخ الصادق إلا النقوش التى حفرها الإنسان على الحجارة أو الأسطر القليلة التى لم تحرق أو تبلى فى شكل ابتهال أو تأملات كانت مسجلة على ورق البردى أو ألواح الطين أو الكتب المنسوخة أو المطبوعة.

ومن ثم فإننى أتوقع للألفية الميلادية الثالثة تاريخا هائلا على الرغم من الظلام الثقافى والتفكك الاجتماعى داخل كثير من الدول وتعاظم الصراعات بين الأعراف والأديان والمذاهب.

وفى التاريخ القديم، كان ظهور المسيح علامة مهمة على طريق التطور الإنسانى، فجعلوا من هذا الحدث علامة على الطريق، ففى هذه الحقبة حدثت تغيرات هائلة فى منطقة البحر المتوسط وكان مركز العالم القديم ثقافيا وحضاريا .

إن أحدا لايعرف متى ولد المسيح بالضبط ، ولكن المسيحية انتشرت وفرضت أوضاعا جديدة فى العالم القديم وفى هذه المنطقة بالذات كمفاهيم ومبادىء ودين، وبالفعل صرنا نؤرخ السنوات ونسميها « ما قبل الميلاد » ونشير إليها "Before Christ" ثم «ما بعد الميلاد» A.D, «من الأصل اللتينى» "Anno Domini" والتى ترجمتها بالانجليزية In the year of our Lord" .

وينطبق ذات النهج على سنة هجرة الرسول من مكة إلى المدينة حتى يطلق على السنوات السابقة لها عصر «الجاهلية»، أما الحقبة والسنوات التى تلتها فقد صارت تقويما جديدا متبعا فى كل أنحاء العـــالم الإســـلامى ويعـرف بالتقويم الهجرى وها نحن نعيش عام ١٤١٦ هـ .

وربما يتفق - فيما بعد - على أنه فى تاريخ ما قرب عام ٢٠٠٠ ستختلف القيم والمفاهيم لتنقل البشرية من حقبة إلى أخرى، «أو هذا ما أتمناه على أى حال» ولذلك أتوقع أن ترقم السنوات بأرقام «٢٠٠٠ +» للتعبير عن حقبة «ما بعد عام ٢٠٠٠» وأتوقع أن أحوال العالم ستتحسن حقبة بعد أخرى وقرنا بعد قرن، ولكننى لست واهما فأتصور اننا على عتبة مجتمع مختلف عن عالمنا يوم أول يناير عام ٢٠٠٠ أو بمعنى أدق مع بداية الألفية الميلادية الثالثة فى أول يناير عام ٢٠٠١ لأننا أمام سنوات قليلة جدا لنصل إلى هذا اليوم، ولكنى أتوقع انه كلما ذهبنا عمقا فى الألفية الثالثة ستتغير أمور كثيرة، وأكاد أكون على يقين أن عام ٢٠٥٠ سيكون العالم مختلفاً - ولو قليلا - عن واقعنا اليوم، وأما ما ستصير عليه الأحوال عام ٢٢٠٠ أو ٢٤٠٠ فهذا أمره عند ربى لأن التغييرات التى سيشهدها هذا العصر ستفرض عالماً مختلفاً تماماً ربما يصل إلى التغيرات فى الظروف المناخية والبيئية والتى

ستؤثر بالتبعية على الإنسان، فتختفى الفوارق العرقية والدينية والمذهبية وربما تدخل متاحف التاريخ وقتها.

ولابد لى فى هذا الإطار أن أسجل أننى لست فخورا من خلال ما قرأت - بتاريخ البشرية فى حقبة ٢٠٠٠ - «أى ما قبل عام ٢٠٠٠» فهى - من وجهة نظرى - كانت حقبة غير متحضرة، لأنها مملوءة بالحروب والصراعات والتعصب على الرغم من التقدم الفكرى فى عالم الأدب والفلسفة منذ الحضارة اليونانية إلى الآن، وعلى الرغم من التقدم العلمى الملحوظ منذ الثورة الصناعية فى أوربا فى القرن السابع عشر.

فى مرحلة «٢٠٠٠ -» كانت البداية مأساوية، فمع ظهور المسيحية قامت الإمبراطورية الرومانية القديمة باضطهاد كل من اعتنق الديانة الجديدة لأنها جذبت الملايين والذين شعروا أن هذا العقد الجديد قد حررهم من قيد وعبودية وتمايز أهل روما عاصمة الإمبراطورية، وكان القتل على الهوية جماعيا بطرق وحشية إلى أن أصدر الملك تيودوسيوس مرسومه الشهير عام ٣٨٩م بإغلاق المعابد الوثنية وإعلان أن المسيحية هى الدين الرسمى للدولة، ومع انتشار المسيحية - وحتى قبل أن يعلن انتهاء عهد الوثنية - دخلت حضارات ذلك الزمان القديم فى صراعات فقهية. كانت تسمى وقتها «لاهوتية» تمثلت فى المجامع المسكونية «أى المؤتمرات الدينية الدولية بلغة عصرنا الآن» أشهرها وربما أولها كان فى مدينة نيقية

عام ٣٢٥م ثم في القسطنطينية عام ٣٨١م ثم في أفسس عام ٤٣١م ثم كان الانقسام الكبير عام ٤٥١ في مجمع خلقيدونية.

واضطهد المسيحيون بعضهم بعضا وتحولت الديانة إلى صراع سياسي بين أتباع عقيدة الملك ولذلك سموا بالملكانيين وتم تعبئة الجيوش للحرب والغزو لقهر الدول التي تمسكت بالعقيدة القديمة المسماة بالأرثوذكسية واستمرت هذه الحروب المذهبية إلى أن ظهر الإسلام قبل منتصف القرن السابع الميلادي بقليل وعاصر العالم كيف كانت تشن حروب بسبب الاختلاف المذهبي لقهر الكنائس أو الشعوب التي لاتدين بمذهب الملك البيزنطي، وفي هذا المناخ التاريخي تم فتح مصر - بالتراضي - لأن قبط مصر رحبوا بالغزاة العرب لأن الحكم الجديد سيخفف عنهم عصر «هرقل» الذي أسموه «عصر الاضطهاد العظيم».

وفي منتصف القرن السابع ظهر الإسلام فكان نقطة تحول جديدة في تاريخ تلك الحقبة، ولكنه عاني - مثل المسيحية - من صراعات مذهبية بين السنة والشيعة مع انتهاء فترة الخلفاء الراشدين، فتوسع من خلال الغزوات والفتوحات إلى أقطار كثيرة حتى أصبح دولة أو امبراطورية واسعة الانتشار حتي وأن كانت تحت مسمى «الخلافة» وصارت في مواجهة المملكة أو الإمبراطورية المسيحية المقابلة على الجانب الشمالي من البحر الأبيض المتوسط، وظل الصراع بين المملكتين - ولا أقول بين الديانتين - محتدماً

وبالذات عند الأطراف أى عند دول التماس، فى اسبانيا غربا وفى تركيا شرقا، وكان الارتداد فى اسبانيا حيث عادت إلى المسيحية بعد أن كانت تدين بالإسلام، وفى الجهة المقابلة الشرقية تحولت تركيا «أو آسيا الصغرى كما كانت تسمى بلغة هذا العصر» من المسيحية حيث كانت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية لتكون الاستانة مقر الخلافة أو الإمبراطورية العثمانية، بعد أن ظل الصراع بين الامبراطوريتين نحو خمسة قرون هى طول الحرب الصليبية.

وبعدها دخلت أوروبا بدايات عصر النهضة والثورة الصناعية، عندئذ بزغ صراع اصلاحى جديد فى أوروبا، فظهرت «البروتستانية» فى مواجهة «الكثلكة» ثم تلى حركة الإصلاح الدينى حركة جديدة تدعو لفصل الدين عن الدولة – على الأقل فى أوروبا – وهو ما صار يشار إليها «العلمانية» .

وبعدها دخل العالم عصر «الأيدولوجيات» المواكبة لعصر الاستعمار الأوروبى لدول آسيا وأفريقيا وحتى أمريكا اللاتينية، فكان طبيعيا كرد فعل للقهر الاستعمارى أن تولد حركة الاستقلال الوطنى ومقرونا بها الأفكار الاشتراكية فى القرن العشرين وهى الأمور التى أشرت إليها فى بداية هذه المقدمة.

❑❑❑

ما رغبت أن أصل إليه - من كل هذا السرد السريع - هو أن حقبة «٢٠٠٠ -» كانت حقبة حزينة بائسة من تاريخ البشرية معظمها صراعات دينية أو مذهبية بين أجنحة الدين الواحد، فكما حدث انشقاق وحرب بين السنة والشيعة حدث انشقاق وحرب بين الأرثوذكس والملكانيين ثم بين الكاثوليك والبروتستانت وأخيرا فى القرن العشرين كان الصراع بين الأيدولوجيات، وربما كان أعظمها وأكثرها أهمية هو المواجهة بكل الوسائل الإعلامية والتكنولوجية - بما فيها حرب النجوم والأسلحة النووية - بين الرأسمالية والشيوعية. وبانتهاء الحرب الباردة بينهما، إذ بالعالم يتحول إلى صراعات قديمة عرقية ودينية ومذهبية وحتى قبلية، وهى حقبة أكثر بؤسا وتعاسة، ولكننى أراها مؤقتة لن تمتد إلى ما بعد عام ٢٠٠٠ بكثير.

أعود فأقول - لأننى أميل إلى التفاؤل ولأن محركى فى الحياة هو المستقبل - لذلك آثرت فى هذا الكتاب أن أجمع بعض كتاباتى - بعد تطويرها وربطها ببعض - على قدر المستطاع - لتكون مثل «حبات المسبحة» - لكى استشرف المستقبل أى حقبة عام ٢٠٠٠

والبعض كتبته خصيصا لهذا الكتاب، ولأنها فى معظمها تستشرف المستقبل - آثرت أن يكون عنوان الكتاب «ماذا بعد عام ٢٠٠٠» أو «٢٠٠٠ +».

ولقد حاولت - كما سبق أن قلت - أن أجد نوعاً من الربط بين

بعض الموضوعات لتكون مسلسلة، ولكن القارىء حر فى أن يبدأ بأى عنوان يستهويه - فلكل منا مذاقه الخاص للكلمة المطبوعة - ولكنها على أى حال موضوعات يمكن قراءتها منفصلة أو متصلة، وهو أمر يفضل التسلسل الروائى الملزم فى القصص القصيرة أو الروايات الطويلة. وفى تصورى فإن القارىء فى مرحلة عام ٢٠٠٠ + سيهرب من نمط القصص المدونة فى الكتب كما سجلها نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويوسف إدريس وإحسان عبد القدوس ليهربوا إلى ما يناسب ٢٠٠٠ + فيما يعرضه أسامة أنور عكاشة أو وحيد حامد واللذان يستشرفان الأدب فى مرحلة ما بعد عام ٢٠٠٠ .

❑❑❑

هذا وقد قسمت موضوعات الكتاب إلى قسمين كلاهما حول ما بعد عام ٢٠٠٠، غير أن مواضيع الجزء الأول حول ما أتوقعه لأن يحدث - أو بمعنى أصح - ما أتمناه فى حقبة ما بعد عام ٢٠٠٠، فى العالم وفى المنطقة العربية وفى مصر .

أما الجزء الثانى فهى مجمل ما أراه قيماً ومفاهيم وأخلاقيات تناسب الفرد والوطن فى تلك الحقبة ٢٠٠٠ + والتى أراها بداية لغد أكثر اشراقا .

د . ميلاد حنا

مارينا ١٦ أغسطس ١٩٩٥



تغيرات هيكلية في البناء العالمى

شهد عام ١٩٩٥ مسلسل الاحتفالات بمضى خمسين عاما على *إنشاء الأمم المتحدة، أتصور أن العديد من الكتاب والمفكرين سوف* يعالجون «مستقبل» الأمم المتحدة، لأن متطلبات الحقبة القادمة ستفرض على إنشاء الأمم المتحدة أن تلعب دورا أكبر فى شئون العالم، ليس فقط فى القضايا السياسية والعسكرية الكبرى «كما هو الحال فى البوسنة والهرسك حاليا» وإنما سيمتد نشاطها إلى القضايا الاقتصادية، وينتظر أن ينشأ «مجلس أمن للقضايا الاقتصادية» ثم نشاط أوسع فى مجالات العلوم والثقافة وحقوق الإنسان وتقييم أداء الدول فى مجال «التنمية البشرية» والأطفال والصحة وما إليها.

❑❑❑

غير أن ما رغبت فى أن أعرضه اليوم، ليس «مستقبل» الأمم المتحدة فمستقبل أى أمر لا يمكن فحصه دون معرفة «ماضيه» أى تاريخية ولذا رغبت فى هذا الموضوع الأول لشرح «ما بعد عام ٢٠٠٠» أن ألقى الأضواء على المتغيرات الهيكلية والرئيسية التى عاصرها جيلى طوال النصف قرن الماضى فى بنية العالم فى مختلف النواحى، فالظروف التى تم فى ظلها توقيع ميثاق الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ «وهو العام الذى تخرجت فيه وصرت مهندسا» قد تغيرت كثيرا، لذلك - ولفائدة الأجيال الأصغر سنا - والتى لم

تعاصر التاريخ القريب آثرت أن أطرح بعض المعالم الأساسية لهذه *المتغيرات الهيكلية* :

(١)- نشطت حركة التحرر الوطنى واستقلت دول كثيرة كانت قبل ذلك مستعمرات ربما فى موقع ما خلال القرن التاسع عشر، فتغير بذلك المناخ السياسى العام فى العالم، وأصبحت حكومات ورؤساء الدول المستقلة حديثا لهم رأى وقول فى شئون العالم بل كانوا من نجوم العالم - من غاندى إلى مانديلا - بعد أن احتكر الحياة السياسية العالمية زعماء وقادة ومفكرو الدول الأوروبية وأمريكا وحدهم فقد وقع ميثاق الأمم المتحدة ٥١ دولة فقط عام ١٩٤٥، زادت لتصبح ١٢٥ دولة عام ١٩٧٠ وصارت الآن ١٨٤ دولة تمثل كل العالم تقريبا. وصارت الأمم المتحدة منظمة ذات فاعلية، فمن خلال ميثاقها - وبما لمجلس الأمن من سلطة، وبما للدول الخمس الكبرى من حق الفيتو - أمكن بالفعل تحاشى قيام حرب عالمية ثالثة بين دول العالم الأول وصارت أحوال العالم عام ١٩٩٥ غير أحواله عام ١٩٤٥.

(٢) - تبلور الصراع العالمى السياسى - فى تلك الحقبة - فى طور كتلتين رئيسيتين : يقود الأولىٰ أمريكا وأوروبا الغربية حاملة لمبادىء الليبرالية وآليات السوق غير أنها مغلفة بمفاهيم العدالة الاجتماعية مع تطبيق قواعد التصحيح الذاتى من خلال تداول السلطة، والكتلة الرئيسية الأخرى يقودها الاتحاد السوفيتى

وتحمل نظرية أيديولوجية مثيرة لخيال وحلم المثقفين غير أنها لاتحمل داخلها آليات التصحيح الذاتى بالديمقراطية فكان أن تحللت، فاختل توازن العالم، لأن وجود المنافسة بين الكتلتين - كان لنحو ٤٠ عاما - مخرجا وملاذا للدول المستقلة حديثا فانحازت إلى أى من الكتلتين وحصلت على الدعم السياسى والمادى، ولذا أصبح بعض الدول الفقيرة - فى المرحلة الحالية - فى مأزق بل وتحللت بعضها من الداخل لعدم وجود المنافس القوى للقطب الأوحد وأصبح العالم بعد نصف قرن فى حالة ميوعة أى أسوأ من أحواله عام ١٩٤٥ .

(٣)- نتيجة استقلال الدول التى كانت تابعة من قبل إلى دول كبرى عتيدة، ظهرت تكتلات عالمية شتى، أخذت فى الأغلب الأعم شكل كتل جغرافية أو أيديولوجية، كان أقدمها هو «الجامعة العربية» والذى جاء تأسيسها عام ١٩٤٥ قبل الأمم المتحدة بشهور، ولكن التكتل العربى لم يحقق ما كان منتظرا منه من تقارب اقتصادى أو سياسى، ثم كانت «منظمة الوحدة الأفريقية»، وهى أيضا لم تحقق الكثير ولكنها حافظت على استقرار وضع الحدود والفواصل بين الدول التى استقلت حديثا وثبتتها، ولكن ذلك لم يمنع من تفكك دول بأسرها من الداخل بانهيار سلطة الدولة أو بالحرب الأهلية مثل الصومال ورواندا وأنجولا وغيرها، ثم كانت

كتلة الدول المسماة «مجموعة الـ ٧٧»، ثم محاولات «السوق الأوروبية المشتركة» والتى تحولت مع الوقت إلى «اتحاد أوروبى»، ولعلنا نحن شعب مصر نذكر دور الرئيس عبدالناصر فى تأسيس «مجموعة دول عدم الانحياز»، والتى تصارع حاليا من أجل البقاء لانتفاء النظام المرتكز على قطبين فقد كان ذلك هو سبب وجودها - كما سبق التوضيح - ولذا فإننا على عتبة تكتلات متعددة جديدة هى سمة القرن القادم وهو أمر سنعالجه تفصيلا فى مواضيع قادمة .

(٤) - لعل أهم انجازات البشرية فى النصف قرن الماضى، هو ما تم فى ميدان العلم والتكنولوجيا فى مجالات عديدة لا حصر لها من الطب إلى الهندسة الوراثية والتى كان من أولى ثمارها، ثورة الاتصالات وسرعة نقل المعلومات، فعندما اجتمع ممثلو الدول عام ١٩٤٥ فى سان فرانسيسكو، لم يكن التليفزيون إلا حلما يداعب خيال وفكر بعض العلماء على الورق وفى شكل معادلات رياضية ولذا لم يعرف وقتها معظم البشر فى أربعة أركان الأرض أهمية ما جرى فى سان فرانسيسكو إلا عدد محدود من رجال الدبلوماسية والصحافة، بينما أى حدث أو مؤتمر أو كارثة تقع الآن - فى أى موقع من العالم - تنتشر أخبارها بالخبر والصورة فى التو واللحظة بشكل مثير للخيال، لعل أبرزها ما تم من احتفال توقيع إتفاق طابا بين زعماء وقادة الشرق الأوسط فى البيت

الأبيض فى واشنطن يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٩٥ فقد أذيع بالصوت والصورة وفى ذات اللحظة فى كل أنحاء العالم وفرض كل ذلك على الحكومات «الشفافية»، لأن الأقمار الصناعية قد حطمت الحدود الجغرافية التى صارت «مخترقة»، فقل التعتيم الإعلامى بعد أن كان مسيطرا عليه عام ١٩٤٥.

(٥) – تم فى تلك الحقبة كل ما عرفته البشرية من انجاز فى مجال «غزو الفضاء»، فقد كان التصور قبل نصف قرن أن المعجزة الكبرى هى، تحقيق فكرة «الطيران» فى الجو مثل «النسور»، فإذ بالإنسان يصبح قادرا على الخروج من سيطرة وقهر الجانبية الأرضية ويحلق فى الفضاء ويرسو بقدميه على سطح القمر ثم ينشىء محطات فضائية «يسافر» ويحج إليها ويعيش الإنسان داخلها أو خارجها ولمدد طويلة وصار الإنسان قادرا على أن يرسل الأقمار إلى مسافات خيالية، لتأتى إليه بصور وبمعلومات عن هذا «المجهول» المترامى اللانهائى، ويسبح خيال الإنسان خارج المجموعة الشمسية وتزداد المعرفة العلمية . ورغم كل ذلك فإننا لازلنا على عتبة شاطىء المعرفة وسنسبح داخل «الكون» فى القرن القادم بما يتجاوز خيال الأدباء والحالمين، وفى ذلك إدراك لجبروت العقل البشرى وإبداعاته اللانهائية. ورغم كل ذلك فإن الفكر الدينى يزداد قوة ويتحول من صلوات داخل أماكن العبادة ليكون حركات عالمية..!

(٦) - نتيجة لثورة الاتصالات والتقدم العلمى وغزو الفضاء، ضمرت أهمية الحدود بين الدول فقد صرنا جميعا «بشر» نعيش على ظهر «كوكب» واحد، وكنا فى سابق الزمان مدركين التوازن فى الحياة الطبيعية من خلال الدين والفلسفة وعلوم الحياة ولكننا لم نكن ندرك أن الإنسان قادر أيضا على «تخريب» التوازن البيئى، فإن أحد أفضال الأمم المتحدة، أن طرحت قضايا البيئة على البشرية كلها فى مؤتمرات دولية كان آخرها فى البرازيل فى يونيو عام ١٩٩٢، واكتشفنا أنه لو لم يتعاون البشر على إقلال أو منع تلوث البيئة فإن الحياة ذاتها قد تتأثر وتخرب، وتضاءلت الخلافات الجزئية حول حدود الدول الهشة من صنع السياسة وأصبح الإنسان أكثر إحساسا «بالعالمية» «والكوكبية» وهى مصطلحات جديدة تماما فى قاموس اللغات فى كل أنحاء الأرض، فتجاوز الإنسان مرحلة «الوطنية» كحد أقصى لطموح جيلنا ودخل بُعد جديد سيغزو فكر أجيال قادمة هو الانتماء إلى كوكب الأرض أى إلى «الإنسانية» جمعاء. وهو أمر سنطرحه بالتفصيل فيما بعد.

(٧) - قبل نصف قرن كانت أمانى جيلى - كما فى أقطار وأوطان عديدة من العالم - هو حصول الوطن على الاستقلال، وكأنه نهاية المطاف لحل مشكلات «المواطنين» من فقر وجهل ومرض، ثم تحقق الاستقلال بالفعل وإذ بنا نكتشف أن ما تحقق هو النذر اليسير، وأن هناك مشكلات من نوع جديد لم نكن ندرك

أبعادها ، وها هى ذى الأمم المتحدة تعقد مؤتمرات دولية تجعلنا نشعر ونعى أن هناك مشكلات مشتركة بين البشر فى مواقع مختلفة من العالم، فأدركنا أن هناك مشكلة «التفجر السكانى»، وعقد لذلك مؤتمر فى القاهرة فى سبتمبر ١٩٩٤ ثم مؤتمر يبحث قضايا المرأة، عقد فى بكين فى سبتمبر ١٩٩٥ من خلال التجهيز والاستعداد له ثم جلساته تنشر قضايا المرأة من رؤى حضارات مختلفة لتوجد تقارباً فى وجهات النظر فيعم التفاهم مع الزمن، وفى العام القادم سيعقد فى مدينة اسطنبول بتركيا المؤتمر الدولى الثانى لبحث مشكلات الإسكان فى يونيو ١٩٩٦، وكان المؤتمر الأول فى مدينة فان كوفر بكندا عام ١٩٧٦، ولسوف تستمر المؤتمرات الدولية لإثارة وفتح شهية المفكرين ومتخذى القرار حول قضايا العصر والتى تبدو بلا شاطىء أو نهاية، ذلك أن طموحات البشر فى بحر النصف قرن الماضى قد تفجرت وربما فجرت بما يزيد على قدرة البشر والموارد المتاحة .

(٨) – فى عام ١٩٤٥ خرجت كل من ألمانيا واليابان كيانات محطمة عمرانيا واقتصاديا وإنسانيا، وفى أقل من نصف قرن أصبحتا من أكبر قوى العالم، وصار كل من المارك الألمانى والين اليابانى من أقوى العملات، وتغيرت مفاهيم وقيم اقتصادية كثيرة، فبعد أن كان الهدف من الاستقلال الوطنى هو إعطاء فرصة

للرأسمال الوطنى ليؤدى دوره فى التنمية الوطنية - ولذا كانت الممارسة فى النصف الأول من القرن العشرين أن تقيم الدول متاريسها من خلال الحواجز الجمركية - إذ بالحدود الاقتصادية تضمر حتى كادت تتلاشى تدريجيا ثم يصبح رأس المال عالميا، وتختفى «وطنية رأس المال»، ويصبح جذب رءوس الأموال «العالمية» الشغل الشاغل للحكومات التى استقلت ويزداد عدد الشركات متعددة الجنسية ويصبح تأثيره الاقتصادى وبالتالى السياسى هائلا وضاغطا وتتكون أكبر رابطة - خارج نطاق الأمم المتحدة - ممثلة فى الدول السبع الصناعية الكبرى التى يجتمع رؤساؤها كل نحو ستة أشهر فى أحد أركان العالم، لكى يتخذوا قرارات «بعضها نعرفه ومعظمها نرى تأثيراته» ومن خلال أجهزة اقتصادية عالمية ممثلة فى البنك الدولى وصندوق النقد الدولى، فيصير التحكم فى العالم اقتصاديا، وكلها أمور ومظاهر جديدة على خريطة العالم الاقتصادية، وأصبح التنافس على التجارة «عالميا»، فزاد ثراء الأغنياء وانطلقوا للاستزادة من البحوث العلمية وتطبيقاتها، وهبط الفقراء فازدادوا فقرا، ولم يعد الصراع بين الأثرياء والفقراء داخل الدولة الواحدة «على الرغم من ازدياد الهوة داخليا» وإنما أصبح الصراع بين مجمل الدول الصناعية الثرية «والتى يقع معظمها فى الشمال» وبين جملة الدول الفقيرة «والتى يقع معظمها فى الجنوب» حتى فاقت الصراعات الاقتصادية

وطغت أحيانا على الصراعات السياسية والعسكرية، فكان أن طرح المفكرون (والذين صاروا أيضا «عالميين») فكرة إنشاء «مجلس أمنى اقتصادى» مناظرا وموازيا لمجلس الأمن السياسى والعسكرى ..!

(٩) – على أن أخطر ما تم فى نصف قرن هو أن الدول الكبرى التى تناحرت فى القرن الماضى ثم خاضت حربين عالميتين فى هذا القرن قد استطاعت بالفعل أن تتحاشى – ربما رغما عنها – قيام حرب عالمية ثالثة تهدد أمنها واقتصادها، ومن سخريات القدر أنها نجحت فى أن تنقل ساحات القتال إلى أماكن كثيرة فى العالم الثالث، فقد أحصت معاهد الاختصاص ١٣٨ حربا فى الفترة من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٨٩ «عندما انتهت الحرب الباردة» ونتج عنها قتلى «أى خسائر بشرية» قدرت بنحو ٢٣ مليون نسمة، واستهلك فى الفترة من عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٨٩ أسلحة تقليدية «على جميع أنواعها» قدرت بنحو ٣٨٨ مليار دولار، كان معظمها من إنتاج دول العالم الصناعى الأول. وهو أمر سنعالجه بالتفصيل فى موقف آخر.

ترى ماذا كان لو انفقنا جزءاً من هذه المليارات فى تنمية الدول الفقيرة، ألم يكن فى العالم أفضل..!

(١٠)– منذ أن أنشىء كل من حلفى وارسو والناتو، ولمدة نحو ٤٠ عاما غرق العالم فى متابعة الصراع الرئيسى بين الأيديولوجية

الرأسمالية الليبرالية وآليات السوق مع التصحيح الذاتى من جانب، وبين الأيدلوجية الماركسية - اللينينية كما طبقت فى الاتحاد السوفييتى وأوروبا الشرقية وغيرها من جانب آخر - وانقسم العالم - كما يحدث عادة فى مباراة الكرة «حيث يوجد أيضا فريقان» إلى كتلتين، وكان الأمل معقودا على انتصار أحد هذه الأيديولوجيات، فيرتاح العالم ويصبح خاليا من الصراعات ويشهد تنمية وإنسانية نقية وتعلقت الآمال بخيوط أوهام، وما أن رفع «غطاء الصراع الأيديولوجى» مع انتهاء الحرب الباردة، إلا واتضح أنه كان يغطى عشرات «وربما مئات» الصراعات التى كانت موجودة فى كتب التاريخ فقط، منها حروب دينية ومذهبية وعرقية وقبلية، عادت إلى السطح بشكل أو بآخر، ولعلها أبرزها مآسى التطهير العرقى فى يوغوسلافيا السابقة وعشرات الصراعات فى أفريقيا ولم يخل عالمنا العربى من حروب أهلية فى لبنان ثم حاليا فى السودان والعراق والجزائر واليمن وغيرها. وسنعود لذلك فى موقع آخر.

مجمل القول ، هو أن العالم قد شاهد تغييرات مهمة ورئيسية فى جميع مجالات الحياة العلمية والسياسية والمجتمعية والفكرية، يصعب حصرها فى موضوع من هذا الحجم، وإنما رغبت أن أطرح بعض رءوس موضوعات ، ليدرك القارىء معطيات السنوات الأخيرة من القرن العشرين وكيف أننا مقبلون على عالم مختلف

تماما مع بداية الألفية الميلادية الثالثة، ويتوقف اتجاه الريح على فاعلية أهل الرأى والفكر فى العالم، فإذا سارت الأفكار المنحازة إلى العرق والدين والمذهب سيدخل العالم صراعات مُرة لسنوات طويلة، وإذا بحثنا عن الأرضية المشتركة ونشرنا أفكار «ثقافة الموزاييك» بين الحكام ومتخذى القرار فإن العالم سيجتاز الحقبة «الشريرة» الحالية إلى عالم أكثر رحابة ولسوف نلقى الضوء على التغييرات فى القيم والمفاهيم في حقبة ما بعد عام ٢٠٠٠ فى الجزء الثانى من هذا الكتاب، إن إحدى سمات ما بعد عام ٢٠٠٠ هى أن أمن الانسان قد أخذ موقعا متقدما عن أمن الدول والحكومات وهى قضية عصرية نناقشها فى الموضوع التالى .



أمن البشر والشعوب يسبق أمن الدول والحكومات !

فى حياة الأفراد والشعوب تجيء الأيام والسنوات حاملة لمناسبات ، يقف عندها المرء أو الشعب ، أو حتى الانسانية ، لتدارس ما فات والتكهن بما يأتى فى اتجاه تصحيح المسار ، لأنه من خلال كل تلك التفاعلات يتقدم (أو يتخلف) الإنسان أو الشعب أو حتى الحضارة فى مجملها ، فى قطر أو منطقة أو العالم .

منذ أن أنشئت هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٤٥ وصيغ ميثاقها فى سان فرانسيسكو ، كان السياسيون والمفكرون أسري ما عايشوه من أهوال حرب عالمية ضروس راح ضحيتها كما يقال نحو ٢٥ مليون انسان فقد عم الخراب فى كل مجال من مجالات العمران والاقتصاد ، دولا شتى ، ولذا كان التوجه العام فى صياغة مواد الميثاق يهدف – أول ما يهدف – إلى عدم نشوب حرب عالمية ثالثة، أى أن الأمم المتحدة، ومن خلال مجلس الأمن ، كانت معنية أساسا بأمن وسيادة الدول والحكومات ، وهو ما تم بالفعل إلى حد كبير وأمكن تحاشى وقوع حرب عالمية كما سبق الذكر فى الفصل الأول .

وها هى ذى الأيام والسنوات تمضى وصار الاحتفال بمضى ٥٠ عاما على إنشاء الأمم المتحدة فرصة مواتية للمثقفين والكتاب لطرح وتقييم ما جرى ولوضع تصورات المرحلة المقبلة إذ نتوقع أن يتغير اتجاه ريح التوازنات من تقنين المحافظة على سلامة الدول

والحكومات رغم أهمية ذلك إلي قضية أهم وأشمل هى أمن البشر والشعوب .

ونعود إلى الوراء قليلا لنرى تسلسل المفاهيم والاستراتيجيات والحروب ، أى الأمن العسكرى فى العالم خلال نصف قرن على النحو التالى :

* منذ أنشئت الأمم المتحدة فى ١٩٤٥ وحتى ١٩٨٩ (عندما انتهت الحرب الباردة) ، قامت ١٣٨ حربا ونتج عنها خسائر بشرية قدرت بنحو ٢٣ مليون قتيل ، وذلك بخلاف الصراعات الدامية التى لم يُعترف بها كحروب نظامية ، مثلما حدث فى المجر عام ١٩٥٦ وتشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨ وجرانادا عام ١٩٨٣ من صراعات وقتل اعتبرت وقتها من الشئون الداخلية لدول ذات سيادة ! وقد يفزع القاريء من ضخامة عدد القتلى وإليك تفاصيل مأساوية :

- عدد القتلى فى الحرب الكورية وحدها وصل إلى ٣ ملايين ، وفى حرب فيتنام كان مليونين .

- معظم هذه الحروب التى رصدت فى تلك الحقبة ، إن لم تكن كلها ، كانت فى دول العالم الثالث ، غير ان التسليح كان يورد من القوى العظمى ، أى من كل من الولايات المتحدة الامريكية أو الاتحاد السوفيتى السابق أو عن طريق بعض من يدور فى فلكهما ،

وذلك بسبب الصراع الايديولوجي الذى ساد فى تلك الحقبة بين الليبرالية الغربية والماركسية السوفيتية ، وكنا واهمين بأننا سندخل حقبة أفضل مع انتهاء هذا الصراع .

* الخسائر المادية التى انفقت على الأسلحة أمكن تقديرها - وفق التقارير المتخصصة - فى الفترة من عام ١٩٧٠ حتي عام ١٩٨٩ ، كانت مبلغا رهيبا وخياليا ، لو أنفق جزء منه على التنمية لكان حال هذه الدول غير ما هو الآن إذ قدرت بنحو ٣٨٨ بليون دولار كان توزيعها جغرافيا كالأتى :

- فى منطقة الشرق الاوسط ١٦٨ بليون دولار .
- فى افريقيا ٦٥ بليون دولار .
- فى الشرق الأقصى : ٦١ بليون دولار .
- فى جنوب آسيا : ٥٠ بليون دولار .
- فى أمريكا اللاتينية : ٤٤ بليون دولار .

وعلى الرغم من انتهاء الحرب البادرة ، وعلى الرغم من الصعوبات الاقتصادية الفائقة التى تواجهها العديد من دول العالم الثالث ، فإن تجارة السلاح لازالت مستمرة إلي حد أن الدول الخمس دائمة العضوية فى مجلس الأمن (أمريكا وروسيا وانجلترا وفرنسا والصين) توفر ٨٦ في المائة من السلاح الذى تستورده دول العالم النامى . وفى ١٩٩٢ - على سبيل المثال - كانت

امريكا وحدها المصدر لنحو ٤٦ فى المائة من جملة سلاح العالم النامى . ومن عجب أن يكون الدافع الأنسانى وراء هذا التدفق هو توفير العمل فى معظم هذه الدول المتقدمة ، والتى دخلت إليها ألمانيا أخيرا . وكان أن استمر تدفق الأسلحة إلى الدول الفقيرة فالاثرياء ينتجون السلاح لوقف نزيف البطالة فى بلادهم والفقراء يقعون فى مصيدة وهم أن السلاح يوفر الأمن .

ومن الأمور المقلقة حاليا ما يمكن أن يشار إليه باحتمالات الحرب التى تحدث مفاجأة وكأنها حوادث تصادم السيارات لمجرد أن هناك أسلحة متوافرة لدى العديد من الدول . وصار ذلك مصدرا أساسيا للخطر ويعرض أمن البشر لمجرد أن بعض الحكومات تملك سلاحا مغريا لها باستخدامه .

ويزداد الامر عجبا ، فالمبالغ الهائلة - التى ذكرناها استنزفتها الاسلحة التقليدية وحدها - كانت هزيلة اذا ما قورنت بالترليونات التى انفقت - ولم يمكن حصرها بعد - فى مجال الأسلحة النووية على أنواعها وأشكالها ، حين كان السباق على أشده بين امريكا والاتحاد السوفيتى بما فى ذلك برنامج غزو الفضاء وقد يقال ، ذرا للرماد فى العيون ولايجاد مبرر يقبله العقل، انه بسبب هذا السباق فى التسلح النووى ، لم تلجأ الدول الكبرى إلى حرب عالمية ثالثة ساخنة ! ولكنه - على أى حال - ثمن باهظ جدا . واذا تصورنا ، بالخيال ، ان هذه المبالغ الخرافية

كانت قد انفقت فى تنمية العالم الثالث فربما ما كانت الظروف الموضوعية فى الدول الفقيرة الآن بهذه المأساة الدامية . ومن الأمور التى لم تطرح بعد للمناقشة كيف كان سباق التسلح بما فيها النفقات الباهظة التى تحملتها أمريكا فى برنامج حرب النجوم ربما كانت أحد أسباب تفكك الاتحاد السوفيتى والذى كان يلهث فى تحمل الأعباء حتى يستمر قوة عظمى فى مجال التسليح وغزو الفضاء على الأقل إلى أن إنهار من فرط اللهث الذى أرهق اقتصادياته ولكنه أيضا ثمن باهظ خصوصا أن تفكك الاتحاد السوفيتى قد أوجد حالة من الخلل فى التوازن السياسى العالمى وكانت دول العالم الثالث أول الضحايا لهذا الخلل .

والامر الجدير بالذكر ان الرغبة فى امتلاك اسلحة نووية لم تكن مقصورة علي الدول الكبرى وانما وقعت فى فخ الاحساس بالامان و «الوجاهة» و «المباهاة» من خلال مجرد امتلاك اسلحة نووية . دول كثيرة مثل اسرائيل والهند وكوريا الشمالية والبرازيل والارجنتين وباكستان ، وحتى جنوب افريقيا ، ولكل منها مبرراته المحلية . ولكن الانفاق على هذه الاسلحة باهظ التكلفة ، لن يوفر الامان للحكومات الا لفترات وجيزة جدا من الزمن .

والآن وبعد تفكك الاتحاد السوفيتى هناك بعض الدول تتبارى من أجل الحصول على المواد أو الاسلحة النووية والتى كانت لديها هذه المواد إما مخزونة أو تنتج فى هذه الدول والمناطق وقت أن

كانت جزءا من الاتحاد السوفيتى مثل اوكرانيا والدول الاسلامية الآسيوية وغيرها ، وهو امر تتوهم الدول الكبري انها قادرة على السيطرة عليه .

وهكذا انتهت حقبة الحرب الباردة ، بعد أن انهكت عشرات الدول النامية باستنزاف مواردها فى اسلحة تقليدية من اجل حصول تلك الدول والحكومات على الأمن لمجرد إحساسها بالقلق من دول مجاورة أو احتمال التعرض لهجوم لم يتم .

□□□

وإذا قارنا كل ذلك بما يحدث حاليا ، ومنذ سنوات قليلة نجد أن الوضع قد أصبح أكثر مأساوية . إن حلم «نظام عالمي جديد» خاليا من الحرب كان وهما ، فقد شاهد العالم نحو ثلاثين صراعا مسلحا خلال السنوات من عام ١٩٨٩ حتى الآن، بعضها انتهى والبعض الاخر مازال مستمرا . ولكل من هذه الصراعات المسلحة ظروفه التاريخية والمحلية ، فهناك فى أفريقيا الملايين الذين قتلوا ثم مئات الالوف المعذبة المشردة فى العراء أو فى السجون . واتضح لمعظم الحكومات والدول ، التى لاتزال تعتمد فى وهم أمنها أن شعوبها والمحكومين في كنفها لايشعرون بأمان مقابل . فمعطيات العصر قد أوجدت ظروفا جديدة تماما فرضت على البشر حالة من القلق العام ، نذكر منها :

(١) – منذ انعقاد المؤتمر الدولى الأول حول البيئة فى استوكهولم عام ١٩٧٢ زاد إحساس البشر بخطورة تلوث البيئة لأسباب محلية تؤثر بالفعل على انتشار مرض السرطان وغيره . وهناك ظروف أخرى غير محلية بل صارت عالمية بدرجة أكبر ، مرتبطة بثقب الاوزون وارتفاع درجات الحرارة وزيادة نسبة ثانى أوكسيد الكربون وقطع الغابات وارتفاع منسوب المياه فى البحر وما إليها فكلها قضايا جديدة تعكر صفو الأمن الذى كان يتمتع به جدودنا .

(٢)– أصبح العالم – ومن خلال ثورة انتقال المعلومات – قرية صغيرة ، حيث أخذت اجهزة الاعلام تتناقل أخبار الكوارث الطبيعية والاقتصادية حول العالم فى ثوان . ويزداد قلق الناس ، بالتالى ، علي الاوضاع الاقتصادية بالذات التى تتدهور فى اماكن كثيرة . فهناك خطر كساد عام يمكن أن يفقد الملايين قيمة مدخراتهم الكبيرة أو الصغيرة . وهناك أخبار سعر الصرف والتضخم وأسعار الفائدة وما إليها ، وهى تخلق مناخا عاما من التوتر والقلق الحالى والمستقبلى . ثم هناك أخبار البطالة الصريحة والبطالة المقنعة والتى سيترتب عليها حالة من القلق العام على مصير الجيل الصاعد من اولاد الاسر الحالية والتى تنفق وتستثمر من أجل تأمين المستقبل بتعليمهم ، وغير ذلك من أمور أصبحت مطروحة وعامة فى معظم الدول النامية وبين غالبية

الطبقات الاجتماعية بمن فيهم بسطاء البشر نتيجة طموحات مشروعة لم تكن ظاهرة على السطح قبل نصف قرن . وفي مصر مثلا كانت القرى تنام مع الغروب وتستيقظ فى الفجر . وطموحات سكان الريف كانت محدودة فإذا بأبنائهم يحلمون بنماذج الحياة فى هوليوود وميامى ولندن وباريس وغيرها .

(٣) – مع انتشار المعرفة والوعى بحقوق الانسان والمواثيق الدولية الخاصة بذلك ، ظهرت حالة من القلق العام نتيجة تجاوزات الحكومات لمواثيق حقوق الانسان على أنواعها ، وصارت مشكلات التعذيب وتقييد الحريات والقتل بدون محاكمات والاختفاء القسرى كما فى حالة د. منصور الكخيا الليبى والإمام الصدر الشيعى حالات ليست نادرة وما اليها من القضايا اليومية التى تسلب البشر حقهم فى مناخ آمن ومستقر .

(٤) – كان التصور أن الصراع الرئيسى بين الايديولوجية الليبرالية – ممثلة فى نظام رأسمالى متطور – وبين الماركسية على أنواعها شرقا وغربا – والتى كان البعض يصورها وكأنها حلم الانسان فى مجتمع تتساوي أو تتقارب فيه الفئات الاجتماعية من خلال ما قدمته الايديولوجية من «صراع الطبقات» – عبر نصف قرن قد طغى وغطى حتى طمس صراعات قديمة استمرت لقرون مضت . وتوهم البعض أننا فى الطريق إلى مجتمع لاطبقى أو تتقارب فيه الفروق الاجتماعية . وإذ بنا – عقب انهيار الاتحاد

السوفيتى – نكتشف أن معظم الصراعات القديمة يعود للظهور على السطح ، وأننا كنا نغطى كل تلك الاحقاد القديمة المدفونة بغلالة من الصراع الايديولوجى والذى ما ان رفع أو تحطم بانتهاء الحرب الباردة حتى ظهرت كل «العورات» القديمة وعادت الخلافات الدموية حول الاعراق واحيانا بين القبائل من عرق واحد كما فى أفريقيا ، ثم الخلافات والنعرات القديمة الدينية والمذهبية كما فى العراق وتركيا وأفغانستان والسودان .

ثم اشتدت حدة الصراعات فى اماكن عدة لكى تحمل السلاح وحتى الاديان التى كانت سمتها السماحة والحب ، اذا بها تجمع الناس على كراهية الآخر . ويظهر العنف والارهاب والتعصب بصور مختلفة فكل ذلك أوجد حالة من القلق العام ، مما أدى إلي هجرة ملايين البشر إما إلى دول اوروبية ، أو هربا من الجوع وفقد البشر والمواطنون العاديون حالة الامن التى كان يتمتع بها أجدادهم على الرغم من ارتفاع مستوى المعيشة والتعلم والوعى . وبعد أن كان الدين عامل طمأنينة داخلية ، صار حركات سياسية منظمة تتطلع للحكم وتحارب فى سبيل ذلك ولها مواردها المالية بعضها معلن ومعظمها خفى .

ولعل ابرز هذه الصراعات قاطبة – فى المرحلة الحالية – تلك المأساة الدموية التى تعيشها يوغوسلافيا السابقة ، فبعد أن كانت تنعم باستقرار ظاهرى لنحو ٤٠ عاما ، أى طوال فترة حكم

الرئيس تيتو، وما بعدها بقليل ، حتى كنا نحن زوار تلك الدولة نجد صعوبة حقيقة فى اكتشاف الفروق بين اهالى المناطق المختلفة ولكن ما ان رحل تيتو وسقط النظام الاشتراكى حتي فتحت كل الجروح والاحقاد والثارات القديمة ، وبدأ العالم يتعرف على اعراق وديانات مزقت يوغوسلافيا إربا ، ثم سيطرت ثلاثة عناصر رئيسية وهى : الصرب (وهم اساسا مسيحيون ارثوذكس وبالتالى مؤيدون من الجبهة الشرقية الارثوذكسية بزعامة روسيا) ثم الكروات (وهم الكاثوليك حيث لديهم تأييد ودعم من العالم الكاثوليكى فى الغرب) ثم المسلمون (ولديهم تأييد واسع من كل أنحاء العالم الاسلامى) . ولذلك فإن هذا الصراع لن ينتهى بسهولة لكثرة المتداخلين والمؤيدين .

وهكذا سيطرت قضية البوسنة والهرسك ، على كل وسائل الاعلام وصارت خبرا اول فى معظم دول العالم بسبب انتمائها إلى أحد هذه الكتل الرئيسية بشكل أو بآخر وتشعر اوروبا والدول الاسلامية بالقلق بسبب احداث التطهير العرقى واغتصاب النساء ولكن الكل يده مغلولة لأنه غير قادر على انهاء هذه المأساة البشعة.

ويضاف إلى كل تلك العوامل ، الموقع الجغرافى للبوسنة والهرسك فى قلب اوروبا وخشية كل الاطراف من ان يمتد لهيب الصراع إليها ، خصوصا ان سراييفو كانت الموقع الذى تفجرت

منه الشرارة التى اشعلت الحرب العالمية الاولى ولذلك ظهر منذ العشرينات مصطلح «البلقنة» ليعبر على الصراعات الداخلية فى منطقة البلقان كنقطة فاصلة لالتقاء الحضارات وبالتالى الصراعات . ولكن «البلقنة» اصبحت مرضا واسع الانتشار ، فى مواقع كثيرة .

ولعل هذه الحرب بالذات هى التى عززت نظرية «حتمية الصراع بين الحضارات» التى طرحها صموئيل هانتجتون كما سبق أن أوضحت فى دراسة سابقة ان اقدم «البديل الانساني» النابع من «الشرق العربى» الذى يعتمد على الحوار بين الحضارات ومولد «ثقافة الموزاييك» اى قبول الآخر ، ويتضمن ذلك المنافسة الصحية والمعايشة بين المجموعات البشرية المختلفة ، لأن التنوع ظاهرة كونية .

□□□

ولم يخل عالمنا العربى من هذه الحروب والصراعات الداخلية ، مثل تلك الحرب الدائرة بين شمال وجنوب السودان منذ سنوات ، وهى تحمل ملامح عرقية ودينية معا ، ولذلك تراجع السودان الذى كنا نعتبره «سلة القمح والغذاء» للعالم العربى لوجود نحو ٢٠٠ مليون فدان يمكن أن تستزرع باستثمارات وتكنولوجيا متوافرة فى المنطقة العربية وإذا بنا نجد ملايين اللاجئين من السودانيين

فى مصر وغيرها من كبار الأثرياء والزعماء إلى ابسط البسطاء من البشر ، فعم القلق داخل السودان وخارجه وتبخرت احلام التنمية ، واحتمالات وجود البترول .

والجزائر التى خاض شعبها حربا تحريرية شرسة فى النصف الاول من الستينات ، وقبل ان يزدهر لينعم بما يتوافر له من ثروات طبيعية ممثلة فى البترول والمناظر الخلابة للوديان والجبال ، والتى كان من الممكن ان توفر سياحة عربية وفرنسية وعالمية ، ثم ازدهارا وتبادلا ثقافيا من خلال قبول الآخر والتنوع ، اذا بها تصبح مرتعا للاغتيالات والدماء ، وكم حزنت لرحيل يوسف فتح الله نقيب المحامين وزميلى فى حركة حقوق الانسان . فقد كان دائم الدفاع عن حق الاسلاميين فى التعبير الهادىء والمحاكمات العادلة العلنية ، فإذا به يغتال بيد من حاول الدفاع عنهم ، وغيره مئات وآلاف فأين أمان الافراد والبشر والمثقفين وبالذات النساء واهل البربر وغيرهم ممن لايحملون إلا سلاح الكلمة والفكر والقلم..!

ثم كان ما تبقى من جروح وآثار حرب الخليج التى تركت كل شعوب المنطقة عموما والجزيرة العربية خصوصا قلقة مضطربة ، فلا أهل الكويت – الذين يفترض ان يكونوا سعداء بالعودة إلى ديارهم – صاروا آمنين ، ولا أهل العراق الذين ناصروا غزو الكويت قد جنوا ثمار المغامرة بل صار العراق خراباً واهله مثالا

للبؤس البشرى فى كل صوره ، وتعمل الدول الكبرى على استمرار حالة القلق والبؤس داخل العراق حتى يكون عبرة عالمية لمن يفكر فى مواجهة ومصارعة الحكام الكبار لعالم ما بعد عام ١٩٩٠ .

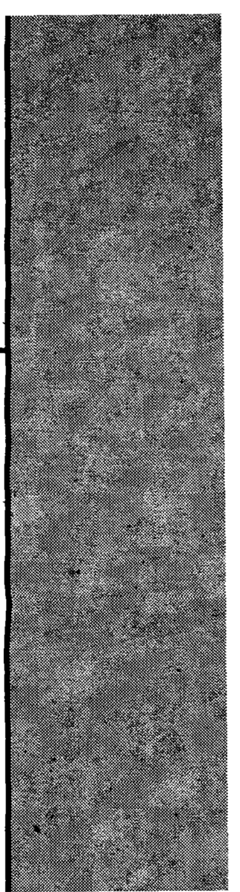
وحتى لبنان الذى عانى من الحرب الاهلية نحو ١٥ عاما ، أمكنه تجاوز الحرب الساخنة ولكن أمامه مشوارا طويلا لكى يعود إلى الرقص والاغنية فى القرى المتناثرة كالنجوم واللآلىء على الجبل الشهير ، ثم التمتع بشعر نزار قبانى وغناء فيروز والرحبانية ، لكى يبدع من جديد جيل شاب قادر على تقديم امكان المعايشة بين المذاهب والاديان ، كما كان لمئات السنين .

واليمن المسمى بالسعيد ، وبعد أن فرح وتغنى بالوحدة وتطلع للتنمية والتخلص من التخلف إذ به يقع فريسة صراعات قبلية قديمة وايديولوجية حديثة ، أدت إلى حرب أهلية دامية ، ويعلم الله وحده كم سيأخذ اليمن من الوقت حتى يعود كما كان من سنوات، وكثيرا ما أسأل نفسى ، لماذا نجحت المانيا الغربية الرأسمالية فى بناء وحدة مع المانيا الشرقية الماركسية . وهما معاً الآن على طريق النماء والتقدم ، ولماذا لم ننجح نحن فى الوحدة بين اليمن الشمالى القومى واليمنى الجنوبى الماركسى ؟ ترى هل هى لعنة ثقافية أو عيوب ذاتية أم ماذا ؟ سؤال مطروح على المفكرين والمثقفين العرب.

ولا أود أن أعدد الصراعات الداخلية فى معظم دول المنطقة ، ولكن ما رغبت ان اصل إليه هو اننا أمام ظاهرة عالمية قلقة ، لاتستطيع فيها الدول والحكومات ان تعتمد علي الجيوش والتسليح لتوفر أمنها ، لانها أمام ظاهرة أقوى ، وهي ان البشر والشعوب قد صارت قلقة ، وما لم توفر الحكومات الظروف الموضوعية من خلال قنوات ديموقراطية وضمانات لحقوق الانسان ، وايجاد مناخ ثقافى لقبول الآخر ، خصوصا انه لا فضل لانسان على أخر بسبب الانتماء إلي العرق أو الدين أو المذهب ، فإن أمن الحكومات والدول سيهتز وقد تتوهم الحكومات أن فى تعزيزها للقوات المسلحة والشرطة ما يوفر لها ولشعبها الأمن ، ولكنها ستجد نفسها فى نهاية المطاف قد قبضت على الهواء وستفتح كفها لتجد خواء داخله .

وإذا كنا فى الموضوعات السابقة قد عالجنا مسائل تخص العالم فى مجمله ، فإن عيوننا - بالضرورة - مركزة على المنطقة العربية ولذلك نطرح فى الدراسة القادمة أهمية أن تتحول الجامعة العربية من كيان استنفد أغراضه وثبت أن فاعليته محدودة وأن الخلل ينبع فى ألياته وميثاقه لأنه لا يحمل مفاهيم التصحيح والتطور ولذا فإن التصحيح يكمن فى إنشاء كتلة رابحة تقيم التوازن العالمى مع كل من الكتل الثلاث القائمة فى أمريكا وأوروبا والشرق الأقصى وتكون الجامعة العربية نواة لتلك الكتلة .





الجامعة العربية نواة كتلة اقتصادية رابعة

قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بعدة أشهر أنشئت الجامعة العربية ، وبعد الحرب ذاتها بعدة أشهر أنشئت هيئة الأمم المتحدة، وها هي ذي عجلة الزمان تدور ، وتم الاحتفال أخيراً بمضى ٥٠ عاما على إنشاء الجامعة العربية ، فاذا به احتفال «تشريفاتى» ليس له مضمون بل لعله احتفال حزين لأن الحلم الذى صاحب إنشاء الجامعة العربية لم يتحقق ، فقد كان التصور وقتها أن الجامعة العربية سوف ترفع مع الزمن علم الوحدة العربية أو على الأقل نوعا من التعاون فى جميع المجالات وإذ بمجموعة الدول أعضاء الجامعة فى حالة خصومة وتمزق ، وكل التمنى هو فى نوع من «المصالحة».

وعلى الجانب الآخر من الكرة الأرضية تم الاحتفال بمضى ٥٠ عاما على إنشاء الأمم المتحدة وقد عهد بذلك للجنة خاصة تعمل على محاور متعددة وتطلع العالم لهذه السلسلة من الاحتفالات لكى تحدد مسار هذه المنظمة فى الحقبة القادمة بعد أن تقدم انجازاتها فى بحر نصف قرن ، ولعل أول وأهم ما حققته هيئة الأمم المتحدة من خلال آليتها ممثلة فى مجلس الأمن والجمعية العامة أنها تحاشت قيام حرب عالمية لظروف وملابسات كثيرة ، بينما قامت حروب عديدة فى المنطقة العربية بعضها بين العرب وإسرائيل والبعض الآخر بين العرب والعرب وهى أمور اشرنا إليها من قبل .

وفى بحر نصف القرن الماضى أصدرت الأمم المتحدة عشرات من مواثيق وعهود حقوق الانسان والأقليات وجهزت لمؤتمرات دولية حول عشرات القضايا ، إبتداء من قضايا وحقوق المرأة إلى مؤتمرات البيئة والاسكان والتنمية الاجتماعية والسكان وغيرها ، ومن خلال تلك المؤتمرات تكون رأى عام عالمى يقرب بين البشر ويحدد البوصلة للأرضية المشتركة للانسانية ، وستحاول الأمم المتحدة فى السنوات القليلة القادمة أن تغير من هياكلها التنظيمية لزيادة فاعليتها ومواجهة متطلبات التغير .

تصادف أن يكون الأمين العام للجامعة العربية الذى جرى فى عهده الاحتفال باليوبيل الذهبى لها ، أحد العمالقة الدبلوماسية المصرية ، وهو د. عصمت عبدالمجيد ، ويتصادف أيضا أن يكون من يطفىء الـ ٥٠ شمعة من عمر هيئة الأمم المتحدة هو أستاذ مصرى فى العلوم السياسية مشهود له من زملائه وطلابه ثم من كل من عمل معه فى الخارجية المصرية – على الرغم من أنه لم يتربع على قمة هذا الهرم – وهو د. بطرس غالى ، ولمصر أن تعتز وتفخر فى أنها قدمت من يحتل المقعد الأول فى كل من أكبر منظمة سياسية فى العالم العربى وأكبر مؤسسة سياسية على ظهر البسيطة .

ومن هنا تبدو المفارقة فى أن احتفال الأمم المتحدة يقدم انجازات عظيمة مقرونة ببرنامج طموح مدروس لتغيير بنية الأمم

المتحدة لكى تناسب المتغيرات الدولية التى ستظهر مع مطلع الألفية الثالثة ، بينما تبدو احتفالات الجامعة العربية حزينة ألمسها فى النغم الرتيب لأمينها العام ، فالعيب إذن ليس فى الرجل الذى يحتل الموقع الأول هنا وهناك ، وإنما فى الهياكل التنظيمية والقانونية التى تنبع من مفاهيم وقيم ثقافية تبلورت فى الصياغة لكل من المواثيق التى تحكم كلا من التنظيمين العالميين .

❑ ❑ ❑

وعلى الرغم من إننى لست من المتخصصين فى القانون الدولى ولا فى تحليل التشريعات والنصوص التى تحكم المؤسسات العالمية، ولكن الصياغة العامة لميثاق الأمم المتحدة كانت تحمل بين طياتها قواعد التطوير والتصحيح الذاتى فضلا عن سبل فك المنازعات من خلال إدراك وفهم للقوى السياسية القابضة على مفاتيح اتخاذ القرارات الكبرى ثم كونت عشرات الهيئات والتنظيمات الدولية فى جميع المجالات ، ولعل أبرزها مجال البيئة ، وقد تربع على قمته مصرى بارع هو الأخ العزيز د. مصطفى كمال طلبه ثم فى مجال التنمية الصناعية وتربع على قمته (وربما كان من منشئيها) أستاذنا د. إبراهيم حلمى عبدالرحمن ، ثم كانت المنظمة العظيمة للتربية والثقافة العلوم التى اشتهرت اختصارا باسم «اليونسكو» والتى لاننسى أفضالها علينا فى مصر ، ومساهمتها المالية والفنية فى إنقاذ المعابد التى كانت ستغرق مع

انشاء مشروع السد العالي، وعلى قمتها اشهر معبد فى العالم قاطبة تلك الدرة الفريدة المحفورة فى قلب الجبل وتعرف باسم معبد أبوسمبل وبفضل المثابرة والمبادرة من منشيء وزارة الثقافة فى مصر المفكر المبدع د. ثروت عكاشة .

وفى ذات الحقبة تمت صياغة ميثاق الجامعة العربية من عشرين مادة تتضمن الأمانى الطيبة لتؤكد أن لا قرارات إلا بالإجماع وكأننا نبنى تنظيما رومانسيا عاطفيا ، ولذلك لم نتوقع تضارب المصالح فصار حتما أن آليات الخلاف لاتحل إلا بالحرب أو بتجميد نشاط الجامعة العربية وهو ماتم بالفعل عدة مرات كما لو كانت مصالح الشعوب المتضاربة هى خصومات بين أفراد عائلة واحدة ، وتحل بالطابع القبلى ، وعلى الرغم من اقرار معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى عام ١٩٥٠ أصبحت هذه النصوص مجرد عبارات جوفاء غير قابلة للتطبيق ونتغنى بها وقت اللزوم ومن ثم أصبح الهيكل التنظيمى والفكرى فى حاجة إلى إعادة النظر أو ما يسمونه بالعمرة الجسمية .

ولعل الاحتفالية التى تأثرت بها - وكانت الدافع لأن أكتب هذه الخواطر - هى تلك التى قامت بها جامعة القاهرة تحية للجامعة العربية ، ومن عجب أن رئيس جامعة القاهرة - وهو أستاذ فاضل ومتخصص فى القانون الدولى وهو د. مفيد شهاب - أدرك بحسه الداخلى أن الجامعة العربية (وكل منهما تصادف أن يحمل اسم

الجامعة بمفاهيم مختلفة) فى حاجة إلى حماية ، فكان أن أهدى الجامعة العربية «درع» جامعة القاهرة ، لأنها أقدم وأعرق وربما أكثر فاعلية وتأثيرا فى كل من المجتمع المصرى والعالم العربى علي حد سواء، فكثير من قيادات العالم العربى تلقوا العلم والمعرفة فى جامعة القاهرة وياليتهم حملوا قيما ومفاهيم أكثر فاعلية .

ومن ثم فرضت القضية نفسها على الواقع المعاش لمناقشة مستقبل ومصير الجامعة العربية ، وهو أمر تناقشه على استحياء كواليس الجامعة العربية ذاتها ، مما يحمل معنى أن فاعلية الجامعة العربية فى ٥٠ عاما كانت محدودة للغاية ، لأن المنطقة العربية قد مرت بحروب رئيسة ثلاثة جاءت لتحمل معها شروخا عميقة – وكأنها زلازل – تصدعت من خلالها بنية الجامعة العربية حتى النخاع . ففى حرب عام١٩٦٧ ، لم تستطع الجامعة العربية أن تكون آلية التنسيق بين الدول العربية المختلفة والتى كان يتظاهر بعضها بالسعى نحو الوحدة ، بينما كانت هناك محاولات تآمرية تحتية تهدف لتفجير النظم التى كانت مؤهلة للقيام بالوحدة.

ثم جاء الانتصار فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ ، وكان من أهم نتائجة تغيير الموازين العسكرية فى المنطقة ثم البدء في مسلسل المفاوضات المضنية الطويلة ابتداء من اتفاق فك الاشتباك عند الكيلو ١٠١ على الطريق بين القاهرة والسويس عام ١٩٧٣ إلى

المفاوضات بين سوريا وإسرائيل فى أمريكا والتى تجرى حتى الآن عام ١٩٩٥ .

علي أن أهم آثار حرب ١٩٧٣ الاقتصادية والاجتماعية كان ارتفاع أسعار البترول بشكل مجنون غير متوقع وغير مسبوق زاد من ارباح ومدخرات العرب فخطط بذكاء لضرب العرب بالعرب عندما اتضح أن العالم العربى قد انقسم إلى مجموعتين من الدول: الأولى هى دول قليلة العدد واسعة الثراء من خلال عوائد البترول ، ويقابلها مجموعة ثانية العدد محدودة أو معدومة الموارد ، وهو خلل استراتيجى غير موجود فى مجموعة الدول الأوروبية مثلا ولم تستطع الجامعة من خلال آلياتها ومواثيقها العاطفية الرومانسية أن تجد حلا يحقق التوازن السياسى والاقتصادى الذى كرس الشرخ نتيجة هذه التفرقة ، ولو وجدت آلية التنمية الشاملة فى المنطقة بدلا من اهدار الموارد المالية البترولية التى رحلت إلى استثمار فى أوروبا وأمريكا - وفى البذخ لخفت حدة الصراعات فى المنطقة .

ولعل أخطر هذه الشروخ فى الجدار العربى ما جرى عام ١٩٩٠ عندما اجتاح صدام حسين دولة الكويت دون إدراك لعواقب الأمور ، فاكتشفت دول الجزيرة العربية أن حمايتها هى عند الغرب، وليست فى مواثيق الجامعة العربية ، ومن هنا كان حتما أن يظهر من ينادى بإعادة النظر فى دور الجامعة العربية فى ضوء

إمكاناتهـا ومـواثيـقـهـا وانه لامناص من البـحث عن أهداف استراتيجية تناسب العصر لتجعل مما تبقى من الجامعة (بما تحمل على أكتافها من خمسين عاما هو عبء عليها أكثر منه تاج يوضع على رأسـها) ، قـادرة على أن يكون بيدها المبـادرة وتقـود هذه المنطقة ويكون لها دور جديد فى العالم ، وألا يقتصر دورها - كما يحاول أمينها العام - على دعوة الدول الأعضاء «للمصالحة وتنقيـة الأجواء» أو إنشـاء مـحكمـة عربية تفض المنازعـات فـهـذه أهداف تصلح لعلاقات أسرية وعائلية وعلى أكثر تقدير قبلية ولذلك فى اجتمـاع وزراء خـارجية الدول العربية الذى انعقد فى أواخر سبتمبر ١٩٩٥ أوجد حالة عامة من الأحباط .

□□□

إن العالم كله يجرى ولن ينتظرنا حتى تلتئم الجروح وتتقارب المشاعر فتتم المصالحة وإنما الدول كلها - بعلم وتخطيط - تسعى لتكوين كتل اقتصادية كبرى تمثل الكيانات التى ستحكم العالم فى القرن القادم .

وعلى كـثـرة مـا يظهر على السطح من اتفاقات لمجمـوعـات مختلفة فإن أهمها ثلاثة تكون بالفعل مجموعة النافتا والتى تضم الولايات المتحدة وتحت إبطيـهـا كندا شـمـالا والمكسيك جنوبا ، وعندمـا تعـرض الاقتـصـاد المكسيكى أوائل عام ١٩٩٥ إلى أزمـة

كادت تعصف به ، اضطرت الولايات المتحدة أن تقف إلى جواره وإلا انهارت الكتلة الاقتصادية الأولى والتى تسعى أمريكا لتكوينها تدريجيا لتحتوى فى نهاية المطاف على الأمريكتين شمالا وجنوبا حتى وإن أدى ذلك - ولو لفترة محدودة - إلى الاهتزاز الشديد فى قيمة الدولار الأمريكى .

ثم هناك المثال العظيم للوحدة الأوروبية ، والذى بدأ حثيثا منذ أواخر الأربعينات وتم نضجه خلال مراحل مدروسة عبر ما يزيد على ثلاثين عاما ، خطوة خطوة باتقان شديد ، على الرغم من أنهم بالفعل شعوب مختلفة تتحدث لغات متباينة ، وكان بينها دم وثأر عبر حروب قديمة كان آخرها الحرب العالمية الأولى والثانية ، حول ما كان يسمى بالعداوة «التقليدية» بين المانيا وفرنسا ، وإذ بهما معا يصبحان الركائز الاساسية للوحدة الأوروبية ، والمتوقع انها ستحتوى دول أوروبا الشرقية تدريجيا ، ولا أجد أفضل من الخطوات المتتالية التى قامت بها مجموعة دول أوروبا الغربية لكى تكون هاديا ونموذجا تدرسه الجامعة العربية بدقة واتقان تحاول أن تحتذى به ، ليس بالنقل الميكانيكى لخطواته ، وإنما بتحويرها وما يناسب الثقافة والتقاليد والاعراف فى العالم العربى أى أن يكون الاساس فى التعاون هو المصالح الاقتصادية وتوسيع أرضية المناخ العلمى والتكنولوجى .

وهناك الكتلة الثالثة الأعظم التى تكونت فى هدوء أيضا ودون ضجيج فى الشرق الأقصى فهى لا تلوح أو تطرح شعارات الوحدة أو التباهى بالتراث ، حيث يرقد هذا التمساح الكنفوشى العظيم فى أقصى الشرق فرأسه فى اليابان والجسم فى الصين والأطراف فى الدول الناهضة والتى سميت «بالنمور» ممثلة فى كوريا وهونج كونج وتايوان وغيرها وحيث الذيل فى الجنوب مع أندونسيا وماليزيا وسنغافورة وكل منها نموذج فريد يحسن دراسته فربما نبتكر نحن أيضا نماذج جديدة للنمو الاقتصادى .

وفى اعتقادى - كما ناديت منذ سنوات - فان التوازن العالمى لن يتحقق مالم تكّون مجموعة اقتصادية رابعة وهى كتلة هائلة لها أهمية عظمى من خلال الموارد البشرية والمقومات المالية والاقتصادية وغير أنها للأسف كتلة مفككة حضاريا إذ تشمل مجموعة الدول التى تمتد من مجموعة الدول الإسلامية فى آسيا الوسطى ثم تمتد جنوبا لتشمل إيران وأفغانستان وباكستان وشبه الجزيرة الهندية ، ثم تتوسع غربا لتشمل العالم العربى كله ثم افريقيا بأسرها .

وأتصور أن نواة هذا المشروع العظيم هى الجامعة العربية بالتعاون مع منظمة الوحدة الافريقية ومع ما تبقى من مجموعة دول عدم الانحياز ومجموعة السبعة والسبعين وغيرها . وفى كل

تلك المجموعات تقع مصر فى موقع القلب وهى ميزة كبرى لديها يمكن أن تستفيد منها.

□□□

إننى أدرك أنها مهمة شاقة بل لعلها عسيرة ولكنها ليست مستحيلة ، وربما تأخذ مراحل طويلة متعددة ومتعاقبة ولكن النواة والبداية تتكون من خلال الجامعة العربية ، فهناك مجموعة دول مجلس التعاون الخليجى وهى تمثل مصالح مشتركة وتركيبة ثقافية متقاربة إن لم تكن متطابقة . ثم هناك مجموعة دول الاتحاد المغاربى العربى وهى مجموعة مفككة لن يكون لها ثقلها إلا بانضمام مصر ، ثم لابد من استقطاب باقى دول الوسط (قلب الأمة العربية) والتى تفكك تنظيمها مع حرب الخليج عام ١٩٩١ ، وفى هذا الأمر - ليس من منطلق إننى مصرى - فان لمصر دورا خاصا فى تكوين هذه الكتلة الرابعة ، لما لها من موقع فى كل من مؤتمر الدول الاسلامية وعدم الانحياز ومنظمة الوحدة الافريقية ولكن يسبق كل ذلك موقعها - الخاص من الأمة العربية - كما هو معروف ومؤكد - وأتصور العالم العربى وكأنه خيمة كبيرة تقوم على عامود خشبى واحد أو أكثر يحمل قماش الخيمة فى مجملها ، فبدون العامود أو الأعمدة الخشبية تصبح قطعة القماش ملقى بها على ظهر سطح الكرة الأرضية ، كما أن الأعمدة الحاملة للقماش ستكون فى مهب الريح ان هى لم تحتم بقماش الخيمة .

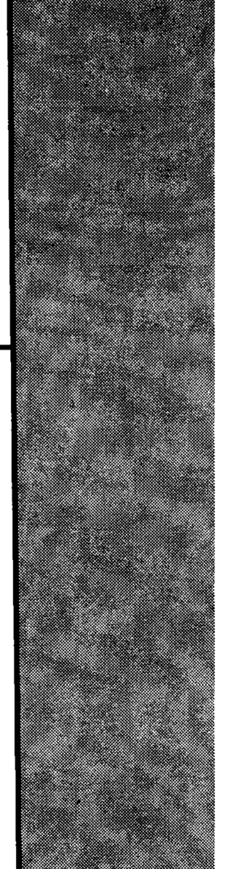
إن الجامعة العربية فى حاجة إلى وقفة طويلة تدرس ما فات لتشكيل خطة المستقبل ، ولتكن البداية فى شكل التعاون الثنائى المبنى على المصلحة الاقتصادية المشتركة وتبادل المنافع المحدودة والضيق والذى سيتسع مع الممارسة ثم فلنوحد الأرضية فى مجال الأمور العلمية والفنية مثل مجال المواصفات والمعايير القياسية حتى نتحدث فنيا وهندسيا بلغة العصر ، ولنقلل من التباهى بلغة الشعر والخيال التى كانت أهم معالم الثقافة العربية حتى مطلع القرن العشرين ، وإنما نتحدث ونفكر بلغة الرياضيات والعلوم الفيزيائية والتقدم التكنولوجى فهذه كلها مفردات المعاملة فى القرن الواحد والعشرين.

إن قلبى مع الأخ العزيز د. عصمت عبدالمجيد فقد تبوأ موقع الربان فى وقت الأعاصير العاتية والرياح العاصفة من كل اتجاه ولكن غدنا سيكون أكثر إشراقا ، إذا وضعنا الخطط والمفاهيم التى تطور الجامعة العربية على نسق ما قامت به أوروبا فى المرحلة السابقة ، وها هى ذى تقرع بعنف أبواب الوحدة وتفتح الحدود بين بعض دولها ، بينما نحن نقاسى من الحصول على تأشيرات الدخول والخروج بسبب الجراح والخلافات الأيديولوجية فى وقت ندعى فيه اننا نتمتع بمقومات الأمة الواحدة المتماسكة .

دعنا نتعلم من الصين من أن رحلة الألف ميل تبدأ بخطوة واحدة ولكنها خطوة مدروسة تتلوها خطوات فى اتجاه تكوين كتلة رابعة عالمية تقيم التوازن وقد يكون ذلك عام ٢٠٢٠ .

ولأهمية دور مصر فى خلق الكتلة الرابعة – كما سبق القول – لذلك أفردنا لها دراسة خاصة تحت عنوان «خصوصية مصر».

دعنا نقطع هذا التسلسل الفكرى للأحداث بنقد نظرية غربية خبيثة كان لها مفعول السحر فى إفساد حلم العالم العربى ما بعد عام ٢٠٠٠ وهى نظرية صموئيل هانتجتون والتى طرح مقولة «حتمية صراع الحضارات» وصدامها فى المرحلة القادمة بعد تفكك الاتحاد السوفيتى ، ثم نقدم بدلا منها نظرية أو مقولة لكاتب هذه السطور مبنية على خبرة مصر فى العلاقة الحميمة بين المسلمين والأقباط فيما اسميته فى دراساتى السابقة وأكدته فى هذه الدراسة تحت مسمى «ثقافة الموازييك» وهو الطرح النظرى الوارد فى الفصل القادم .



٤

من نظرية «صراع الحضارات» الغربية إلى مفاهيم «ثقافة الموزاييك» العربية

يعج العالم بمئات الألوف من العلماء والمفكرين والمبدعين فى جميع التخصصات، وينتشرون من خلال قدراتهم على صياغة بحوثهم وأفكارهم فى شكل «أوراق» تقدم وتنشر - من خلال تحكيم وتقويم - فى مجلات محلية أو إقليمية أو عالمية متخصصة.

وبين الحين والآخر يستوقف نظر وسائل الإعلام بعض البحوث العلمية أو الفكرية التى تهم قطاعات أوسع من البشر. فنعرف مثلا أخبار «غزو الفضاء» أو الجديد فى مجال الهندسة الوراثية أو الانجازات الطبية مثل احتمالات السيطرة على السرطان أو الإيدز وما أشبه.

وفى هذا الصدد، تختلف بحوث ودراسات العلوم الفيزيائية أى الخاصة بالطبيعة والكيمياء والأحياء والرياضيات وما إليها ثم كل تطبيقاتها فى الزراعة والطب والهندسة أى «التكنولوجيا»، نقول، تختلف كل تلك المجموعة عمّا يقابلها مما أصبح يشار إليه «بالعلوم الإنسانية» أى المرتبطة بالإنسان من الأدب والفن والتاريخ والقانون والفلسفة والاجتماع والعلوم السياسية وما إليها، فى أن مجمل المجموعة الأولى يناقش بشكل موضوعى مجرد ومحايد لأنه يبدع ويدرس قضايا علمية - وأحيانا معملية - بعيدة عن الذات،

* الدراسة التفصيلية موضحة بالكراسة الاستراتيجية رقم ٣٠ والصادرة عن مركز الدراسات السياسية «بجريدة الأهرام» بعنوان «صراع الحضارات والبديل الإنسانى» فى يونيو ١٩٩٥

لذلك لانسمع عن خلافات حادة داخل هذه المؤتمرات أو من خلال الحوارات المكتوبة عبر المجلات المتخصصة إلا نادرا، بينما الخلافات في الرؤى والبحوث يمكن أن تكون حادة فى مجالات العلوم الإنسانية لأن جزءا منها ينبع من «الذات» أى يحمل الفكر «الشخصى» لصاحب الدراسة أو البحث، لذلك نجد المناقشات والحوارات فى المؤتمرات أو التجمعات أو المجلات التى تبحث هذه القضايا فى العلوم الإنسانية قد تكون حادة وربما صدامية، ولأن معظم العلوم الإنسانية تكون فى متناول وقدرات المثقف العادى لذلك تتحول الخلافات حولها لتكون موضع اهتمام عام.

ومنذ أن عرفنا الأسماء اللامعة فى القرن الثامن عشر ومابعده مثل باستير وفراداى ونيوتن وداروين وانشتين وقبلهم جاليليو وغيرهم كثيرون فى مجال العلوم الفيزيائية ثم جان جاك روسو وفولتير وتولوستوى وديكارت وبرنارد شو وآدم سميث وإليوت وفرويد وفيبر وغيرهم، لا أعتقد أن أحدا من علماء الإنسانيات عموما وقضايا فلسفة الفكر السياسى خصوصا - وفى إطار العقود الأخيرة من القرن العشرين - قد اشتهر عالميا مثلما اشتهر د. صموئيل هانتجتون استاذ الفكر السياسى فى جامعة هارفرد بسبب نشره مقالا أو «بحثا» جاء بشكل هادىء وبسيط فى مجلة تخصصية أمريكية اسمها «فورن أفيرز» أى «الشئون الخارجية» وذلك فى صيف عام ١٩٩٣ واختار لها عنوان «صراع

الحضارات» فصارت هذه العبارة وكأنها شعارا لمرحلة مابعد الحرب الباردة.

فمنذ أن طرح دارون نظرية «البقاء للأصلح» من خلال الصراع بين الكائنات الحية وعوامل البيئة والظروف المناخية وما إليها، حاول علماء الإنسانيات اكتشاف نظريات مماثلة تفسر أسباب تطور المجتمع من خلال أنواع «الصراعات» المختلفة إذ أكد هيجل أولا أن «الحياة صراع بين أضداد» ومن خلال ذلك تتحرك وتتطور المجتمعات البشرية ولعل الأديان - فى مجملها - تنادى بأن الصراع الرئيسى هو بين الخير والشر ثم تقدم قيما ومفاهيم تسلح الفرد والجماعة لمقاومة الشر بالخير.

وخلال القرن التاسع عشر حاول كارل ماركس أن يقدم تفسيره بأن محرك التاريخ هو «صراع الطبقات» وتحول الفكر النظرى إلى واقع معاش وجسدت الحركة النقابية للعمال هذا المفهوم فى الصراع مع الطبقات البرجوازية الثرية فى انتخابات مثيرة فى أوربا الغربية ثم حولها لينين من خلال تطوير النظرية فحولها إلى حركة ثورية كان نموذجها الأقوى فى الاتحاد السوفييتى عام ١٩١٧.

واستمر الصراع بين الايديولوجيتين، أعنى الليبرالية الغربية والشيوعية السوفييتية حتى حسم الصراع عام ١٩٨٩ بسقوط حائط برلين ثم تفكك الاتحاد السوفيتى، وبعدها اتضح أن هناك

فراغاً فكرياً وأيديولوجياً، فبادر فرانسيس فوكوياما بسرعة وعلى عجل بنشر كتابه «نهاية التاريخ» كتطوير لفكرة أقدم طرحها عالم أعمق وأسماها «نهاية الأيديولوجيات» اذ كانت نظرية فوكوياما مجرد بهجة واحتفال ليؤكد أن السيطرة كانت وستستمر للفكرة الليبرالية والديمقراطية وآليات السوق، وستظل كذلك إلى «نهاية التاريخ» فإنطفأ وهج فوكوياما بسرعة.

وفى تلك اللحظة «المناسبة تاريخيا» طرح أو «فجّر» هانتجتون مقالا يحمل نظرية فى برشامة بعنوان «صراع الحضارات».

ونظر المفكرون والمنظرون حولهم وإذ بالصراع الدامى فى يوجوسلافيا بالذات يؤكد النظرية، فهى نقطة تلاقى ثلاث حضارات هى: الحضارة الغربية ذات الجذور الكاثوليكية البروتستانتية مع الحضارة المسيحية الشرقية ذات المفاهيم الأرثوذكسية مع الحضارة الإسلامية، فاكتسبت نظريته شهرة عالمية وبالذات فى العالم العربى والإسلامى لاستفزاز مفاهيم هذه النظرية ومعاداتها للإسلام.

وتتلخص أطروحة صموئيل هانتجتون فى أفكار رئيسية كثيرة – يحسن أن نلخص أفكارها الرئيسية فى أسطر قليلة حتى يمكن طرح «مسودة» لأطروحة بديلة نابعة من عالمنا العربى:

● تتمايز الحضارات واحدة عن الأخرى فى التاريخ والمفاهيم والثقافة والقيم والدين واللغة. وهذه الفروق كلها أو بعضها أقوى من الاختلافات السياسية أو الايديولوجية.

● إن الانقسامات الكبرى سوف تكون ثقافية وستتحول النزاعات الأساسية لتكون بين أمم (أو مجموعات من الأمم) ذات حضارات مختلفة، ومن ثم سيسيطر على العالم «صراع بين الحضارات» وأن خطوط المعارك ستكون عند الحدود أو خطوط التماس بين هذه الحضارات، وأن التفاعل الرئيسى سيكون بين سبع أو ثمان حضارات هى: الغربية. والكنفوشية، واليابانية. والإسلامية، والهندية، والسلافية الأرثوذكسية، والأمريكية اللاتينية وربما الأفريقية.

● سيضعف دور الدولة كمصدر للهوية وسيحتل ويستغل الدين هذا الضعف لتظهر وتنمو حركات توصف بـ «الأصولية»، فيصبح الدين عاملا أكثر أهمية من الإحساس بالهوية أى أن الدين سيتجاوز الوطنية ليكون أحد عوامل تجميع الحضارات.

● لقد أصبح الغرب فى أوج عظمته وقوته ، مما سيدفع الحضارات غير الغربية للبحث عن جذورها الحضارية، وصار هناك تبديل وتعديل للمواقف، فقد كانت الفئات الشعبية متشبثة بجذورها الثقافية، فإذا بالموقف يتبدل ويتحول من نقيض إلى آخر، فتصبح النخبة أكثر تشبثا بجذورها الثقافية وتصبح الممارسات والعادات الغربيـــة أكـثر قبولا وربما انبهارا فى أوساط العامة، وتحـــول الدين لكى يكـون فاصـــلا بين الأفراد بصورة أكثر من أى فروق أخرى. بما فى ذلك الانتماء العرقى.

ويخلص هانتجتون من كل ذلك إلى أن خطوط التماس بين الحضارات ستحل محل الحدود السياسية أو الايديولوجية التى كانت قائمة خلال حقبة الحرب الباردة وأن أخطر هذه الصراعات بين الحضارات هو ما بين الاسلام والغرب . ثم يركز هانتجتون على أن أكثر النزاعات توترا وعنفا تتمثل فى الخطوط الفاصلة مع الحضارة الإسلامية ممثلة فى شكل الهلال الممتد فى الدول الإسلامية من أفريقيا حتى آسيا الوسطى وكذا يمتد الصراع ليشمل الحرب بين المسلمين من ناحية وبين الصرب الأرثوزكس فى البلقان ثم مع اليهود فى إسرائيل ومع الهندوس فى الهند والبوذيين فى بورما ومع الكاثوليك فى الفلبين، وفى النهاية يلقى هانتجتون بالقفاز فيختم ذلك الفصل بمقولة: حقا إن للإسلام حدودا دموية!!

□□□

ومنذ أن فجر هانتجتون نظرية «صراع الحضارات» بدا الأمر وكأن هناك إتفاقاً مسبقاً فى دول الغرب وبأن هذه النظرية بمثابة الصفارة التى تعلن البدء بالتحرك وتم بالفعل بعدها مسلسل هائل من المنظرين الأقل أهمية، ومن خلال وسائل الاعلام المختلفة، تثير نزعات ونعرات الكراهية للإسلام. ففى فرنسا هناك مثلا ملايين من المواطنين الذين تعود جذورهم إلى تونس والجزائر والمغرب، وقد عاشوا هناك لعشرات السنين وحصلوا بالفعل على الجنسية

الفرنسية ويشاركون فى الانتخابات على أنواعها ولرأيهم وزن يعمل له المرشحون ألف حساب.

وكان من نتيجة ذلك أن حركات وأحزاباً سياسية تحمل قيما فاشية تثير الكراهية ضد المسلمين. وتحصل هذه الأحزاب نتيجة لذلك على نسبة ليست قليلة من الأصوات مما يعنى أن لها تأثيراً فى المجتمع الفرنسى.

ويحدث ذات الشىء فى ألمانيا ضد الأتراك، وفى معظم دول أوربا الغربية توجد حملات فى كل وسائل الاعلام تبث الكراهية ضد المسلمين والإسلام مستفيدة من أخطاء حركات التطرف والإرهاب ومن ينشرون قيما سلفية لاتتفق مع العصر. ولكنهم فى مجملهم يعرضون وجها واحدا من الاسلام على الرغم من ثراء التاريخ الاسلامى بنقط مضيئة كثيرة.

ومن عجب أن ذات الدول الغربية - وبزعامة الولايات المتحدة الأمريكية - كانت - ومنذ منتصف الخمسينيات - قد تحالفت وشجعت الحركات والأفكار الأصولية الإسلامية (وكذلك المسيحية واليهودية) كجزء من مخطط جون فوستر دالاس عندما كان وزير خارجية أمريكا والذى ابتكر مبدأ أن الأديان - فى مجملها - هى التى ستقاوم «الإلحاد» الشيوعى ثم أكد مفهوم أن الإسلام بالذات يحمل أفكار «الجهاد ضد الشيوعية»، وهو الأمر الذى تم تنفيذه بتجنيد آلاف المتطوعين المسلمين المتعصبين ورتب لهم السفر

والتدريب والتمويل لكى ينضموا إلى مجاهدى أفغانستان فى حربهم «المقدسة» ضد السوفييت «الملاحدة»، ومن عجب أيضا أن يكون هؤلاء المجاهدون المتطوعون من جميع أرجاء العالم العربى، هم مصدر المتاعب - حاليا ومن سنوات - لأنهم صاروا نواة التطرف والإرهاب فى معظم أرجاء العالم العربى من الجزائر غربا إلى الأردن والجزيرة العربية شرقا. ومن ثم صار الصراع «عربيا - عربيا» أو إسلاميا - إسلاميا كما فى أفغانستان، مما يعنى أن نظرية «صراع الحضارات» ليست بالضرورة صحيحة أو تستند إلى أساس واقعى ومنطقى سليم.

□□□

ومن هنا ظهرت - من وجهة نظرى - الحاجة لنقد ومواجهة نظرية هانتجتون، والتى تبدو أنها تحقق غايات وطموحات السياسة الأمريكية والتى تعتمد - أول ماتعتمد - على ضرورة خلق و«ابتداع» عدو خارجى يهدد «الحضارة» والقيم الأمريكية عموما والغربية خصوصا، ولذا طرح هانتجتون نظريته أو رؤيته - وفى ضوء معطيات الصراعات الحالية - فى أن يرشح الإسلام ليكون العدو المنتظر للغرب. ثم ذهب إلى مدى أبعد - كعقلية فلسفية استراتيجية - فى أن يتنبأ بتحالف بين الإسلام والكنفوشية مجتمعين ومتعاونين فى مواجهة الغرب حتى كتب كثيرون وقعوا فخ رؤيته أن العالم سيتحول إلى صراع بين الغرب واللاغرب..!

وتشاء الظروف أن تظهر وجهات نظر فكرية ناقدة لنظرية هانتجتون وأن يكون معظمها من مفكرين لهم جذور عربية وينتمون إلى ديانات ومذاهب مختلفة فيقدمون فكرا ناقدا يهدف إلى نزع فتيل العداوة التى يشتد لهيبها يوما بعد يوم. ولهذا الأمر دلالته التى لاتخفى على أحد، ويبدو أنه كما ظهرت الأديان الرئيسية الثلاث من الشرق العربى ربما ينجح الفكر العربى فى نزع فتيل الكراهية والحقد والتى ربما تقود إلى حروب وفق نظريات صادرة من الغرب!

يذهب عبدالله العروى إلى أن كل المفاهيم التى يمكن أن تفجر الصراع قد استهلكت مثل اللغة والدولة والقومية والامبراطورية والايديولوجية، ولذا لم يعد أمام هانتجتون إلا مفهوم الثقافة كمصدر للصراع، ويستطرد عبدالله العروى نقده على أن مفهوم الثقافة غير واضح وان هانتجتون قد اعتمد على ارنولد توينبى وأن توينبى ذاته قد اعتمد على شبينجلر، فقد عجز توينبى عن تعريف «الحضارة الإسلامية» لكى يميزها عمّا سبقها من حضارات فارسية وبيزنطية. ومن ثم فإن هانتجتون ينطلق من مفهوم غامض غير ملموس عن الحضارة والثقافة لبناء تحليلات سياسية يفترض أنها وصفية ومطابقة للواقع، فقد اعتمد هانتجتون على أمثلة ونماذج انتقائية للغاية، ثم تخلص عبدالله العروى إلى أن «هذا الضعف النظرى فى أطروحة هانتجتون يؤثر بعد ذلك على كافة الخطوات التى سار عليها».

أما المفكر ادوارد سعيد (وهو أمريكى له جذور عربية قوية مع انتماء مسيحى) فيرى ان هانتجتون قد استخدم مفاهيم مطاطة ذات حدود شاسعة مثل «الحضارة» و«الغرب»، وكأن الحضارة الغربية كيان واحد، فهناك بالفعل عدد من الحضارات الغربية وينطبق نفس المقولة على الاسلام. فهناك حوار واسع حول معنى الإسلام بين فئات دينية وسياسية مختلفة، وأن حصر الثقافات فى مفاهيم ضيقة يعتبر من الأخطاء الكبيرة التى ارتكبت فى فكر القرن التاسع عشر وأدت إلى مواقف سياسية قوية عنصرية ان هانتجتون يعتمد على آراء ومصادر ثانوية وصحفية وسطحية. وليس على دراسة دقيقة لواقع الحضارات والثقافات، ويدعو هانتجتون إلى هيمنة حضارة واحدة محددة على الحضارات الأخرى ويرسم فى هذا الإطار خريطة مبسطة للواقع. فيعقد الخلافات الحضارية بدلا من أن يخففها.

والمنظر السياسى د. فؤاد عجمى (وهو أمريكى من أصل عربى شيعى) يطرح رؤيته الخاصة بظاهرة الأصولية - وبالذات الأصولية الإسلامية - وكيف أنها تعبير عن الذعر والارتباك والاحساس «بالذنب» من أن الحدود مع «الآخرين» قد تم عبورها، كما انها تمثل ردا على أخطاء وتجاوزات الغرب وقد لاتكون الأصولية هنا علامة على الانبعاث. فقد تمثل الأصولية ردا على أن العادات القديمة قد فقدت قدرتها على البقاء. ولذا فإن التقاليد قد

تصبح أكثر إلحاحا وأعلى صوتا عندما تتحطم وحينما لايعود الأفراد يؤمنون بها حقا».

ومن كل هذا، فإن ما يطرحه هانتجتون من حتمية الصدام والصراع بين الحضارات عموما، وبين الغرب والإسلام خصوصا. لايعدوٰ أن تكون فكرة تود أن تتبناها الجهات صاحبة القرار فى المجتمع الأمريكى بهدف إذكاء روح العداء بين الغرب والإسلام وكأن الحضارة الغربية غير قادرة على التقدم والإنجاز إلا فى ظل الإحساس بوجود عدو ما ، وتتجاهل هذه النظرية تلك العداوة التقليدية بين ألمانيا وفرنسا والتى أمكن التغلب عليها مما ساعد على انشاء «الاتحاد الأوروبى» فأمكن احتواء الصراعات التقليدية بين معظم دول أوربا الغربية وهو الأمر الذى نسعى إليه بتقديم البديل الإنسانى من خلال مفهوم وممارسات «ثقافة الموزاييك».

ولماذا أذهب بعيدا واتجه فى التنظير عند علماء الغرب، إننى انظر حولى فأجد كيف استطاع الأقباط والمسلمون فى مصر، أن يوجدوا الصياغة الثقافية المناسبة للمعايشة السلمية وبحيث أصبحت من المقومات الرئيسية للتقدم والحضارة فى مصر فى العصور الحديثة استطرادا لحضارة قديمة تمتد إلى آلاف السنين استطاعت خلالها مصر أن تستوعب كل الحضارات التى تفاعلت وتعاملت معها لتكون بوتقة من الأجناس فى حضارة واحدة

مازالت تلعب - رغم كل الصعوبات - دورا فى العالم الحديث من خلال التعددية الدينية بتقديم نموذج «ثقافة الموزاييك».

إن للأقباط خصوصيتهم والتى يستمدونها من تمسكهم بالتراث الفرعونى والعقيدة المسيحية التى تحمل عقائد وتراثا وفكرا مركبا وليس مسطحا فانعكس ذلك على شخصية قادرة على التحليل ومعالجة قضايا العصر المركبة والمعقدة أيضا. وفى ذات الوقت هناك معايشة كاملة مع المسلمين حيث التمسك بالعقيدة الإسلامية ولكن من منظور مصرى استوعب الفرعونية والقبطية من ناحية التراث والقيم، إذ استطاع المسلمون فى مصر أن يستوعبوا المذاهب المختلفة من سنة وشيعة فسوف تتكون من ذلك سبيكة اسلامية فريدة. مقبولة - وليس من الأقباط فحسب - ولكنه مقبول من الفكر العالمى المتوازن وذلك بشهادة كل الأجانب والعرب الدين أقاموا فى مصر ووجدوا إسلاما مختلفا فهو مرحب وقابل لمبدأ المعايشة مع التنوع الحضارى والإنسانى كظاهرة طبيعية كونية.

مجمل القول ، هو أن حالة القلق والتشرذم مقرونة والتى تسود عالم مابعد تفكك الاتحاد السوفييتى، فى حاجة إلى جهد نظرى وفلسفى وفكرى، أراه يتمثل فى مجموعة نظريات تعج فى العالم الغربى معظمها يهدف إلى سيادة الحضارة الغربية، ولعل صموئيل هانتجتون بأفكاره يمثل بوضوح وصراحة أحد النماذج

الفجـــة لذلك، بينما أرى ان العديد من المفكرين من أصل عربى (ومن مخـــتلف الأديان والمذاهب) ربما يكونـــون فى مجملهم وعلـــى شتى مشاربهم حاملين لأفكار أكثر انســـانية وأكثر تفهما لطبيعة البشر ومعطيات الحياة، فيقدمون وجبـــات فكرية من مفاهيم مختلفة، كلها تحـــمل خبرات انسانية لإمكانية المعايشـــة والتعـــاون بين البشر بالتعرف على الأرضيـة المشتركة والبعد عن نقط الخلاف لأن احدا مـــنا لم يختر وطـــنه أو لون بشرته أو ديانته أو مذهبه أو حتى نكاته أو ثرائـــه ولذلك فإن اثارة النعرات الموروثة لاتقـــدم إلا كراهيـــة وحقدا ينتهـــى إن عاجلا أو آجلا إلى الحرب والقتال. بينما المفاهيم الإنسانية تكتشـــف الخواص الحضارية المشـــتركة فتقدم كل مجـــموعة بشـــرية مـا لديها من خبرات وقيم ومفاهيم فتكـــون فى مجموعها «ثقافة الموزاييك».

ولن تجد أفضل من توضيح « نظرية الموزاييك» إلا فى مصر والتى لها خصوصيتها التى نطرحها فى الدراسة القادمة حيث يجد القارئ، المصل الواقى لمصر من خلال هذه الخصوصية التى تحميها من الأعاصير والرياح القادمة من حولها.

٥

خصوصية مصر

الإنسان – فى أى موقع من العالم – كائن مجتمعى لايستطيع أن يعيش طويلا بمفرده – ولابد له أن ينتمى إلى جماعة تمارس حرفته أو مهنته. وعندما يتعلم ويعى قد ينتمى إلى حزب أو ايديولوجية وفق ذلك كله وقبله فإن كلاً منا «يرضع» لبن الانتماء الدينى فى مرحلة الطفولة. وقد تنمو أو تضمر وفق الظروف المحيطة او التركيبة النفسية والتى تختلف من فترة إلى أخرى ومن قطر إلى آخر ومن شخص إلى شخص.

ومن الناحية الجغرافية، ينتمى الإنسان الريفى إلى قريته ثم «يتضخم» الانتماء فيصبح عضوا فى رابطة أبناء المحافظة ولكن الغالبية تعبر هذه الانتماءات الجغرافية الصغيرة لكى يكون انتماؤها إلى الوطن كله وهو عادة أقوى الانتماءات.

ويسجل التاريخ كيف أن معظم الصراعات السياسية – وأحيانا الحروب – تبدأ بخلافات قبلية عرقية أو دينية أو مذهبية.

وعندما ظهرت الماركسية فى منتصف القرن الماضى. أرادت أن تقدم «الانتماء الطبقى» على كل الانتماءات الأخرى لذا طرحت فكرة أن الصراع الطبقى هو محرك التاريخ. وبعدها تأسس الاتحاد السوفييتى عام ١٩٢٢ ليربط جميع الولايات التابعة لقيصر روسيا. فدعا المواطنين السوفييت لكى يتجاوزوا الانتماءات السابقة والتى كانت تشمل قوميات وأجناسا مختلفة وصاروا جميعا – من الناحية الدستورية – كأسنان المشط متساوين فى

الحقوق والواجبات لافرق بين أرثوذكسي وشيشي أو بين أوكراني وأذربيجاني.

ولسنا بصدد فحص الأسباب والمبررات والظروف التى أدت إلى تفكك الاتحاد السوفييتى فهذه قضية تتردد بين صفحات الكتاب فى مواقع كثيرة نظرا لأهميتها فى تشكيل مابعد عام ٢٠٠٠، ولكن مايعنينا فى هذا المقام هو فحص كيف أن الزلزال الذى حدث هناك، قد أعاد إلى الأذهان قوة وعمق الانتماءات القديمة أى تلك التى كانت موجودة فى القرن الماضى. وإذ بها تعود وكأنها كانت طاقات مكبوتة فانطلقت إلى السطح وتحولت الى صراعات وأحقاد مثلما حدث بين أذربيجان وارمينيا كامتداد لمذابح الأرمن فى تركيا ثم القتال بين روسيا الدولة الكبيرة والشيشان الدولة الصغيرة والتى كانت تابعة لها فإذ بالصراع يبدو وكأنه يحمل رائحة القهر الدينى وكنا قد تصورناه من مخلفات العصور الوسطى. ثم ظهرت مشكلات الأقليات التى كان من المتصور أيضا أنها قد ذابت واختفت خلال الحقبة التى سيطر فيها الفكر الماركسى. وإذا بنا نسمع عن أقليات من أصل ينتمى إلى رومانيا فى روسيا، ويقابلها أقليات روسية فى لتوانيا وما إلى ذلك حتى اضطرت الأمم المتحدة لإقرار ميثاق حقوق الأقليات فى ديسمبر عام ١٩٩٢.

وكانت قمة المأساة هو مايجرى من صراعات «دموية» فى يوجوسلافيا حيث امتزجت الصراعات العرقية مع الخلافات الدينية وحتى المذهبية أى بين الكاثوليك والارثوذكس ثم ما تم من تفكك «سلمى» فى تشيكوسلوفاكيا وأصبحت أوروبا - وكما كان حالها فى القرن الماضى - تعج بكل أنواع التناقضات فهناك الوحدة فى غربها وتفجرات التفكك فى شرقها.

□□□

دعنا نتجاوز بسرعة مايجرى فى العالم من صراعات بين الانتماءات عرقية ودينية ومذهبية فقد زاد عددها حتى أصبح لايعد ولايحصى، لكى نعود إلى مصرنا الحبيبة، لنتدارس التساؤل المطروح الآن على كل لسان: هل من الممكن لمصر أن تعبر هذه الحقبة - وإلى أن يستقر العالم فى أوضاع جديدة مع بداية الألفية الميلادية الثالثة - هل ستؤثر التفجرات العرقية أو المذهبية على الاستقرار والأمان الاجتماعى. خصوصا بعد أن طرح على الرأى العام كل مايتعلق بالإرهاب والعنف حتى تناولت بعض الأقلام مخططات وهمية تقسم مصر إلى أربع دويلات. نقول : إن الاجابة عن هذا التساؤل المحورى تكمن فى أن لمصر خصوصيتها التى تنفرد بها على معظم الحضارات والأمم والقوميات الأخرى.

وفى هذا الشأن هناك معالم كثيرة لخصوصية مصر. نلقى الضوء فى عجالة على بعضها.

① – إن مصر – منذ أن وحدها الملك مينا نحو عام ٣١٠٠ قبل الميلاد – كيان مجتمعي واحد بحدوده الجغرافية الحالية. ومن ثم فهي – كما هو معروف ومؤكد – أقدم دولة في العالم، وتوافرت لها ظروف تاريخية جغرافية غير متكررة * .

وهي – في هذا الأمر – تختلف عن الكثير من الكيانات الأخرى المجاورة، فاستمرت مصر – حتى في عصور القهر والغزو – ولاية لها كيانها الواحد دون تجزئة سواء أكانت تابعة لامبراطوريات قديمة مثل الامبراطورية الرومانية أو البيزنطية أو حديثة مثل الامبراطورية العثمانية أو البريطانية. إذ لم تنقسم أو تنشطر ولم تتداخل أو تمتزج مع غيرها – كما حدث في بلاد الشام او ليبيا أو العراق أو دول الجزيرة العربية أو معظم دول أوربا او أواسط افريقيا السوداء فمعظمها لم تأخذ شكل الدول المستقلة ذات الحدود الثابتة إلاّ في القرن العشرين. ومن النادر وجود دول ذات حدود ثابتة ومستقرة مثل مصر على الرغم من وجود خلافات غير جذرية مثل الحدود عند الخط ٢٢ ومشكلة حلايب أو عند طابا أو غيرها.

② – إن مصر ليست وحدة جغرافية فحسب، وانما هي ايضا وحدة تاريخية وعريقة بمعنى ان شعب مصر هو شعب واحد بكل

---

* لمزيد من التفاصيل يمكن الرجوع إلى كتاب المؤلف «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» إصدار دار الهلال – القاهرة.

المقـاييس. على الرغم من انه - بحكم الموقع الجـغـرافى - قـد امتزج مع أجناس وشعوب أخرى كثيرة، فعبر الزمان واختلط مع الهكسوس واليونان والرومان والعرب والنوبيين والفرس والشركس والاتراك وغيرهم، وقد استطاع الشعب المصرى أن يستوعب كل من استوطنها فيما لايزيد على جيلين أو ثلاثة وبعدها صاروا مصريين بالامتزاج والمصاهرة وهذه ميزة كبرى توضح قدرة الأرض المصرية على أن من يحبها يستوطنها فيصير منها ولذلك فإن مصر بالفعل هى أقدم بوتقة انصهار فى العالم، إذ استعرنا هذه العبارة التى يطلقها الأمريكان على بلادهم باعتبارهم بالفعل من أجناس وشعوب مختلفة يحاول المجتمع الأمريكى أن يجعل منها بوتقة انصهار .

ولايستطيع أن يقدر هذه الميزة أو الخصوصية المصرية - فى هذا الأمر إلا من عايش الخلافات العرقية فى أمريكا بين السود والبيض أو من عايش الفروق العرقية بين العرب والبربر فى الجزائر او الاكراد والعرب فى كل من العراق وتركيا او الفروق بين الزنوج «المتعربين» فى السودان.

(٣)- كان المصريون أول من تعرفوا على أن هناك «حياة أخرى» بعد هذه الحياة. وادركوا أن هناك محاسبة فى الآخرة عن أفعال وتصرفات الإنسان فى هذه الحياة، وسجلوا ذلك أولا من تشييد الأهرامات وفنون التحنيط فى الدولة القديمة. ثم سجلوا

محاسبة الإنسان بعد الممات فى «كتاب الموتى» وصوروه من خلال ميزان القلب بالريشة وغير ذلك فى ترنيمات وابتهالات اخناتون وغيرها.

ومن ثم فإن للمصريين دوراً معترفاً به فى صياغة الكثير من العادات والأفكار فى الديانة اليهودية كما يذكر ذلك جيمس هنرى بريستد فى كتابه الشهير «فجر الضمير» وقد أكد ذلك ما جاء فى نصوص سفر التكوين من أن «موسى تعلم بكل حكمة المصريين». وفى المسيحية صاغ القديس اثناسيوس الملقب بالرسولى «قانون الايمان» فى القرن الرابع ثم للأزهر بصمة معترف ومشهود بها فى الفقه والفتاوى والاجتهادات الإسلامية حتى الآن.

ومن ثم فالمصريون شعب متدين منذ فجر التاريخ حتى الآن، وساهموا بشكل أو بآخر وبقدر أو بآخر فى صياغة فكر الديانات السماوية الثلاث التى ظهرت فى شرقنا العربى، ولكن من خصوصيته أيضا - أى شعب مصر - ان تدينه كان بقدر ولم تمنعه الديانات المصرية القديمة من ابتكار كل أساليب الزراعة وجميع ألوان الفن والنحت والعمارة، فضلا عن الطب والرياضة والفلك والفلسفة، كذلك فإن حالة - التدين بقدر - فى حقبتى المسيحية والإسلام لم تمنعه من المشاركة فى كل ألوان النشاط الانسانى. وحقق فى ذلك انجازات تاريخية تشهد بها الحضارة الانسانية فى مراحلها المختلفة وفنون العمارة القبطية والإسلامية فى متاحفها المتخصصة فى القاهرة.

والملاحظ أن من كان يود الاستزادة من الدين بالتعمق فى الدراسة أو التأمل ثم التفرغ، كان يتجه الى «الرهبنة» فى المسيحية، و«التصوف» فى الإسلام. ولكن الأمر المؤكد هو أن كل من الرهبنة والتصوف بعيدة كل البعد عن العنف بل لعلها تقاوم كل أشكال الحدة من خلال تقليم أظافر الشهوات الإنسانية.

(٤) - غيرت مصر الديانة واللغة ثلاث مرات، وتراكمت لدى المصريين رقائق حضارية متصلة فوق بعضها البعض ذكرتها تفصيلا فى كتابى المشار إليه «الأعمدة السبعة».. تفاعل معها الإنسان المصرى وتركت فى عقله ووجدانه بصمات تلك الحضارات الشفافة والمتصلة، ولكن فى كل تلك المراحل كان للمصريين لغة واحدة نطقا وكتابة كجزء من «وحدة» الثقافة المصرية. فقد استمر المصريون متمسكين باللغة والديانات القديمة الموروثة الى أن انتقلوا إلى المسيحية فكتبوا لغتهم بالقبطية. وصارعوا من أجل «خصوصية العقيدة» وامسكوا بأنهم «اورثوذكس» أى القيم الموروثة القديمة دون تعديل أو تبديل، رغم اضطهاد الامبراطورية البيزنطية المسيحية التى كانت تود قهر الاقباط ليتحولوا الى المذهب المسيحى الملكانى اى الذى كان «الملك» منحازا اليه، فاختلفوا عقائديا من وقتها عن «الروم» او أى أن لمصر خصوصية مسيحية ومن ثم فكنيستها قبطية اى مصرية اورثوذكسية.

وعندما دخل العرب مصر كان التحول تدريجيا الى الإسلام، ولكن هذا التحول فى مصر - خلافا لبلاد أخرى كثيرة - أخذ عدة قرون، وكان ذلك أحد الأسباب لاستمرار وجود المسيحية حتى الآن (وكما سيأتى ذكره فى خصوصية أخرى).

ولقد ظهرت خلافات مذهبية حادة فى الجزيرة العربية والعراق والشام قبل وبعد العصر الأموى وانقسم المسلمون فى تلك الأقطار - ومن وقتها وحتى الآن - إلى سنة وشيعة. ولكن مصر - من وقتها وحتى الآن - كانت بعيدة عن هذه الصراعات المذهبية، وعندما صارت الأغلبية فى مصر مسلمة فى القرن العاشر كانت «كلها» شيعة مع الفاطميين ثم تحولت «كلها» إلى سنة مع دخول صلاح الدين الايوبى، واستمرت مصر لها خصوصيتها الإسلامية - مثل خصوصيتها القبطية - «كلها» مذهب واحد أى أن بها إسلاماً مصريا واحداً ومسيحية قبطية أى مصرية واحدة.

وطوال هذه القرون تغيرت الديانات لكثير من الدول واختفت المسيحية من بعض الدول وحل محلها الإسلام وحده، و استمرت المسيحية فيها، ووجد الأقباط فى كل قرية ونجع دون عوائق تذكر، وهو أمر تنفرد به مصر وتزهو ويعود ذلك إلى أن تحول مصر من المسيحية إلى الاسلام قد أخذ فترة طويلة - كما سبق القول - وكان تحولا تدريجيا من خلال تفاعل انسانى عجيب داخل العائلات والأسر المصرية، اذ كان الأب يغير ديانته ويتحول الى

الإسلام لسبب أو لآخر وبالتالى يتحول الأطفال وفق الشريعة إلى الإسلام فكان الأطفال منطقيا - وفى كثير من الحالات - يمارسون كلا من العبادات والطقوس فى الديانتين، فكانوا مثلا يؤدون صلاة الجمعة فى الجامع مع الأب وربما كانوا يحضرون القداس فى الكنيسة مع الأم، ولعلهم كانوا يصومون شهر رمضان مع الأب على الطريقة الإسلامية. وكانوا يصومون بعض أو كل الصيامات المسيحية وفق العوائد القبطية مع الأم. وقد أدى كل ذلك الى هذه الصياغة المصرية التى تبحث عن «الأرضية المشتركة» فى الديانتين وتتحاشى الخوض فيما يثير الخلاف والفرقة، وقد أدى ذلك بالفعل إلى ان عرف المصريون جميعا النصوص والأحاديث التى تبعث على الرحمة والتعاطف والحسنى. ولم تنتشر لدى الكافة - الا أخيراً - الأفكار التى تثير الخلاف والبغضاء والكراهية.. وربما كان ذلك - نتيجة رياح ثقافية مخططة منذ السبعينات وقادمة من الشرق - أحد أسباب الفتن - ولكنها غريبة عن التراث المصرى الحضارى ونأمل ألا تستمر هذه الحقبة القلقة طويلا حتى تعود مصر إلى سابق عهدها من قبول الآخر والمعايشة معه أى «ثقافة الموازييك» وهو أمر خصصنا له دراسات فى هذا الكتاب.

إن خاصية «التعددية الدينية» فى مصر تعود إلى هذا السهل أو الوادى المنبسط والذى أدى إلى بساطة ورحابة النفس والمعايشة بين الأديان وهو الذى أدى لأن تكون مصر من أولى

البلدان فى العالم التى قبلت التعددية - اى الحوار والخلاف فى الرأى فى المجالس النيابية المتعاقبة ومنذ أن أنشىء مجلس شورى القوانين عام ١٨٦٦ ولذا فمن حقنا أن نتطلع لمزيد من الديمقراطية.

(٥)- منذ أن اتضح للأقباط أن الإسلام قد صار دين الأغلبية وانتشرت اللغة العربية لتأخذ مكان اللغة القبطية. اتخذ احد البطاركة العظام غبريال بن تريك فى القرن الثانى عشر قرارا تاريخيا - له آثاره على البنية الثقافية - بأن تتقهقر اللغة القبطية الى الأديرة والكنائس، فأصبحت اللغة العربية هى اللغة الشعبية لجميع المصريين واشترك بعض افراد النخبة من الاقباط مثل أولاد العسال وغيرهم فى ترجمة الكثير من التراث والأدب القبطى إلى العربية، ولذلك تراكمت مع الزمن ثقافة عربية لها نكهة إسلامية لدى جميع المصريين. ويتضح ذلك بفحص بعض القطع الفنية الموجودة بالمتحفين القبطى والإسلامى إذ يتداخل الفن والخط والعبارات والأمثال السائدة فى تلك المرحلة، إلى أن تكونت هذه «السبيكة» المصرية من رقائق الحضارات، وأصبح انتماء مصر إلى العروبة جزءا من المقومات الثقافية لشعب مصر كله أقباطه ومسلميه على حد سواء، فاللغة هى الوعاء الثقافى للأمة وبدونه لايتوحد الشعب وتبدو المفارقة فى أن أقباط مصر قد تحولوا إلى اللغة العربية منذ نحو ثمانية قرون ولكنهم احتفظوا بالديانة

المسيحية، بينما تحول البربر فى الجزائر إلى الاسلام ولكنهم احتفظوا بلغتهم الأصلية ولذا فهنا «بوتقة» انصهار ثقافى وهناك أدى الشرخ الثقافى الى متاعب وصراعات مازالت موضع فحص من أهل الثقافة والسياسة.

(٦)- ان اطلالة مصر على البحر الابيض المتوسط. تاريخيا وجغرافيا وحضاريا تعطى لمصر خصوصية تشاركها فيها بعض الدول العربية الشقيقة غير اننى أجد أحيانا حساسيات عند بعض اصدقائنا فى العروبة وبالذات فى دول الخليج عن طرح انتماء مصر إلى البحر المتوسط، كما لو كان الانتماء إلى البحر أوسطية مناقضا لانتماء مصر العربى.

إن هناك صلات بين مصر وباقى دول البحر المتوسط ترجع للعصور التاريخية القديمة اذ كانت مصر فى البداية هى المعطاءة،. اعقبتها حقبة أخرى أخذت فيها مصر عن اليونان بعض أفكارهم الفلسفية، حتى استهواهم أن يكتبوا لغتهم الفرعونية المنطوقة بحروف الأبجدية اليونانية (بعد أن اضافوا اليها سبعة حروف من الكتابة الديموطيقية) فنشأت من هذا التفاعل اللغة القبطية حتى صارت العربية هى اللغة الشعبية لجميع المصريين واشترك بعض أفراد النخبة من الأقباط مثل أولاد العسال وغيرهم فى ترجمة الكثير من التراث والأدب القبطى إلى العربية. وبذلك تراكمت مع الزمن ثقافة عربية لها نكهة اسلامية لدى جميع

المصريين. وفى هذا الأمر يمكن الرجوع للعديد من القطع الفنية الموجودة بالمتحفين القبطى والاسلامى. فتداخل الفن والخط والعبارات والأمثال السائدة بين التراث الثقافى القبطى مع الوافد العربى الإسلامى إلى أن تكونت هذه السبيكة المصرية من رقائق الحضارات وأصبح انتماء مصر إلى العروبة جزءا من المقومات الثقافية لشعب مصر كله أقباطه ومسلميه على حد سواء. فاللغة هى الوعاء الثقافى للأمة وبدون توحد اللغة لايتوحد الشعب.

وفى العصور الحديثة - ومنذ الحملة الفرنسية عام ١٧٩٨ - تجددت الصلات مع الحضارات البحر أوسطية ثم أرسل محمد على البعثات إلى أوربا كبداية للنهضة الصناعية والعمران وساهم الفرنسيون فى إنشاء القناطر الخيرية وبعدها رغب الخديو إسماعيل فى أن تكون «مصر قطعة من أوربا» وكان للاحتكاك المباشر مع الثقافة الغربية اثره على رفاعه الطهطاوى ثم جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده فى جميع التطورات للإصلاح الدينى فى مصر.

❑❑❑

إن هذه النماذج من «الخصوصية المصرية» قد أفرزت انسانا له خصوصية أيضا. تتمثل فى تطلعه للعلم والحضارة والعمل على إقلال الفجوة الحضارية بينه وبين الغرب ولكنه بجوار ذلك يود أن يحتفظ بذلك القدر من التدين فى وجدانه الداخلى لأن يدرك أن

هذا ما يعطيه الأمان في مواجهة صعاب الحياة وتقبل الكوارث، ومن منا - على كل درجاتنا الثقافية - لايصرخ في وقت الضيق ويقول «يارب» ، وكل مصرى - عندما يقدم على فعل شيء معين - يقول «إن شاء الله» حتى استخدمها بعض الأجانب المقيمين في مصر ثم يهمس «ربنا يستر» اذا شعر بأن هناك احتمال خطر. ولأن الحضارة زراعية وليس لها الدقة والانتظام والتخطيط ومراعاة الوقت بالدقيقة والثانية مثل الصناعات، لذلك أصبح لفظ «معلهش» من مفردات اللغة في مصر. ويعود ذلك إلى ممارسة «الاستقراب» أى أن يكون ظاهر الشيء مقبولا دون أن يكون مطابقا للمواصفات او الاشتراطات الدقيقة وعندئذ يقول: «ماشى حالك» والمصرى له قدرة خرافية على الصبر وتحمل الصعاب، ولكنه ذكى فطن «يفهمها وهى طائرة» وغالبا مايتخابث ويخفى انه قد فهم. ويردد مايتصوره مرضيا لمن يسمعه بهذه في مجملها مظاهر لخصوصية الشعب المصرى حلوها ومرها على حد سواء.

غير أن الملاحظ للأسف أن إعجاب الغرب بحضارة الفراعنة يفوق اعجاب المصريين، وهو أمر قد يبدو عجيبا لأول وهلة .



«الايجيبتو - مانيا» أو «الوله بحضارة الفراعنة» من اللوفر إلى الانتيكخانة

تنقل إلينا الجرائد ووكالات الأنباء ، الحمى التى تجتاح أوروبا بـ «الوله والشغف والغرام بالحضارة الفرعونية القديمة» إلى الحد الذى تصفه الجرائد الفرنسية الشهيرة بالجنون المصرى أو «الايجيبتو مانيا» ولا أستطيع أن أجد لذلك تعليلاً واضحا . لأن «الغرام» بحضارتنا الفرعونية فى الغرب غرام قديم يعود للعصور الوسطى ، حتى اعتقدت - خطأ أو صوابا - أن الغرب هو الذى اكتشف لنا آثارنا القديمة ، وأن الأمر فى حاجة ماسة لأن نعيد - نحن المصريين - اكتشاف حضارتنا القديمة ، لأن معرفتنا بها - فى الأغلب الأعم - ضئيلة سطحية غير متعمقة إلاّ لدى علماء الآثار المتخصصين ، ولولا أن أهرامات الجيزة كانت من الفخامة بحيث لم يمكن للبشر أو للعواصف الرملية أن تغطيها ، لكنا قد تنكرنا لأهرامات الجيزة شمالا قرب القاهرة إلى هرم سنفرو قرب دهشور جنوبا مرورا بهرم سقارة المدرج والشهير وهى المنطقة الممتدة من ابو رواش شمالا الى دهشور جنوبا ولمسافة نحو ٢٣ كيلو مترا والمسماة «جبانة منف» .

لقد أقام متحف اللوفر - فى عاصمة النور «باريس» والتى أخذت اسمها - فيما يقال - من خلال عبارة «فاريا ايزيس» أى إيزيس بنت فرعون والتى تحولت لتكون «باريس» - معرضا ضخما أقيم خلال عام ١٩٩٤ يقدم رؤية أوروبا لمصر الفرعونية ، والتى جمعت مادتها العلمية من الدول الأوروبية الاربع والاكثر

اهتماما وارتباطا بتاريخ مصر القديم وهى فرنسا – ايطاليا – بريطانيا – هولندا ، فجاء هذا المعرض صيحة فى صحراء مصر أن ننتبه إلى تراثنا والتى اهتم به الغرب مقرونا بعصر النهضة والعلمانية الأوروبية .

وكم كنت أود أن تهتم مصر – بما فيها أجهزة وزارة الثقافة – لكى تنتقل لنا هذه المعلومات والبيانات وكم كنت أتوقع أن يثير هذا المعرض عن تاريخ مصر – شهية وزارة الإعلام وأجهزة التليفزيون المصرى – والذى وقع تحت تأثير أجهزة وفكر الإعلام فى دول قريبة تفرض علينا قيمها وفكرها حتى تخلفنا وأصبحنا مثلها – نقول ، كنت أود أن تسافر بعثة من التليفزيون المصرى لكى «تحج» لهذا المعرض الفريد من نوعه فتنقل لنا ليس فقط المعرض والتاريخ – ولكن مشاعر البشر الذين يتوافدون على المعرض فيقعون أسرى الحب والشغف بهذا التراث وهو الأمر الذى عبروا عنه بعبارة بـ «الايجيبتو مانيا» ، لعل وعسى تنتقل عدوى هذا الشغف بمصر الفرعونية إلى شعب مصر ذاته سلالة الفراعنة .

❑❑❑

جاء فى التقارير الصحفية التى أذيعت لتسجيل تاريخ ارتباط الغرب بحضارة الفراعنة بعض العبارات والمعلومات والتى لا أجد بأسا من تكرارها لقراء العربية .

إن البداية كانت فى القرن السابع عشر عندما وضع الفرنسى بنوا دى مايبه أول خريطة لمصر بعد زياراته لها ، حيث سجل مجرى النيل وعليه مواقع أماكن الآثار فى الأقصر ووادى الملوك ومعابد الكرنك وأبو سمبل واسوان ، ثم اصدر ميشيل ديفاختر موسوعة سجل فيها جرد لآثار المصرية عام ١٦٨٤ .

وجاء القرن الثامن عشر فاتحة لاكتشافات متعددة للآثار الفرعونية يذكر منها «وثائق آثار طيبة» لفريدريك نوروون ثم كتب الرحالة البريطانى «القس جان ريتشارد بوكوك» ثم الفرنسى كلود لوى فورمون والقس تيراسون وغيرهم حيث انتقلت عدوى الشغف لتراث الفراعنة الى تخصصات أخرى بخلاف علماء الآثار ، وظهرت اهتمامات مماثلة فى مجالات الموسيقى والفلك وعلم الاجتماع والشعر وغيرها ، وكان كل ذلك أحد أسباب المناخ العام الذى دفع نابليون بونابرت لغزو مصر .

ومن هنا فإن الرأى عندى هو أن الحملة الفرنسية كانت ذات أهداف ثقافية أكثر منها لأغراض الاستعمار او استغلال الثروات المصرية ، غير ان هذا الرأى قد يثير جدلا سياسيا - ليس هذا موضوعه ولابد من أن تتعرض له المؤسسات الثقافية من الآن وحتى عام ١٩٩٨ عندما يصير الاحتفال المشترك بين فرنسا ومصر حول مارغبوا فى ان يسموه الرحلة الثقافية لنابليون عام ١٧٩٨ بدلا من عبارة «الحملة الفرنسية» والتى قد تحمل بين طياتها معنى «الغزو».

ومما يؤيد وجهة نظرى ان نابليون قد استقدم معه مجموعة من العلماء والفنانين الذين سجلوا مشاهداتهم فى كتب « وصف مصر» والتى ستظل وثيقة تاريخية مهمة لتلك الحقبة التى كانت مصر تعيش فيها كولاية تابعة للدولة العثمانية ، غير واعية بما يحمله جوف مصر من كنوز ثقافية قديمة ادركها الغرب ونحن نيام..!!

وفى وسط كل ذاك الزخم لاهتمام الغرب الأوروبى بحضارة الفراعنة، يقف «شامبليون» شامخا لأن معاناته واجتهاداته لفك رموز رشيد يعتبر نقطة تحول أساسية فى كل مايتعلق بحضارة الفراعنة - ويرجع تاريخ هذا الحجر إلى عام ١٩٦ ق . م ليسجل مناسبة تتويج بطليموس الخامس فقبل فك رموز حجر رشيد كانت آثار الفراعنة مجرد حجارة تبهر الالباب بضخامتها ودقة نحتها وبقاء أصباغها اى كانت أحجار غير ناطقة ، اما الجهد العلمي الضخم الذى بذله شامبليون فقد فتح الباب واسعا لإمكان قراءة وفك رموز الكتابة الهيروغليفية من خلال مقارنته ومضاهاته بذات النص المكتوب على الحجر بكل من الكتابة الديموطيقية وهى الكتابة لذات اللغة المصرية القديمة والتى تطورت لتكتب بحروف ابسط من الرموز والحروف الهيروغليفية ثم بالمقارنة بالترجمة المكتوبة باللغة اليونانية القديمة وكانت لغة معروفة لدى شامبليون (١٧٩٠ - ١٨٣٢) .

وهكذا جاءت دراسات وقدرات وبحوث شامبليون لتكون ميلادا جديدا لعلم المصريات Egyptology والذى بدأ باهتمام به فى الجامعات الأوروبية ، وأنشىء بالفعل عدة كراسى استاذية للتعمق فى دراسة التراث الفرعونى ، وقد تم ذلك فى اوروبا قبل ان تدرك مصر ذلك بسنوات طويلة وظل علم المصريات (واحيانا القبطيات) موضوع اهتمام الغرب الى ان تم فتح شهية الجامعة المصرية . فتم انشاء كلية الآداب واقسام التاريخ بها ثم كلية خاصة بعلوم الآثار .

ومنذ منتصف القرن التاسع عشر زحف الى مصر عشرات المهتمين بآثار الفراعنة ، وحمل الأفراد والبعثات العلمية مئات وربما آلاف القطع من الآثار بعضها ضخم وكبير مثل المسلات الموجودة إحداها فى وسط ميدان كونكورد فى باريس وأخرى على شاطىء نهر التيمس فى لندن ، وكذلك رأس نفرتيتى فى برلين ، وغيرها صغير الحجم الذى يحمل مع الباحث نفسه ويصحبته بالبواخر، فقد انتشرت فى كل انحاء العالم ويبدو ان مسلسل سرقة الاثار مازال مستمرا ومن ثم فإننى لست من أنصار التنقيب بل من أنصار الترميم والابقاء على ما هو بين أيدينا ولنترك لأيال قادمة لديها ادوات واجهزة تنقيب حديثة حق الاكتشاف لتراث هائل مازلنا عند شواطئه .

وأذكر – عندما كنت طالبا للدكتوراه فى الهندسة بجامعة سانت اندروز فى اسكتلندا – ان زرت متحفاً فى

مـدينة بيـرث Perth المجاورة للمدينة الجامعيـة ودهشت – كمصرى – كيف ان هذا المتحف الصغير فى مدينة غير مشـهورة فى اسكتلندا كان يحتوى قسمـا خاصـا بالمصريات ، فشـعرت بالزهو والاعتـزاز ، وكانت مشـاعرى من وقتـهـا – وحتى الآن – متضاربة ، فيما اذا كان «تهريبها» من مصر كان خيرا لمصر (وللبشرية والثقافة الانسانية) ام كان الواجب عدم خروجـها. فوقتـها لم نكن نملك القدرة على منع خروجـها اذ لم تكن لديها سيادة كاملة على أحوالها ، فضلا عن أننا ، لم نكن ندرك اهمية مالدينا من كنوز ممثلة في هذه الاحجار بما تحمل من نقوش غير مقروءة من المصريين وبالتالى غير مقدرة أو مثمنة

ولكننى أدرك الآن أن هذه الحقبة من عصر «النهب العظيم» لآثارنا المصرية لم يكن شرا كاملا ، فوجود هذا الكم الهائل من الآثار فى كل متاحف الغرب وحتى فى ميادينها العامة لهو دعاية ثقافية لمصر وعلينا ان نستثمره فى كل النواحى .

ومرة أخرى يعود الفضل لعالم مصريات غربى وهو أوجوست ماريت والذى نبه الخديو سعيد باشا واقنعه بأن الآثار تسرق ولابد من حفظها وتقرر إنشاء المتحف المصرى لأول مرة لحفظ الآثار الفرعونية فى بولاق ، ولولا ذلك لاستمر تدفق الآثار الملقى بها فى الصحراء دون حفظ أو حراسة جادة أو تسجيل نهبا لمزيد من السرقة والبيع والتجارة وظل اهتمام فرنسا بالتراث الفرعونى

مستمرا ، ففى عام ١٨٦٧ أقيم المعرض الدولى فى باريس ، وقد عرض فى هذا المعرض الدولى المهم العديد من آثار الفراعنة والتى نقلت من المتحف المصرى ولكنها للأسف لم تعد لمصر بل ظلت فى فرنسا . وبعد ماريت جاء ماسبيرو وهو المتيم بالتراث الفرعونى اذ هو الذى أنشأ المتحف المصرى فى موقعه الحالى بميدان التحرير بالقاهرة وهو الذى نسقه فى وضعه الحالى وبعده جاء دريتون وغيره الى ان دخل المصريون الميدان الى التفكير فى انشاء مجموعة المتاحف الجديدة قرب أهرامات الجيزة ربما فى القرن ٢١ فيما يبدو .

إن كل هذا الاهتمام فى الغرب بمصر الفرعونية بعد نحو ثلاثة قرون لا أجد له صدى بذات القدر من الهوس أو الفخر داخل مصر ، ليس فى الطبقات الشعبية فحسب وانما فى مجال المثقفين والمتعلمين والجامعيين وبالذات بالنسبة للشباب وقد آثار هذا الأمر اهتمامى وجعلنى أحاول فحص اسبابه وتذكرت كيف أننى فى مقابلة خاصة رتبتها بين قداسة البابا شنودة الثالث بطريرك الاقباط وبين الاستاذ الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل ، عقب أن عاد البابا من الاعتقال فى احد اديرة وادى النطرون من سبتمبر ١٩٨١ الى ممارسة سلطاته فى قصره بالقاهرة فى يناير ١٩٨٥ ، فكان ان تطرق الحديث عن الاسباب والظروف التاريخية التى ادت الى اغفال ذكر وتحديد فرعون مصر وقت خروج اليهود من مصر .

فكان ان اجاب البابا بذكاء وفى ضوء تراثه المصرى وقال «إننا في مصر عندما نكره شخصاً فإننا عادة نذكره بعبارة «فلان اللى مايتساماشى» اى الذى لايذكر اسمه كناية عن عدم الحب أو التقدير وربما تحاشيا من بطشه . ولذلك فالمشاهد ان كل من التوراة (أى العهد القديم) اى كتاب اليهود ثم الانجيل (كتاب المسيحيين) ثم القرآن (كتاب المسلمين) ، لم يذكر اسم فرعون المرتبط بواقعة خروج اليهود من مصر .

واذكر ايضا انه فى حوار خاص مع المرشد العام الاستاذ حامد ابو النصر حول الشخصية المصرية وكيف جاء تعليقه على ان ذكرت كيف ان المصرى متأثر بالرقائق الحضارية الاربع التى مرت بتاريخ مصر وهى الحقبة الفرعونية تعلوها الحقبة الهيلينية والمسماة «اليونانية - الرومانية) وهى متداخلة تاريخيا مع الحقبة المسيحية القبطية ثم تأتى الحقبة الرابعة الاسلامية بكل ماتحمل من رقائق جزئية ، فكان أن استوقفنى المرشد العام للاخوان المسلمين قائلا - نحن نحبك يادكتور ميلاد ، ونعترف معك بكل من الحقبتين القبطية والاسلامية فقط اما الحديث عن الحقبة الفرعونية أو اليونانية الرومانية ، فهى مراحل لا نعتز بها لأنها تذكرنا بعبادة الاوثان والعصر الجاهلى ولذلك نحن «كتابيون» نعتز بالمسيحية والاسلام اما ماقبل ذلك فلا .

□□□

هذه القصص قد فكت الالغاز امامى ، وكما جاءت المقارنة بين الكتابات الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية لكى تفك لنا - من خلال عبقرية شامبليون - اسرار الكتابات الفرعونية القديمة ، هكذا جاءت تلك القصص لتفك لى اسرار عدم اقبال المصريين على تراثهم الفرعونى ، ثم الابتعاد تماما عن الحقبة المسماة بـ «اليونانية - الرومانية» .

وأتصور ان نقطة البداية كان فى ان تراث المصريين القدماء نظرا لقمته وعمقه التاريخى قد اندثر تماما وانتقلت البشرية بعده إلى حقبة حضارات البحر المتوسط او مايمكن ان نسميه حقبة «الديانات السماوية» والتى بدأت ولاشك مع اليهودية وقد استطاع الشعب اليهودى ان يجمع تراثه فى الكتب أو الاسفار التى تكون فى مجملها وتراكمها العهد القديم والتى تشمل عدة أجزاء تبدو مختلفة ، ومتباينة فيها قصة الخلق فى سفر «التكوين» وتبعه سفر «الخروج» من وجهة نظر اليهود الذين اضطهدهم المصريون. وهناك ايضا تاريخ اليهود تفصيلا فيما يسمى سفر صموئيل الاول والثانى ثم الملوك الاول ، والثانى ثم اخبار الايام الاول والثانى وهى ستة اسفار تروى تاريخ اليهود وحروبهم وقضاتهم وانبيائهم وحكمائهم موثقة ومرتبة ويحتوى العهد القديم (التوراة) كذلك على الشعر والأدب والفكر .

والحكم فيما يعرف بسفر المزامير والأمثال الجامعة ونشيد الإنشاد وهناك عشرات الكتب والاسفار التى كتبت بالانبياء

المتتاليين احد القيادات الشعبية والحربية والنضالية والادبية للشعب اليهودى عبر تاريخه الطويل ، ولعل اشهرهم نحميا ، وارمياء ، وحزقيال ، ودانيال ، ويوناثان ، وناحوم وغيرهم .

ومن هنا فإن المعلومات أو بلغة العصر «المادة الخام العلمية» التى استقى منها الآخرون رواية وتفاصيل ومشاعر خروج بنى إسرائيل من مصر كانت هى أساسا سفر «الخروج» والتى وصف فرعون بالقسوة والجحود لأنه اضطهد بنى اسرائيل وهو الامر الذى دفعهم بزعامة موسى النبى للخروج من مصر . ولسنا بصدد تحقيق تاريخى عما جاء فى النصوص الفرعونية اى مايسجل على الاثار المصرية القديمة لواقعة خروج بنى اسرائيل . فلا زال هذا الامر يكتنفه غموض شديد وموضع اجتهادات علمية لم تستقر بعد ، وغالبا مايكون تداولها أو نشرها فى مجلات علمية صعبا نظرا لحساسيتها للجميع غير ان مارغبت فى طرحه هو ان الصورة الذهنية لنا عن الفراعنة قد اخذناها من كتبنا المقدسة وهو الامر الذى يوفر لنا الرغبة فى تثقيف انفسنا عن جدودنا الفراعنة من خلال المستندات التاريخية الفعلية اى من خلال الآثار وأوراق البردى ذاتها .

□□□

وبعد هذه المقدمة - والتى أتصورها طويلة نسبيا - نأتى الى التساؤل : ولماذا الاهتمام بطرح التعمق فى تاريخ الفراعنة الآن

فإذا كان موضع اهتمام الغرب - منذ نحو ثلاثة قرون على الاقل - فهذا شأنهم ، وقد يكون ذلك مجرد معرفة لتقييم الحضارات القديمة التى اندثرت لأن عددت اوروبا وامريكا هى انها لاتتمتع بهذا العمق التاريخى الذى لدينا، فلماذا نهتم نحن - ابناء واحفاد الفراعنة - بتاريخ الجدود الاقدميين ، وهو الامر الذى اود ان اطرحه للحوار ، هناك نظريات لاتستند الى اى دليل علمى يطرحها بعض الجيران تقول: إن الفراعنة بكل عظمتهم وانجازاتهم قد اختفوا واننا نحن المصريين المعاصرين لانمت بصلة اليهم ، ومن ثم فإن اهتمامنا بجذورنا سوف نكتشف [illegible]مرارية ممثلة فى العادات والتقاليد والامثال الشعبية والموسيقى و[illegible] اى فى التركيبة النفسية ، وسيكون ذلك حافزا لنا لبلوغ ما وصلوا اليه .

وفى هذا الامر ، لابد من وجود استمرارية بين الماضى والحاضر عبر الرقائق الحضارية التى مرت بها مصر حساسية فى فحص الاساطير الدينية عند الفراعنة فالعقل والمنطق لن يستطيعا إلاّ ان يقارنا بين علامة عنخ عند الفراعنة وعلامة الصليب عند المسيحيين او ان يربط بين ثالوث طيبة والثالوث المقدس ، وقد عالج الغرب هذه الامور وكتب عنها كثيراً دون حساسية غير ان تراث الفراعنة اكبر وأشمل من المعتقد الدينى ، فهناك مجموعة العلوم الطبيعية والكيمياء والفلك والرياضة

والهندسة Geometry وتطبيقاتها فى الطب وهندسة التشييد وغيرها وكلها علوم فيزيائية بديعة وملهمة ، ولكن بجوار ذلك يوجد الشعر والادب والقصة والفن والنحت وغيرها أى كل ما يسمى الآن بالعلوم الانسانية ، وهى فى مجملها كم هائل لم يستكمل اكتشافه بعد ، وهناك مجال الاجتهاد لمزيد من المعرفة لدراسة الطب والتحنيط والعقاقير عند الفراعنة ومن المفروض ان يسيل لعاب اساتذة الطب الوطنى ، واذا كان هناك مجموعة بشرية تتحمس لهذه القضية ، فمن المنطقى ان يكون ذلك من نصيب المصريين وليس الغرب وقديما قالوا «جحا أولى بلحم ثوره» .

□□□

ويدفعنى هذا الامر لأروى وأسجل ماهو معروف من «البهدلة» التى تعانيها «أجساد» المصريين القدماء من ملوك وأمراء وأميرات، ، فقد بذل الفراعنة جهدا علميا مضنيا - بل لعله خارق ومعجز بكل المقاييس - لامكان تحنيط هذه الاجساد اى حفظها آلاف السنين دون تلف ، وكنا متصورين انها اسرار الفراعنة الى ان تم فك الغاز التحنيط شيئا فشيئا واتضح انها كانت عمليات معقدة لها متخصصون فى التشريح وكيفية استخراج المخ من الانف واخراج الاحشاء وتجفيف جوف الانسان مع الابقاء على القلب (لاسباب دينية وهى فى اعتقادهم انه مكان الضمير الذى يوزن عند المحاسبة حسبما جاء فى اسطورة انى الشهيرة فى كتاب الموتى) .

وقد نهب الاأربيون عشرات بل مئات من المومياءات المنتشرة فى كل أنحاء العالم الأن ، الى ان جاء ماسبيرو وجمعها ونقلها الى المتحف المصرى مع مطلع هذا القرن ، ولكن اسماعيل صدقى باشا (وامعانا فى السخرية بكل من الفراعنة الاقدمين والمحدثين ونكاية فى حزب الوفد) قرر نقلها الى المدفن الذى كان قد أعد لنقل رفات زعيم الحركة الوطنية سعد زغلول فنقلت هذه المومياءات الى هذا المدفن بالفعل عام ١٩٢٩ وهو على اى حال مبنى على الطراز الفرعونى ربطا بين الحركة الوطنية والفراعنة وعندما عاد حزب الوفد الى الحكم وتقرر نقل رفات زعيم الوفد سعد زغلول فى هذا المدفن الحالى والموجود بمنطقة السيدة زينب قرب دواوين الوزارات وميدان لاظوغلى ، اضطروا لاعادة المومياءات الى المتحف المصرى ، وظلت محجوبة عن نظر الزوار سنوات الى ان تقرر عام ١٩٥٩ السماح بزيارتها على نطاق ضيق ثم كان ان زارها الرئيس السادات عام ١٩٨٠ وطالب بدفن هذه المومياءات فى البر الغربى بالاقصر أى مقابرها الاصلية ، واتصور ان الرئيس السادات - كان كأى مصرى - متأثر ان «كرامة الميت دفنه» وكما كان يعتقد انه أخر الفراعنة ، ولم يكن يتصور ان يمثل بجسده كما مثل بهذه المومياءات .

والجدير بالذكر ان الاقباط يقدسون ويتبركون باجساد القديسين ، كما وان المسلمين يتبركون بالاضرحة التى تحتوى

اجساد آل البيت والمشايخ واصحاب الكرامات استمراراً لذات العقائد الفرعونية المتوارثة.

واخيرا وفى اوائل شهر مارس عام ١٩٩٤ ، تم فتح قاعة بالمتحف المصرى الموجود بميدان التحرير ليزورها الناس مرة اخرى ، وربما كان الهدف هو احياء الاهتمام بحضارات الفراعنة كجزء من «الشغف بمصر».

يرحمه الله ان رحل الرئيس السادات عام ١٩٨١ قبل ان يصر على تنفيذ وصيته وتوجيهاته بدفن الموميات حفظا لكرامتها .

إن نشر التراث الفرعونى سوف يخدم قضية الوحدة الوطنية لأن المصريين ، علاوة على الفوائد الاقتصادية التى يمكن ان تعود على مصر من خلال عرض ونشر افلام وصور البرديات وغيرها من جميع ألوان الحضارة المصرية واستكمالا لقضايا مصر الثقافية وخصوصيتها فإننا نعرض في الموضوع القادم كيف ان لمصر ثقافة واحدة لها ساقان، هما الاسلام المصرى والمسيحية القبطية أى المصرية ، وهى إحدى ركائز الممارسات فى مصر عبر الف سنة ولعلها أحد الأسباب التى تحصن مصر ضد هبات العنف والتطرف لان فيها قبولاً لمبدأ التعددية وهو مفتاح تعميق الديمقراطية وقبول الآخر .



الثقافة المصرية لها ساقان

كل منا ابن تاريخه وارتباطاته وانتماءاته ، وفى هذه المرحلة من العمر استرجع كيف نشأت فى مناخ الحركة الوطنية المصرية واستمعت من والدى لما جرى من قطع السكك الحديدية بين سنورس والفيوم عندما اندلعت الثورة المصرية فى مارس عام ١٩١٩ .

وترعرت فى بيت جدى لوالدتى الخواجا جرجس (*) مترى وكان تاجرا فى حى الحمزاوى بمنطقة الحسين قرب الأزهر وفى أجازة الصيف كنت أحمل مفاتيح المحل ليقوم العمال بالنظافة ويأتى من يحمل المبخرة وتتصاعد منها رائحة المسك والجاوى ليطوف المحل ويصلى على الرسول ثم أعطيه نصف قرش لكى يدور بالمبخرة عدة مرات طالبا أن يفتح الله فى وجهنا ليوفر عددا أكبر من الزبائن للمحل التجارى ، وأتذكر الآن كيف إن هذا الموقع الفريد كانت تفوح منه رائحة التاريخ وعصور الحقبة الإسلامية فى القاهرة فعلى بعد خطوات كان جامع الحسين والأزهر ، وخلف المحل توجد الصاغة وخان الخليلى وفى الجهة الأخرى من شارع الأزهر توجد الغورية وكانت عربة «السوارس» التى يجرها

* الخواجا جرس :سألت صديقى الناقد والأديب رجاء النقاش عن أصل كلمة خواجا فقال لى : إن أصلها فارسى وتعنى «السيد» وهى تتفق مع ذات العبارة اليونانية التى يشار بها إلى علية القوم عند الأقباط وهى الأراخنة ومفردها أرش وتعنى «الرئيس» .

حصانان تتمهل أمام الناصية لكى يركب «كعب عالى» والنساء يتمخطرن فى الملاية اللف وأستشف ملامح الوجه الجميل من خلف البرقع المثير لخيال المراهق .

وفى الوقت ذاته كان جدى الخواجا جرجس من أصول تعود إلى قرية شنرى مركز الفشن فى بطن الجبل فى الغرب ، حيث كان الحاج الشيخ عبدالعظيم الرفاعى يحضر فى المواسم حاملا ما لذ وطاب من لحم ماعز أو الضأن ، وكان مقدمة حاملا هذه «الزيارة» بما تحمل من ماكولات نتيجة مشاركة لجدى فى زراعة الأرض ، فيعم الخير على الجميع ، ويمنحنى جدى ريالا كاملا وكان أكبر عملة فضية ، ولم أكن أحصل على هذا الكنز إلا بعد أن أقبل يده ، وأدعو له بطول العمر ، ثم أجرى مسرعا إلى جدتى «أجيه» لكى أخفى عندها هذا الريال وكأنه البنك ثم أسحب من هذه «الوديعة» قرشا قرشا

هكذا نشأت فى هذا المناخ الثقافى الذى يحمل كل عادات هذا العصر وهى أنه رغم أن كلا منا يمارس شعائره فلم نكن نفرق بين قبطى ومسلم بل كان التمييز على أساس الدين أو حتى الانتباه إلى اختلاف الدين عيبا ، وإن تم فلابد أن يكون همسا ، فمن غير اللائق أن تسأل أو تستفسر عن ديانة الفرد أو الأسرة أو الجماعة ولكنها «تستشف برقة وفى نعومة غرستها فينا مفاهيم وشعارات

ثورة ١٩١٩ أن الدين لله والوطن للجميع» وصار هذا الشعار جزءاً من الوجدان الوطنى المعاش.

وكان تأثرى بجدى لامى الخواجا جرجس مترى من خلال تجارته التى تجاور الأزهر ثم امتدت لأتعرف على زبائنه من عمد وأعيان محافظتى بنى سويف والمنيا من المسلمين والأقباط على حد سواء فقد كانت تجارته هى بيع الصوف والجوخ ولديه مصنع صغير لاقمشة «الشاهى اللامع» وقد تأثرت به أيضا كواحد من القيادات للكنيسة التى تقع خلف العمارة التي بناها لكى نكون بجوار «الست العذراء» كما كان يكرر ولا يمل أن يقص علينا كيف رتبت الإرادة الإلهية هذه الجيرة التى أعتبرها مصدر توفيقه ورزقه وحماية له ولأولاده .

ففى ذات يوم عام ١٩٢٤ ، كان يمر بشارع «مسرة» المتفرع من شارع شبرا حيث خط الترام ثم يسير مرتجلا ليصل إلى «حارة النصارى» بمنطقة «الحلّى» وهى منطقة شعبية ذات نكهة إسلامية ، فوجد قسيسا عرفت فيما بعد أنه أبونا سيداروس – يتحدث مع آخرين ويتشاورون فى جدية ظاهرة ، وعندما سأل أجابوا بأنهم سيبنون كنيسة باسم «السيدة العذراء» فى هذا التقسيم من الأراضى والذى يبدو انه من أملاك بعض الشوام (مسرة – خلاط – نشاطى) فعرض أن ينضم إليهم فوافقوا ، وفورا اشترى قطعة أرض خلف الكنيسة مباشرة ولا يفصلها عن

حوش الكنيسة إلا حارة ضيقة مازالت معروفة حتى الآن بحارة الأقباط ، ووقتها لم نكن نعرف الخط الهيمايونى ولا الحاجة لقرار ملكى لبناء كنيسة ولا حتى ترخيصا من التنظيم (ففى ذلك الوقت لم تكن توجد إدارة إسكان بالمحافظة أو وزارة الاسكان) وهكذا نشأت فى هذا المناخ حيث يمارس الأقباط عباداتهم بحرية كاملة ودون عائق ، كان هذا مناخ الحركة الوطنية المصرية وكان بالفعل شهر عسل فى العلاقات القبطية الإسلامية دون الحاجة إلى تنظير..!

ورغب جدى فى تهذيبى دينيا فأحضر المعلم عريان (وكان عريف الكنيسة وهو رجل ضرير يحفظ الأصوات والأنغام ويسمونها «ألحان الكنيسة» عن ظهر قلب دون الحاجة إلى قراءة أو نوتة موسيقية) وبدأ المعلم عريان بتلقينى مبادىء الدين ويعلمنى ألحان وصلوات القداس «والمردات» لكى يؤهلنى لأن أكون «شماسا» وبالفعل أذكر فرحتى يوم أن جاء أسقف الغربية (وقتها كان اللقب الغالب هو المطران) ولازلت أذكر اسمه الأنبا «توماس» وكنا ندلعه باسم «الأنبا توتو» فقد كان جميل الصوت والصورة يتمازج وهو يصلى بتنغيم صلوات القداس بصوت أقرب للطرب منه للعبادة والخشوع وكان معجبا بنفسه وزيه ولازلت أتذكر كمية الذهب والمجوهرات التى يحملها فى شكل «صلبان وايقونات» ، واثناء صلاة القداس قام بقص شعرى (ضمن عشرة آخرين)

تدشيناً لى ، فقد صرت بهذه الحركة السريعة «شماسا» وقد سعدت بهذه الرتبة الدينية وبالملابس البيضاء التى ارتديتها على الرغم من حزنى على خصلة الشعر التى قصها حتى أفسدت ما تصورته زينتى الوحيدة كولد فى سن الصبا .

كان والدى مولعا بالقرآن ويحفظ منه سورا وآيات كثيرة ، وعندما يزوره أحد زملائه ، لم يكن السمر يتعدى متابعة صراعات أو انتصارات حزب الوفد بما فيها من خلافات غير المعلنة بين النحاس باشا والقصر والنميمة حول الأعيب الانجليز للمحافظة على سيطرتهم على الحكم وكنت أستشف سعادة أبى وأصدقائه وجيراننا لنجاح الأقباط والمسلمين فى الالتفاف حول الحركة الوطنية حتى لاينفذ منها الاستعمار ، وكيف أن مصر قد نجحت فى التماسك الوطنى وأدى ذلك لأن حصلت مصر عام ١٩٢٢ على شىء من الاستقلال المشروط ثم زاد الاستقلال خطوة أخرى مع «المعاهدة» على يد النحاس باشا عام ١٩٣٦ ، وكنت ألاحظ أن العديد من أصدقاء والدى مسلمون وأن حواراتهم – عندما يمتد السمر – تشمل أمور الدين ، وأعود الآن لاتذكر أن السجال كان راقيا وبودا باختيار الآيات التى تدعو للألفة والمحبة ، وعندما كبرت وتعرفت على نصوص أكثر فاكتشفت الحكمة التى كان يتمتع بها جيل أبى وجدى وكيف أنهم يعرفون معظم النصوص ، ولكنهم بذكاء وفطنة وفهم يختارون من بينها ما يدعم الوحدة

الوطنية ، وعلى سبيل المثال كان الحديث عن قصص خروج بنى إسرائيل من مصر فى كل من التوراة والقرآن ثم يتبارون فى سيرة سيدنا يوسف ونقائه حسبما جاء فى نصوص الإنجيل والقرآن ثم تكون المقارنة بين الوصايا العشر وما يقابلها من نصوص قرآنية وكيف أن القيم الأخلاقية واحدة أو متقاربة ، وعندما كانت تأتى سيرة السيدة العذراء مريم كنت أحس بكل منهم يحاول أن يُعلى من قدرها وكيف أنها أفضل نساء العالمين

وأتذكر الآن كيف أنهم كانوا يتحاشون الحديث عن «التثليث والتوحيد» أو ، عن «صلب المسيح» وما إذا كان حقيقة أو خيالا أو غير ذلك من القضايا العقائدية الحساسة والتى يدرك المصرى – دون أن يفصح – أنها موضع خلاف .

□□□

وهكذا عشت حياة – ما أسميته فيما بعد عندما كبرت – البحث عن «الأرضية المشتركة» والبعد عن القضايا الخلافية والتى تتحول إلى صدام أو خصام وهذه خاصية مصرية أصيلة قد لا يكون لها نظير فى معظم البلدان العربية المجاورة .

ولم يقتصر أمر هذا التداخل فى النسيج الثقافى المصرى بساقية المسلم والقبطى على المجالات السياسية فى حزب الوفد أو بين مثقفى الطبقة المتوسطة أو بحماس كبار ملاك الأرض فى بناء المساجد والكنائس معا مثلما تم بالفعل فى عشرات القرى المصرية

ولكنه امتد للعلاقات الداخلية بين الأسرة من خلال النساء والأطفال ، فقد كان لأمى نشاط اجتماعى واسع ، ولها موقع الريادة بين الجيران فى المنطقة إذ كانوا يستشرونها فى القضايا المهمة مثل الزواج أو الطلاق وكنت أشعر وكأنها موضع أسرارهم الدقيقة .

ومن بين ذلك أن جارة لنا أذكر إننى كنت أناديها «تيزة أم حسين» كانت تشكو لأمى من احتمالات أن زوجها قد يتزوج عليها وكيف السبيل لـ «قصقصة ريشه» وكانت أمى تنصحها – على قدر ما كنت أستوعب من فهم فى هذه السن المبكرة – بأن تغرقه بحنانها وأن تجعل أولاده وبناته حوله باستمرار .

وعندما تقدم السن بالسيدة «أم حسين» كانت تخشى أن توافيها منيتها فجأة دون أن يتوافر لزوجها ما يكفى لمواجهة مصاريف هذا اليوم العصيب ، فقد كانت لا تذكر اسم زوجها «عم حسين» إلا مقرونا بأن «يده مخرومة» .

وكنت ألاحظ أن «أم حسين» تدخر لدى أمى بعض المال والذى تزيده أو تأخذ منه حسب حاجتها بين الحين والآخر وكأن والدتى «بنك ملاكى» سهل المنال ، وفى أحد الأيام جاءنا من يقول أن «أم حسين» قد ماتت ، وحزنت أمى وبكت ، وفى هدوء أعطتنى منديلا ملفوفا يحمل داخله عملات مالية من فئة الجنيهات العشر ، وقالت

«اعط هذا المنديل إلى عمك أبو حسين فهذه أمانة تخص أم حسين لمصاريف جنازتها» .

□□□

وفى كل مرة كنت أسرد هذه القصة على أصدقائى وزملائى ، كانوا يرددون روايات مماثلة ، ولكن تغير المناخ الثقافى والفكرى هو الذى يضطرنا لأن نستشهد بما كنا نعده فى الماضى أمورا عادية لتداخل العلاقات الحميمة بين المسلمين والأقباط .

ولذلك ومواصلة للعمل من أجل ثقافة مصرية متكاملة رغبت فى أن ألقى الأضواء على «الثقافة القبطية» ، ومن هنا كانت هذه الخواطر الشخصية – التى أعتذر للقراء فى أنها جاءت طويلة ، ولكننى أرجو ألاّ تكون مملة – لكى أبرز كيف انفعل جيلى بهذا المناخ الخاص الذى تولد عبر التاريخ – عبر قرون طويلة تزيد عن ألف عام – وزادته الحركة الوطنية قوة وتماسكا وتأكيدا ، وأدى بالفعل إلى تحقيق مكاسب وطنية وإعلان تصريح ٢٨ فبراير عام ١٩٢٢ كما سبق القول فى وقت مبكر قبل أى مستعمرة بريطانية أخرى .

وعقب حرب ١٩٧٣ رغب الرئيس السادات أن يبنى دولته بطريقة تخالف ما كان يجرى فى أيام الرئيس عبدالناصر ، وكان أن استفاد من وجود تيار دينى كان قد ضمر نفوذه فى مصر وهاجر إلى دولة عربية مجاورة ، فنما هناك وعاد متعاونا مع

السادات ليساعده فى قهر الحركة اليسارية فى مجملها ، فتدفق تمويل مباشر وغير مباشر من دول عربية كانت معادية لنظام عبدالناصر ، وبينها وبين مصر ثأر تاريخى ، فوجدتها فرصة لأن تجعل مصر تابعة لها من خلال العواطف الدينية ، فانتشر التطرف لكى يطمس ملامح «الخصوصية المصرية» ، حيث للثقافة ساقان أو جناحان هما الاسلام كما فهمه المصريون أى ما يمكن أن نسميه الاسلام المصرى والمسيحية كما فهمها المصريون أى المسيحية القبطية ، فالقبطية صفة قومية وليست دينية ، وعندما تقول مسيحية قبطية فمعناها مسيحية مصرية ، ويلمس كل محايد منصف كيف أن الثقافة المصرية – بركائزها العربية الإسلامية – تختلف بشكل واضح عن جميع الثقافات العربية الإسلامية المجاورة ، وأتصور أن كل منصف يقر بأن أحد أسباب تسامح المصريين ورحابة صدرهم يعود إلى وجود هذه الساق الأخرى وهى الثقافة القبطية.

□□□

دخل الإسلام مصر عام ٦٤١م . كما هو معروف ، لكن عمرو ابن العاص كان سياسيا بارعا لم يضغط على «القبط» أى المصريين ليتحولوا إلى الاسلام . وهكذا تحاشى الدخول فى حرب معهم من خلال تعهداته والتزاماته الأدبية مع الأنبا بنيامين بطريرك الأقباط الشعبى المختار من اراخنة الأقباط (أى رؤساء

الشعب وليس من رجال الدين وحدهم) وكان هاربا من طغيان الامبراطور البيزنطى «هرقل» الذى كان يود أن يفرض على المصريين العقيدة «الملكانية» (أى المرتبطة بالملك ولذلك يسمون المسيحيين فى لبنان وسوريا حتى الآن طائفة الروم أو الأروام أو الملكانيين) وفى تقديرى المتواضع - وأنا لست متخصصا فى علوم التاريخ - أن مصر لم تتحول بأغلبيتها إلى الاسلام إلا فى القرن العاشر مع دخول الفاطميين إلى مصر ولذلك ظلت الأمور «بين بين» من منتصف القرن السابع حتى منتصف القرن العاشر ، وبعدها انتشر الاسلام على نطاق واسع .

وفى الأغلب الأعم كان الرجل يتحول إلى الدين الجديد - لسبب أو لآخر - ويترك زوجته على دينها أى مسيحية قبطية ، وكان على الأولاد التحول إلى دين الأب وفق قواعد الشريعة ، ولذلك تعايشت فى كثير من البيوت ديانتان حيث الأم قبطية والأب (وبالتالى الأولاد) مسلمون ، ولذلك - ولسنوات طويلة - كانت هناك ممارسات ثقافية (وربما دينية) متنوعة فى البيت الواحد ، حيث يذهب الأطفال مع الأب لصلاة الجمعة ، ومع الأم لصلاة القداس يوم الأحد .

وفى كثير من البيوت فى عمق الصعيد وحتى سنوات قليلة كان الاحتفال بعمل الكعك وتكحيل العيون للنساء والبنات يوم سبت النور السابق مباشرة لعيد القيامة ثم احتفال الجميع بتلوين

البيض وأكل الفسيخ وشم البصل يوم الأثنين فى عيد شم النسيم واللاحق لعيد القيامة مباشرة ثم كانت ممارسات «الغطسة» فى الترع يوم عيد الغطاس (وهو المناسبة الدينية للاحتفال بعيد تعميد المسيح بعد الميلاد بنحو ١٢ يوما فى ١٩ يناير من كل عام) ولعله عيد فرعونى قديم .

وأتصور أن هذا التداخل الحضارى - الذى عاشه جيلى بين الأقباط والمسلمين يعود لقرون مضت وقد كان الأطفال المسلمون يؤدون بعض صيامات الأقباط وبالذات صوم عيد السيدة العذراء (ويأتى من ٧ إلى ٢١ أغسطس من كل عام) ومن المؤكد أنهم كانوا يصومون مع آبائهم شهر رمضان ، ولذلك فان الأقباط يشار إليهم فى الريف المصرى حتى الآن بأنهم «اخوالنا» من منطلق أن أخوال هؤلاء الأطفال - الذى تحول آباؤهم إلى الاسلام وظلت أمهاتهم مسيحيات - كانوا بالفعل اقباطا .

واعتقد أن كل من الإسلام والمسيحية فى مصرى يرتكزان ثقافيا على أرضية مشتركة هى ممارسات الحضارة الفرعونية القديمة ، ومن هنا فإن هذه المساحة المشتركة بين المسيحية والإسلام هى خصوصية مصرية لأن كلا منها يشترك مع الآخر فى جانب كبير من مفاهيم الحضارة الفرعونية وتقاليدها .

ويبدو ذلك واضحا فى كثير من الممارسات داخل الكنيسة القبطية التى توجد لها جذور وامتداد فى الحضارة الفرعونية ،

فالموسيقى والألحان لابد وأن تكون محصلة الموسيقى فى الحقبة الفرعونية ثم الحقبة «اليونانية – الرومانية» ، ولذلك لا استغرب هذا التشابه الواضح بين ألحان الأذان وقراءات القرآن وبين ألحان القداس القبطى . وقد كنت ألمس – عندما كنت أذهب للعزاء فى السودان (ويسمونه هناك البكا) أنهم يحضرون اسطوانات لمقرئين مصريين ، ربما لارتباطاتهم التاريخية بتراث مصر من خلال بلاد النوبة فالعالم الاسلامى يستمتع بقراءات القرآن التى تتلى بواسطة المقرئين المصريين .

وأتصور أن الرداء الأسود الذى يلبسه الكهنة المصريون لابد أن تكون له علاقة برداء الكهنة لدى الفراعنة ، بل ربما تكون فكرة وجود أكليروس أى رجال دين استمراراً لمفاهيم الكهنوت لدى الفراعنة ، وكذلك صحن الكنيسة وتقسيماتها الداخلية وما يسمى الهيكل وصولا لـ «قدس الأقداس» الذى «يدخله الكهنة مرة كل سنة ليكفر عن نفسه وعن كل الشعب» ، وكذلك المذبح والبخور وما إلى ذلك ، وكمهندس معمارى لا أتصور المنارة أو المئذنة إلا تطوير لفكرة المسلة (أو المسلتين) فى مدخل معبد الأقصر تأكيدا لوجود المعبد ودعوة الناس للدخول إلى رحابه .

وقد استوقف نظرى فقرة جاءت فى الجزء الأول من كتاب «أصوامنا العامة السبعة» لنيافة الأنبا اغريغورس أسقف عام البحث العلمى والثقافة القبطية إذ يقول «وفى مصر القديمة

هيرودوت تبين أن المصريين القدماء كانوا يصومون ثلاثة أيام من كل شهر ولاحظ هيرودوت أنهم كانوا - أيامها ، وربما بسبب ذلك الصوم - من أكثر الشعوب صحة» .

وتوجد شواهد كثيرة على تأثر الاسلام في مصر بكل ما سبقه من حضارات - وهى الفرعونية واليونانية - الرومانية والقبطية ، بل يتميز الاسلام فى مصر - من وجهة نظرى- بأنه استوعب وتجاوز الخلافات المذهبية داخل الاسلام ذاته ، ولذلك فان لمصر أن تفخر بأن بها اسلاما واحداً بخلاف كل الدول الإسلامية الأخرى حيث التناحر - ظاهر وخفى - بين الفرق والمذاهب المختلفة ، ذلك أن مصر صارت شيعية مع دخول الفاطميين إلى مصر ولذلك أنشأوا الجامع الأزهر نسبة إلى «فاطمة الزهراء» ، وقد قبل الأقباط المذهب الشيعى بترحاب لوجود بعض الشبه بينهما ، ولكن مع دخول «صلاح » الدين الأيوبى» إلى مصر تحول شعب مصر كله إلى السنة ، ولكنه - منطقيا وطبيعيا - احتفظ بالكثير من العادات والممارسات الشيعية، ولعل أبرزها هو الاحتفالات بيوم «عاشوراء» والاهتمام بزيارة الأضرحة وبالذات التبرك بزيارة جامع «سيدنا الحسين» و«السيدة زينب» .

ثم يأتى موضوع «شفاعة المشايخ» وأضرحتهم مناظره بل امتداد طبيعى لما هو موجود عند الأقباط من «شفاعة القديسين» حتى لاتكاد تخلو محافظة - أو مدينة - ومن شيخ شفيع حيث

يقـام له «مـولد» كل عـام فـهناك «أبوالعـبـاس» فـى الاسكندرية و«سيدى إبراهيم الدسوقى» فى دسوق و«السيد البدوى» فى طنطا وسيدى عبدالرحيم فى قنا وهى تناظر موالد للشهيد العظيم مار جرجس فى كنيسة ميت رمسيس قرب ميت غمر ثم مولد العريان فى المعصرة قرب حلوان ثم مولد الشـهيدة الست جميانة فى بلقاس بكفر الشيخ وغيرها كثير وأعتقد أن لهذا الأمر علاقة بذات التراث عند الفراعنة الأقدميين وهو أمر يحتاج لتحقيق تاريخى عند فحص أساليب المصريين فى احتفالات مولد النبى والتى لاتقتصر على عمل الحلوى وإنما فى عمل عروسة المولد من السكر، ويقال إن لها أيضا جذورا فرعونية وربما قبطية ان أحوال مصر لن تستقر ثقافيا إلا بوجود الساق الثقافية الأخرى وهى ساق الثقافة القبطية والتى قد طمست فصارت الثقافة فى مجملها عرجاء أو تشكو من شلل الأطفال.

امتدادا لتوفير التوازن اللازم للثقافة والمفاهيم فى مصر ، ينبغى أن نقيم الثقة بين الدولة والشعب وهى الركيزة لأى تقدم وإنجاز ، ولذا فإن لبناء الثقة جناحين هما المعلومات والشفافية .



الشفافية والمعلومات
هما
جناحا «بناء الثقة» ..!!

تفضلت الخارجية ، بدعوتى لحضور ندوة تقوم بها «منظمة الأمن والتعاون الأوروبى» وتستضيفها الخارجية المصرية ، حول قضية أعجبت كثيرا بموضوعها وهو «اجراءات بناء الثقة» وقد شدنى أكثر عناوين الدراسات والجلسات ، فكلها تبغى الوصول إلى «الشفافية» وهو مصطلح جديد أصبح شائعا فى عالم السياسة بعد أن كسرت تكنولوجيا وثورة المعلومات والاتصالات حواجز «السرية» التقليدية التى كانت تقيمها كل الدول كالمتاريس، وستخف حدتها شيئا شيئا مع الزمن ومع التقدم العلمى الذى ينشر المعرفة والمعلومات .

ومن هنا فإن القضية ليست مجرد حرية نقل المعلومات بالكمبيوتر أو تخزينها أو تشفيرها (أى عمل شفرات حتى لايتمكن الآخرون من الوصول إليها) وإنما هى قضية حرية نقل المعلومات وتداولها من منظور مفهومنا الثقافى أى الباطنى الداخلى وليس الخارجى المظهرى ، والذى لايزال مؤمنا بفوائد «السرية» لأن من «يدارى على شمعته تنور» حتى أصبحنا كشعب مصابين بمرض الشيزوفرينيا أى إنفصام الشخصية . الأولى صريحة فى الجلسات الخاصة والأخرى حذره مرتبطة فى العلن أو منافقة فى وسائل الاعلام من خلال خطب تقليدية رنانة الخطب الرنانة .

أخذت أفحص الأسباب التى تدعو «منظمة الأمن والتعاون الأوروبى» لكى تناقش – بوضوح وفى العلن – بل وفى ضيافة دولة

لا تنتمى إلى اتحاد أوروبا ، قضايا دقيقة وحساسة مثل التسليح فضلا عن الأمور التى تتعلق بالجيوش والمخابرات وغيرهما ، ذلك أن دول أوروبا - وهى تنتمى إلى لغات وربما لثقافات مختلفة - وكانت لسنوات طويلة بينها وبين بعض حروب طويلة كان آخرها وأكثرها تدميرا الحرب العالمية الثانية والتى مازال من خاضوها على قيد الحياة .

إن أوروبا - شرقا وغربا - وهى تتطلع لدعم «الاتحاد» وصولا إلى «الوحدة» تود أن تخطط لتبنى مستقبلها على أساسات «بناء الثقة» وليس على الشعر والعواطف والكلام المرسل ، ولذا تبحث وتتمحص قبل أن تتخذ القرار مؤمنين بالمثل الذى يقول «النجار الشاطر يقيس عشر مرات قبل أن يستخدم المنشار فى قطع الأخشاب» وهذا فى المقام الأول مفهوم ثقافى ينتجه المجتمع فى مجمله شاملا التراث وغالبا ما يسود هذا المفهوم من الوزير إلى الغفير

ولا أستطيع أن أقاوم طرح المقارنة بين هذا المفهوم الثقافى لما يجرى فى أوروبا وبين أمور عاصرها جيلى فى مصر من ممارسات الوحدة ، مرة كانت مع سوريا عام ١٩٥٨ وانتهت بالفشل ، ثم مرة مع ليبيا وسوريا فى أوائل السبعينات ثم مات «الاتحاد» فى هدوء دون اعلان.

ثم جاءتنا أخبار أفراح ومهرجانات الوحدة التى أعلنت - فى أيام ودون دراسة - بين اليمى الشمالى «القومى» واليمن الجنوبى «الماركسى» فى أوائل التسعينات وفى وقت متزامن مع الوحدة بين ألمانيا الغربية الرأسمالية وبين ألمانيا الشرقية «الشيوعية» وها نحن نجد الفارق الشديد بين كل من الوحدتين ..! الأولى انتهت بحرب أهلية ، والأخرى تخطو لتكون أكبر دولة موحدة فى أوروبا

هم - فى أوروبا وأمريكا - برجماتيون يدرسون ويحللون بمفهوم الواقع والممكن والمصلحة وسيادة وتحكيم العقل وبنظرة مستقبلية ثم يخططون لأى عمل على مراحل فى إطار البدائل والاحتمالات والتى صاروا يسمونها بـ «السيناريوات المختلفة» ، ونحن نتحمس بالعواطف فى لحظة ونخرج كشعب له موروث ثقافى فى مظاهرات رومانسية يؤيد الوحدة ، ولكن - فى الخفاء وداخل الصدور - لكل فريق حساباته الداخلية للخروج من مأزق ، فتتم الوحدة دون طرح ومناقشة «إجراءات بناء الثقة» .. فلذا فهو مفهوم ثقافى عام قبل أن يكون قدرة وذكاء فى اتخاذ القرار ، لأننا نحمل فى داخلنا مفاهيم «التقية» أى نعلن خلاف ما نبطن إتقاء لغة الصراحة ، ولذا نجح أخرون فى تكوين «كتل اقتصادية أو سوق مشتركة» بينما لدينا نحن العرب كل معطيات ومقومات التعاون - ولا أقول الوحدة - ولكننا لم نتوقف ونتريث لكى نفحص «إجراءات بناء الثقة» وكنا باستمرار متعجلين الأمور ، وننعت من

طلب التأنى بأنه طابور خامس يعيق التقدم الذى ننادى به الجماهير .!!

تأملت هذه المفارقات وأنا أفحص الحالة التي وصلت إليها العلاقة بين الحكومة والصحافة ، وعندما حضرت الجلسة الافتتاحية للمؤتمر الثالث لنقابة الصحفيين ، وجدت همهمة بين كبار المدعوين عن أسباب اعتذار رئيس الحكومة عن حضور حفل افتتاح المؤتمر بعد أن كان قد أعلن عن ذلك ، ولما عرفت أن الرئيس قد دعا حفنة من الوزراء لاجتماعات عاجلة تبحث أمور الدولة وجدت في عدم حضور الوزراء سببا معقولا ، ولكن الهمهمة والهمس لم تكن تعنى إلا حاجتنا «لبناء الثقة» وهو أمر لا يأتى بقرار سلطوى بل من خلال ممارسات فكرية وثقافية تتراكم من خلال أحوال الأسرة الداخلية ثم التعليم ثم أجهزة الاعلام وبالذات التليفزيونى ثم أماكن العبادة وغيرها وصولا إلى بناء الثقة بين الحاكم والمحكومين فلذا فهى مسألة حضارة ووقت وتعميق لآليات الديمقراطية والمشاركة الشعبية وانتخابات نزيهة وصولا إلى تداول السلطة وعندئذ نكون قد اقتربنا من «الشفافية» .

□□□

مع حضور حفل افتتاح المؤتمر ، أخذت أتصفح ملف الأوراق الذى أعده مجلس النقابة لطرحه على الصحفيين فى مؤتمرهم فأدركت سر نجاح نقابة الصحفيين وكيف أنها أخذت بالأسلوب

المتحضر فأعدت دراسات قدمت للجان المختلفة تناقش فى ضوء «معلومات» ومعطيات وبدائل وليس بطريقة «سوق عكاظ» أو منطق «هايد بارك» ، أى استعراض «كلام دون معرفة» وهى أيضا ممارسات ثقافية نراها فى معظم اجتماعاتنا على أعلى المستويات حيث يتحول الحوار إلى «مكلمة» فتطول المناقشات ولا تصل إلى قرار .

من بين القضايا والبحوث المختلفة ، استوقف نظرى الورقة ، بعنوان «حق إصدار الصحف وحق الحصول على المعلومات وتأثيرهما على حق الجماهير فى المعرفة» .

ثم كان منطقيا أن تتم المقارنة بين القوانين فى مصر والمقابل لها فى الغرب ، وكيف أن فرنسا قد أصدرت منذ ١٧ عاما تشريعا يعطى «كل مواطن حق الاطلاع على الوثائق الإدارية الصادرة من وحدات الجهاز الإدارى بالدولة أو الوحدات المحلية أو الهيئات الخاصة ذات النفع العام » أى أن الأمر لا يتعلق فقط بالدولة وإنما يمتد ليشمل الجمعيات الأهلية غيرالحكومية والمؤسسات الدينية حيث الملاحظ أن معظم المؤسسات الدينية ليس لها ميزانية معلنة ولا توجد أى شفافية فى قراراتها أو أموالها وهى أمور تثير حوارا صاخبا لأنها معتمة ولا تتمشى مع العصر وكذلك الأمر فى بعض الجمعيات الأهلية حيث تسيطر عليها مفاهيم «الشلليه» .

◻◻◻

وجاءت هذه العبارات الواضحة والمحددة ، لكى تدفع إلى وجدانى قصة مختزنة منذ سنوات ، ومن منطلق الشفافية ، فإننى لا أتحرج عند طرحها ، ذلك أنه كانت بعض الجامعات الأمريكية قد دعتنى لزيارتها - ربما عام ١٩٨٣ أو ١٩٨٤ - وبهدف إلقاء بعض المحاضرات ، وكان أن تم هذا الأمر - وفق الاعراف والتقاليد - من خلال المستشار الثقافى للسفارة ، والذى تفضل فأنهى كل الأمور والترتيبات ، وإذ به يفاجأ - وأنا أكثر منه دهشة - بأن القسم القنصلى قد رفض منحى تأشيرة دخول فانهار البرنامج المعد مسبقا ، وغضب من هذا الأمر عدة أساتذة أمريكيين وأرسل أحدهم - وهو د. جون ميريام أستاذ العلوم السياسية بجامعة بولنجرين بولاية أوهايو ، مستفسرا من الجهات المعنية عندهم وجاءه الرد المكتوب - والذى أرسل إلىّ صورة منه - بأن سبب حجب تأشيرة الدخول هو أن اسمى مدرج ضمن قوائم حركة السلام المصرية ، وأعتقد أن هذا الأمر قد اختفى وصار من تراث وممارسات وبقايا حقبة الحرب الباردة ..!

وليس هدفى من سرد هذه القصة - والتى صارت تاريخا لمرحلة عتيقة مظلمة - هو طرح قضية شخصية انتهت من سنوات بأن منحت تأشيرة خاصة شبه مفتوحة كاعتذار ورد اعتبار - وربما استرضاء - وإنما رغبت أن أؤكد للقارىء المصرى أن حق

معرفة أسباب اتخاذ القرار ، أمر يتم كل يوم ويشكل طبيعى فى كل دول العالم الديمقراطى ولا يجد فيه موظف الحكومة - حتى وإن كان منتميا لوزارة الخارجية - أى غضاضة أو تململ بل هو ينفذ القانون والذى صار مقبولا بالأعراف العامة من خلال الممارسة ، فحق سؤال الدولة لم يعد مقصورا على أعضاء مجلس الشعب - وهو حق دستورى ولكنه لا يمارس كاملا وبشفافية لأن الحكومة بالاتفاق مع البرلمان تؤجل السؤال شهرا بشهر حتى يسقط بانتهاء الدورة البرلمانية - وإنما صار حق سؤال الدولة حقا عاما لكل مواطن وهو أمر أراه بعيد المنال ولا أعتقد أنه سيتم فى السنوات الأولى لحقبة «ما بعد عام ٢٠٠٠»

فإذا ما امتنعت الإدارة الحكومية عندهم - فى الدول الديمقراطية عن تقديم الاجابة ، فإن الأمر يرفع إلى جهة «محايدة» ويمكن أن تحجب البيانات أو المعلومات بتقديم المبررات، إذا اقتنعت هذه اللجنة المحايدة بأن للحجب وجاهته لأنه يمس أمن الوطن أو خصوصية وأسرار آخرين ، حجبت المعلومات وفى هذه الحالة يطعن المواطن فى قرار تلك اللجنة أمام القضاء .

أن حق المواطن فى الحصول على المعلومات لهو تأكيد لمفاهيم الديمقراطية وتجسيد لكرامة المواطن وإبراز لعدالة ونزاهة وموضوعية وحياد الدولة ، ومن هنا هو سبيل «بناء الثقة» ويا حبذا

لو كان المؤتمر الثالث للصحفيين نقطة البداية فى هذا الطريق الطويل .

ولمقارنة ذلك بما يحدث فى مصر ، كان أن حقق معى لدى المدعى العام الاشتراكى كجزء من استكمال التحقيقات مع من شملهم قرارات الاعتقال فى سبتمبر ١٩٨١ ثم كان أن رغبت أن أسجل هذا التحقيق - أو جزءا منه - كملحق لكتاب (*) سجلت فيه ما جرى معى فى هذه الحقبة التاريخية والتى لها أهمية عامة فضلا عن الأهمية الشخصية ، وحاولت من خلال اتصالات كثيرة وعلى مستويات رفيعة أن أحصل على صورة من هذا التحقيق الذى تم معى ، والذى لم أرغب أن أكتبه من الذاكرة ، ولكننى لم أنجح ،لأن مفاهيم الشفافية وتداول المعلومات - ومن المفروض أننى طرف فيها - لم تستقر بعد أو تصبح من المقبولات الثقافية.!

□□□

لقد عشنا لسنوات طويلة مناخ الحروب منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٧٣ ثم مع صدور قرارات التأميمات المفاجئة والمتتالية خلال حقبة الثورة ، مناخ «السرية» فى كل موقع ، وتوهمنا أن من ينقل أخبار مرت عليه بحكم عمله يكون بمثابة «الجاسوس» أو

---

* سجلت من الذاكرة ما شاهدته خلال حقبة الاعتقال من سبتمبر إلى نوفمبر ١٩٨١ فى كتاب بعنوان «ذكريات سبتمبرية»

«الخائن للأمانة» ولكن عندما علقت في السماء أقمار صناعية تدور حول الأرض «تتجسس» وتعرف « دبة النملة» وعندما علق فوق معظم العمارات طبق يلف ، فينقل إذاعات الأرض بالصورة من كل موقع ، عندئذ تكون قد دخلنا عصرا جديدا يحمل قيما ومفاهيم جديدة ولذلك لم يكن أمام الاذاعات المحلية – فى مصر وفي غير مصر – إلا أن تذيع الأخبار التى كانت لها صبغة السرية حتى سنوات قليلة مضت ، لأن الأخبار ستنقل على أى حال من خلال إذاعات أخرى وتصل للداخل ولأن الانسان عدو ما يجهل لذلك فإنه عندما يتم التعتيم الاعلامى على الأخبار يتناقلها الناس من خلال الاشاعات وغالبا ما يكون مبالغا فيها ، فلذا فإن الوزراء يفرضون سرية شديدة على ما لديهم من تقارير ومعلومات حتى فى المشاريع الهندسية وتقسيمات الأراضى وتوزيع أو تخصيص الشقق والفيلات وما أشبه وهى ممارسات تتم كل عام دون إحتجاج من احد بل الكل يدخل فى ذات ،لنهج ويلتف حول الشفافية بالوصول إلى شخص يتشفع لدى السلطات الظالمة والمجحفة الواسطة وهو أول الطريق إلى الفساد .

وقد نجح البعض فى إخفاء أخطائه أو خطاياه لسنوات ولكن فى نهاية المطاف تعرف الحقائق ويكون الرأى العام صورة حقيقية عن كل شخصية عامة على الرغم من مقالات التصفيق أو عبارات المجاملة أو النفاق التى لم تعد تنطلى على أحد .

إن اعتقادى الشخصى أن الوقت ناضج ومناسب وكبداية متواضعة في طريق الشفافية ونشر المعلومات المتاحة والجاهزة لكى يصدر د. فتحى سرور قرارا بان تحول كل التقارير الصادرة من الجهاز المركزى للمحاسبات . من المكتبة المحظور نشرها فى ديوانه ومكتبه الخاص بالمجلس لكى تودع فى المكتبة «العامة» لمجلس الشعب ، وهى من أحسن المكتبات التى بها مراجع تحكى تاريخ مصر لما يجرى فى اللجان أو تحت قبة البرلمان .

إن الجهاز المركزى للمحاسبات من أحسن وأفضل أجهزة الدولة التى لها مصداقية لدى الشعب المصرى وتعتبر تقاريره ومراجعة محاسبيه من أفضل أدوات «التصحيح الذاتى للنظام» ويدل على ذلك ما يجرى من مناقشات فى الجمعيات العمومية لشركات القطاع العام ، غير أن التقارير التى تخص نشاط الوزارات مازالت سرية وترسل نسخ منها إلى مكتب رئيس مجلس الشعب ، وهو وحده صاحب الاختصاص فى التحويل إلى رؤساء اللجان أو مناقشتها ، وأعتقد أن رفوف المكتبة لهذه التقارير والتى تتراكم عاما بعد عاما ، قد صارت تئن ليس فقط من ثقل أوراق التقارير ، ولكن لما بها من مآسى وتجاوزات قد دخلت عالم النسيان .

ولما كانت مصداقية المجلس قد أصابها كثير من الرزاز لامرار

القانون ٩٥/٩٣ فى ظروف يشوبها الغموض (*) ، فإن من حسن السياسة أن نعيد للمجلس مصداقيته وكيف انه لايتستر على فساد أو أخطاء الوزراء لأن اختصاصه الأصلى هو أن يراقبهم أو انه قد صار أداه فى يد السلطة التنفيذية ، ولذلك فإن الإفراج عن سرية تقارير الجهاز المركزى للمحاسبات ووضعها فى مكتبة المجلس العامة ستكون لفتة كريمة تقابل بالترحاب داخل وخارج مصر لتكون عربونا لسياسة الشفافية الجديدة وستصبح مادة هذه التقارير المتراكمة لسنوات شيقة لمئات الصحفيين الدارسين الجادين في تحقيقاتهم وكتاباتهم ، وعندئذ ستظهر عشرات القصص والحكايات والتى ستدخل الأوكسجين إلى جو الحياة السياسية فى مصر التى تشكو من الاختناق. وفى تقديرى فإن الدكتور عاطف صدقى سيرحب بهذه الخطوة خصوصا وأنه قد أكتسب سمعته فى الدقة والأنصاف والجدية من خلال عمله الدوب

---

* كان مجلس الشعب وفى ليلة كالحة قد خطط فى سريه تامه لكى يمرر تعديلات تحد من حرية الصحافة فى قانون أخذ رقم ٩٣ لعام ١٩٩٥ وكان المخطط أن يناقش فى جلسة مسائية أمتدت إلى ما بعد منتصف الليل وفى ذات الجلسة أعلن عن فض الدورة البرلمانية ، ولكن الصحفيين أدركوا الملعوب وعقدوا جلسة تاريخية فى ١٠ يونيوة ١٩٩٥ ، واضطرت الحكومة ومجلس الشعب للتقهقر وكان القانون وكأنه جرية كل يحاول التنصل من المشاركة فى اصداره وفقد مجلس الشعب مصداقيته ويحتاج لجهد مضاعف حتى يسترد قدر من مصداقيته .

فى الفحص والدراسة قبل التصديق على تقارير الجهاز المركزى للمحسبات ، وكان ذلك هو ذخيرته فى معرفة المعلومات والبيانات عن الأفراد من واقع كشف بأشعة إكس على ما فى «كرش» الدولة من الداخل .

إن حقبة ما بعد عام ٢٠٠٠ لها معايير جديدة تتبعها الحضارة الغربية التى ننتقدها ، إن الكثير من هذه المعايير جيدة وعلينا أن نتدارسها ونتبعها ، لأنه ليس من سبيل لبناء الثقة بين الدولة والشعب إلا من خلال نهج جديد * تتوافر فيه المعلومات - بقدر الامكان - لكل إنسان وصولا إلى الشفافية ، عندئذ سنكون على عتبة مجتمع أرقى واستكمالا لقضية بناء الثقة ودعم الديمقراطية الشعبية من خلال الجمعيات الأهلية - المسماة عادة - الجمعيات غير الحكومية أو القطاع الثالث .

---

* يمكن الرجوع إلى الجزء الثانى من هذا الكتاب لتفاصيل «القيم والمفاهيم لمرحلة ما بعد عام ٢٠٠٠» .



من «ضمور الدولة»
إلى «المشاركة الشعبية»

من أدبيات الفكر الماركسى كتاب مشهور ألفه لينين بعنوان «ذبول أو ضمور الدولة» تنبأ فيه بأنه مع انتصار الثورة الإشتراكية سيضطر الحكم الجديد أول الأمر لأن يمارس اسلوب «القبضة الحديدية» لخصها فى عبارة «ديكتاتورية البروليتاريا» ، ولكن مع استقرار الحكم ستعطى «كل» السلطة لمندوبى الشعب أى «السوفييت» وقد تنبأ بأنه مع استقرار الأوضاع واختفاء الطبقات ستضمر قبضة الدولة رويدا رويدا حتى «تذبل» ويكون عندئذ الحكم بالشعب للشعب مباشرة ويتحقق حلم البشرية فى اختفاء الحكومة والتى تحكم باسم طبقة ويكون الحكم مباشرة للناس

وفور تفكك الإتحاد السوفييتى انطلقت قوى فكرية من كل توجه واتجاه وظهرت رؤى متباينة بل لعلها متناقضة ، ففي أمريكا كان الحديث عن «نهاية التاريخ» ، وكأن البشرية تتحرك دون بوصلة أو أيدولوجية تحدد إتجاه الحركة ، وفى مواقع أخرى إلتف البشر حول الجذور والسلفية الدينية أو المذهبية أو العرقية فى نظرية صموئيل هانتجتون عن صراع الحضارات وقد حللناها ونقدناه وقدمنا البديل الانسانى عنها من قبل برز تيار قوى آخر يدعو إلى «المجتمع المدنى» والذى يدور حول فكرة محورية هى «المشاركة الشعبية» وكيف ان الحكومة غير قادرة على الوفاء بكل متطلبات البشر ، ومن ثم تأكدت الحاجة إلى حق المواطنين فى تكوين جمعيات أو هيئات أو تنظيمات أهلية بناء على مبادرة من أفراد عاديين ووفق طموحاتهم ورؤيتهم المتجددة والمتغيرة

وفى هذا الأمر نلاحظ أن الناس تتحرك لتحقيق أهدافا فى كل أنواع النشاط الانسانى من فعل الخير ورعاية الضعفاء فى المجتمع إلى منظمات حقوق الإنسان ومناصرة المرأة ورعاية الطفولة وصولا إلى التشكيلات غير الحكومية ومن بينها تلك التى تحافظ على البيئة أو تدعو لفكرة ثقافية أو إنسانية يمكن أن يتجمع حولها أفراد لتحقيقها وقد يمتد الطموح لتشكيل أحزاب سياسية تسعى للوصول إلى الحكم بطرق شرعية أى من خلال الناس أنفسهم

وربما كانت البداية عند فى القاهرة حين دعى الأمير طلال بن عبد العزيز آل سعود لعقد «مؤتمر التنظيمات الأهلية العربية» من ٣١ أكتوبر إلى ٣ نوفمبر ١٩٨٩ تحت شعار «مشاركة عطاء وإنماء» وبالفعل اجتمع المختصون مع مئات من مندوبى الهيئات غير الحكومية من جميع أرجاء العالم العربى ليناقشوا السبل التى تجمع صفوفهم وتدعم كل اشكال العمل الأهلى أو الخيرى أو التطوعى ، وقد أصدر هذا المؤتمر مجلدا ضخما وفريدا يحتوى على «بحوث ودراسات» تقدم أوضاع التنظيمات الأهلية فى بلدان العالم العربى ، ولعل هذا المجلد هو فى حد ذاته إنجاز فريد لأنه يسجل بين دفتيه بيانات مهمة ربما تكون قد تجمعت لتنشر لأول مرة عن هذا النوع من نشاط الهيئات غير الحكومية ، حيث اتضح أن هناك تفاوتا شديدا فى مستويات الأداء فى الدول العربية

المختلفة وفق ظروفها المتباينة ، وربما كانت مصر أقدم البلدان العربية التى عرفت النشاط الأهلى فى العصر الحديث وفق بيانات جاءت فى بحث قدمه أحد الخبراء المصريين ، فعرفنا من خلال هذه الدراسة معلومات تاريخية جديرة بالتسجيل ، فقد تكونت بالاسكندرية الجمعية الخيرية اليونانية عام ١٨٢١ ثم الجمعية الجغرافية عام ١٨٧٥ ثم جمعية التوفيق القبطية عام ١٨٩١ لرعاية الفقراء ونشر التعليم ثم الجمعية الخيرية الإسلامية عام ١٨٩٢ لذات الأهداف الخيرية والتعليمية ، وكان هذا النشاط الأهلى هو التمهيد الثقافى للحركة الوطنية عام ١٩١٩ .

ومن منطلق موقعى كرئيس لجمعية التوفيق القبطية كنت تواقا لأن ينظم احتفال قومى مشترك لمناسبة مرور نحو مائة عام على تأسيس أقدم مؤسستين أهليتين خيريتين مصريتين هما الجمعية الخيرية الإسلامية، جمعية التوفيق القبطية وكنت متطلعا لأن ينال هذا الأمر رعاية القيادة السياسية لأنه يندر وجود دولة أخرى فى العالم الثالث (وربما فى كثير من دول أوروبا وأمريكا) لديها مؤسسات أهلية خيرية تطوعية بهذا العمق التاريخى .

وفى ذات الوقت الذى عقد فيه مؤتمر القاهرة هذا العام ١٩٨٩ كانت هناك اهتمامات مماثلة فى مواقع أخرى من العالم . قد أثمرت هذه الاتصالات والجهود عن تشكيل لجنة دولية عام ١٩٩١ وأعلن المؤسسون عن رغبتهم فى إنشاء ما أسموه «الرابطة العالمية

للمشاركة الشعبية» "WORLD ALLIANCE 'FOR CITIZEN PA-
TICIPATION" ولكى يلتف الناس حول كلمة واحدة بدلا من هذا
العنوان الرسمى المطول ، إتفقوا على أن يطلقوا على هذه
المؤسسة الأهلية العالمية الكلمة اللاتينية «سيفكس»"CIVICUS"
والتى لا تعنى فى واقع الأمر أكثر مما أصبحنا نسميه «المجتمع
المدنى»، أى تلك التنظيمات المبنية علي المبادرات الشخصية
الفردية والتى تلتف حول قبول مبادىء «التعددية» والتطوع لكل
أوجه الخير والبر وقضايا البشر من خلال مشاركة المواطنين
العاديين فى مؤسسات أو تنظيمات غير حكومية "NON- GOV-
ERNMENTAL ORGANIZATIONS" والمعروف الآن عالميا
بالحروف "NGO'S"، وقد تصادف ان لاقت هذه الدعوة قبولا فى
أوروبا وأمريكا حيث كانت قد تكونت تنظيمات مماثلة تنسق أعمال
المنظمات التطوعية "CEDAG"ومركز المنظمة الأوروبية EGC
وبرنامج أوروبا الجديدة NEPوغيرها فضلا عن المنظمة الضخمة
المسماة «القطاع المستقل» "INDEPENDANT SECTOR" فى
الولايات المتحدة الأمريكية وكانت ذروة هذا النشاط الدولى عندما
عقد الاجتماع الأول التأسيسى لهذه الرابطة الدولية لمشاركة
المواطن "CIVICUS" فى مدينة برشلونة بأسبانيا فى الفترة من
٢٩ إلى ٣١ مايو ١٩٩٣ ، حيث تم اعلان تأسيس هذه الجماعة

وتشكيل أول مجس للمديرين "BOARD OF DIRECTORS"، والذى يتكون حاليا من عشرين عضوا يمثلون ست مناطق تغطى كل بلدان العالم هي: أمريكا الشمالية - أمريكا اللاتينية ودول الكاريبى - أوروبا (شرقا وغربا) - الشرق الأوسط - آسيا - أفريقيا .

وقد مهد كل ذلك لعقد اول اجتماع لهذا التنظيم الدولى الوليد فى المكسيك فى يناير ١٩٩٥ حيث انعقدت أول جمعية عمومية لأعضاء من مختلف دول العالم ممثلين ومؤيدين لجمعيات أهلية في بلادهم وكان من نصيبى وسعادتى ان اكون عضو مجلس المديرين عن المنطقة العربية وساهمت بمشاركة فعالة وبحماس في تكوين هذه الهيئة العالمية والتى اتوقع ان تلعب دورا فى تنشيط القطاع الاهلى في البلدان العربية .

□□□

إن «سيفكس» وليد جديد لفكرة قديمة كثيرا ما حلم بها الإنسان وهى أن ينشط الفرد بارادته الحرة مع أقرانه لتحقيق هدف معين دون الحاجة لتدخل الدولة وكان ذلك قبل الميلاد ممثلا فى حلم «أفلاطون» لمدينة فاضلة تحكم نفسها بنفسها ، وفى القرن الماضى بشرت الماركسية بذبول واضمحلال قبضة الدولة وهو حلم لم يتم لاسباب كثيرة ألمحنا لها فى هذا الكتاب في مواقع مختلفة وربما تحقق الآمال من خلال هذه الرابطة الدولية التى تدعو

للمشاركة الشعبية وقبول مبدأ التعددية وإحياء تراث المجتمع المدنى

أما نحن المصريين فليس من سبيل أمامنا إلا أن ندعو لتطوير وربما تحطيم هذا «الصنم» المسمى بالقانون رقم ٣٢ لعام ١٩٦٤ . والذى وقف ويقف حتى الآن حجر عثرة فى سبيل حرية البشر فى مصر لممارسة حقهم الدستورى والإنسانى فى تكوين جمعياتهم الأهلية والتطوعية والخيرية ، لأن ذلك هو سبيل دعم المجتمع المدنى ونشر مبادىء الديمقراطية فى ممارسة يومية فعالة ومؤثرة مثل تنشيط حركة المرأة ومن أجل المحافظة على البيئة ودعم جمعيات حقوق الإنسان وربما يكون ذلك هو الدواء الناجع – ولو جزئياً – فى حل مشكلة البطالة عن طريق توظيف بعض الشباب المتعلم والعاطل في أنشطة الجمعيات الاهلية ، فيشعر بتحقيق الذات ويحصل على أجر مهما كان متواضعا

ولو كانت وزارة الشئون قد استمعت إلى أصواتنا منذ عشر سنوات فقط لكانت أحوالنا الآن مختلفة ولما استفحل خطر التطرف ، وقد شعرت أثناء هذا الاجتماع مع هذه المجموعة الفريدة من البشر والذين نذروا أنفسهم لتنشيط مناخ المشاركة الشعبية فى كل أنحاء العالم بصدق المقولة التي تم صياغتها وهى أن أحد المعايير لقياس درجة رقى وتقدم الدول والشعوب ، بمدى

ما يتوافر لديها من قنوات شرعية لمشاركة المواطنين العاديين فى نشاط أهلى تطوعى يؤدى إلى تفاعل حى.

□□□

وإذا كنا قد بدأنا هذا الجزء بدراسة مايجرى في العالم ثم انتقلنا الى المنطقة العربية وأهمية ان تتحول الجامعة العربية لتكون نواة لكتلة اقتصادية رابعة تقييم التوازن بين الكتل الثلاثة التى تكونت بالفعل ، ثم لاحظنا ان مصر في موقع القلب من كتل ومجمعات دول ولذلك فان نجاح وتنمية مصر فى الحقبة القادمة هو مفتاح قضايا كثيرة لذلك كانت الدراسة على خصوصية مصر لكل تفريعاتها ، بما فيها الجذور الفرعونية والقبطية ، لذلك كان مهماً ان نتناول قضية بناء الثقة بين الدولة والشعب وكيف ان هذا الامر في حاجة الي واجبات وسياسة تقوم بها الدولة عمادها توفير المعلومات والثقافة ثم بفتح قنوات انشاء الجمعيات الاهلية لانها هي التجسيد الحى للمشاركة الشعبية .

ومجمل القول ، فى نهاية هذا الجزء هو ان الهدف من كل ذلك هو الانسان ، وفي مصر الشكوي واللوم كله موجه الى المواطن البسيط الذى يتزوج ولا يجد سبيلا – للامان – وفق مفاهيم ثقافية – الا بمزيد من الانجاب فكان الحديث عن الانفجار السكانى وكيف انه معين للتنمية ، لذلك رغبت في ان اختم الجزء الاول من الكتاب بدراسة عن البشر هم اللغم وربما

سبب الفقر إذا تركوا كما هم بهذا التخلف . ولكنهم يتحولون الى منجم اذا احسن تدريبهم فيتحولون الي مصدر دخل وخير ورفاهية وتقدم وهو الامر الذي نناقشه في الموضوع الاخير من الجزء الاول .



البشر هم اللغم والفقر وهم أيضا المنجم والرخاء

إبان حرب الخليج طفت على السطح كلمات وعبارات عسكرية كنا قد نسيناها من سنوات، ومن بينها أن ساحات القتال كانت تتحول إلى حقول للألغام فتفجر في كل مقتحم معتد.

وكلمة «لغم» بالانجليزية أو الفرنسية تكتب "MINE" وهي تعني بذات الحروف كلمة «منجم»، ولا يمكن التفرقة بين هذا المعنى أو ذاك إلا من سياق الموضوع ذاته، ومن هنا قفز إلى فكرى كيف أننا نتحدث عن الزيادة في عدد السكان بعبارة الانفجار وكأنه «لغم» حتى أن البعض يراها سبب وأس المشاكل لأنها معيقة للتنمية، بينما يراها آخرون وكأنها العزوة ومصدر الخير والرخاء والأبهة ومن ثم فهي «منجم»، ومن هذا المنطلق فإن الأمم المتحدة ترفع شعار «التنمية البشرية» أي رفع مستوى معيشة الناس بالتعليم والرعاية الصحية وزيادة الدخل أي بتعدد الفرص أمام البشر وعندئذ يتحول اللغم إلى منجم.

وعندما قررت الأمم المتحدة – من سنوات – أن يكون انعقاد المؤتمر الدولى للسكان والتنمية في القاهرة، (*) فرحنا ورحبنا، بإعتبار أن هذا الحدث هو «منجم» لأنه سيعود على مصر بالخير، وفي مقدمتها البرهان والدليل على أن موجة الارهاب قد انحسرت وبذا نكسر «النحس» الذى جعل السياحة تضمر حتى كادت تختنق واختنق من خلال ذلك آلاف وربما ملايين من البشر .

(*) انعقد المؤتمر بالفعل في ٤ سبتمبر ١٩٩٤.

وفيما نحن مبتهجون متفائلون بهذا «المنجم» الذى حشدت له الدولة كل الامكانات لنبهر هذا التجمع الفريد من القيادات من كل أركان الأرض، إذ بالبعض يحاول تحويله إلى «لغم» بطرح قضايا فقهية تتعلق بالشرائع والقيم الدينية، وهى مسائل دقيقة تخرج الحوار عن موضوعيته وتحوله إلى «دوجما» أى «تجهض» الحوار قبل أن يبدأ بدعوى أنه ضد «الإجهاض» وفى هذا الإطار بدى الأمر وكأن فى العالم «شرخاً فكرياً» بين بشر يُعمِلون العقل ويناقشون مستقبل البشر فى موضوعية وحياد وعلم، وبين جهة أخرى يتزعمها الفاتيكان وتحالف معها رجال الدين فى كل مكان، وكأن زيادة عدد السكان ضرورة لتقف فى وجه الإلحاد أو التسيب الأخلاقى أو إنحلال القيم بل وصل الأمر وكأنه صراع بين الحضارات أو بين الأديان وهى أمور ألقينا عليها الضوء فى مواضع كثيرة من هذا الكتاب.

ولكننى – على أى حال – كنت سعيدا بهذا الحوار المفتوح والجاد لأننا من خلاله قد أدركنا بالفعل أن «التنوع ظاهرة كونية» وإن الخلاف فى الرأى والرؤى مسألة طبيعية، ولسوف تستمر دوما، لأن هذا الاختلاف هو المحرك والدافع لشحذ الذهن ودعوة للابتكار، ومن ثم لايستوجب فتح النيران أو يقودنا إلى القتال أو الخصام أو القطيعة – وأن تطابق الآراء والفكر يجعلنا قوالب جامدة ونتحول إلى قطيع فنتخلف ونعود إلى الوراء.

فقد اجتمعت وفود المؤتمر ، وأصبحت القاهرة مركزا للأخبار وأصدرت قرارات وتوصيات وهى فى التحليل النهائى تعبر عن وجهات

النظر المختلفة وسجل أمين للصراع الفكرى حول عدد من القضايا فى هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ العلم حيث أرست قواعد وأسس القيم والمفاهيم للقرن القادم فنتعرف على «الأرضية المشتركة» المتفق عليها وهذه ستتسع مع الزمن فيتكون الأسمنت الرابط للبشر.

ولابد لى أن أكون صريحا فى أننى – فى لحظة – تمنيت لو أن مؤتمر القاهرة الدولى كان حول قضية ليس لها هذه الحساسية كأن لا تكون حول قضايا غير مرتبطة بالوجدان والقيم الدينية مثلما فى مؤتمرات سابقة حول البيئة أو الاسكان أو غيرها.

□□□

دعنا إذن نتجاوز الشكل وندخل فى الموضوع ولتكن البداية بأن نُغلب الجوانب الايجابية على السلبية ونرى نصف الكوب الملآن ونغفل نصف الكوب الفاضى، ونرى كيف أن هذا المؤتمر – ومن خلال الاعداد له – قد أثار حوارا غير مسبوق لطرح وتحليل مشكلة السكان وعلاقتها بالتنمية من جميع نواحيها، فقد ركزت الحكومة على مبدأ أن أحد أسباب تخلفنا هو زيادة السكان وكيف أنه أمر معيق للتطور والتقدم والتنمية – وقد يكون هذا الفهم صحيحا فى المدى القصير ولكننا من خلال الدراسات والبحوث المقدمة اتضح أن هذا الفهم ليس كل الحقيقة، فقد عرفنا – من خلال الاعداد للمؤتمر أيضا – أن خطط ومفاهيم دول وشعوب أخرى ليست متطابقة فى هذا الأمر، فما يصلح لفرنسا ومعظم دول أوروبا – حيث التشجيع والحوافز على زيادة السكان يختلف عن

الهند ومعظم دول آسيا وأفريقيا حيث مشاكلهم قريبة من مشاكلنا، ولكن اليابان قد تجاوزت الوقوف عند مشكلة زيادة عدد السكان وحولت اللغم إلى منجم بأن ركزت على نوعية البشر من خلال خطة للتنمية البشرية فكان أن كسرت حاجز التفوق الأوروبى والحضارة الغربية، وأصبحت اليابان نموذجا فريدا فى التقدم العلمى والرفاهية الاقتصادية والثقافية معا.

ومن جهة أخرى طبقت الصين نهجا مغايرا يتفق مع ظروفها وفرضت سياسة صارمة فى الحد من الانجاب وبحيث لايسمح إجتماعيا - وأحيانا بضبط قانونى - بإنجاب أكثر من طفل واحد فى الأسرة الواحدة، ورغم الحد من الانجاب فإن التعداد الكلى يزداد لأسباب كثيرة فى مقدمتها تقديم الخدمات الصحية وطول العمر، ولكن المفاجأة الكبرى التى أزهلتنا جميعا هى معدلات النمو الاقتصادى الذى حققه الصين وبالذات مع التحدى الهائل بأنها لا يعمل - ولو نظريا - بآليات السوق ولا يخضع لمفاهيم تداول السلطة، فصمتت الأفواه التى حجبت الاعتراف بالصين الشيوعية عشرات السنوات وتلك التى طالبت بمقاطعة الصين بسبب تجاوزها لمواثيق حقوق الإنسان، وركزت الصين على صناعات بعينها غزت بها العالم كله حتى يقال بأن الصين تنتج معظم الملبوسات للقارة الأمريكية وأصبح الشرق الأقصى بفلسفته وحضارته وإنتاجه شيئا مذهلا.

وأصبحنا نحن فى العالم العربى أمام تحدٍ حضارى من أوروبا غربا ومن اليابان والصين شرقا.

ولم يطالب أحد أن نأخذ نموذج الصين أو الهند، فلنا قيمنا الدينية وعاداتنا الاجتماعية التى لا تمكِّن الحكومة من فرض قيود على الانجاب مثلما تفرضه حكومة الصين مثلا.

وقد يتوهم البعض أن الحل هو فى الهجرة إن كان ذلك متاحا أو ممكنا ولكن الهجرة فى ظروف العالم الحديث غير ممكنة إلا لأفراد مدربين بمهارات عالية لكل من القدرات العقلية واليدوية بما تسمح لهم بفرص العمل وأن يكونوا مطلوبين إما فى الدول الفقيرة إن كانت لهم مهارات يدوية أو فى الدول الصناعية إن كان لهم مهارات علمية فائقة.

□□□

ولن يفرض هذا المؤتمر علينا – أو على غيرنا – أى قرارات ولكنها دعوة لحضور مائدة مفتوحة تقدم كل ألوان الطعام من لحوم وأسماك وخضراوات وفاكهة مطهية بطرق مختلفة بعضها مسلوق بسرعة أو مسبك على نار هادئة وهى منتجات وحصيلة خبرة دول وحضارات وقيم ورؤى كل شعوب العالم فى قضية الاسكان والتنمية، وعلى كل مدعو إلى «وليمة» المؤتمر أن يختار الوجبة التى تتناسب مع ذوقه وطبيعته، وله لو أراد أن يتمسك بالطبق المحلى فقط مثلما يحدث بالفعل مع بعض المصريين الزائرين إلى أوروبا إذ يفضلون الفول المدمس والطعمية وتعف شهيتهم عن الكفيار والسيمون فيمى والاستاكوزا وعش الغراب والأكل الروستو لأنها تلبك المعدة.

دعنا إذن نركز على واقع المشكلة عندنا فى مصر، حيث الموارد

الطبيعية محدودة، وزاد عدد السكان زيادة خرافية خلال القرن العشرين وحده.

من قراءاتى فى «التاريخ» – وهى هوايتى المفضلة الآن – استوقف نظرى عبارة جاءت فى مقدمة مؤلف جيمس هنرى بريستد عالم المصريات الشهير فى مطلع هذا القرن عام ١٩٠٥ إذ قال . «أما مزروعات هذا القطر فكافية لتغذية سكانه العديدين والذين بلغوا أيام الرومان سبعة ملايين نسمة..» مما يكشف عن أن تعداد مصر – عبر تاريخها الطويل – لم يزد على ١٠ ملايين نسمة وهو تعداد عام ١٩٠٠ ويتناسب مع موارد مصر الطبيعية من مياه وزراعة وغيرهما.

ويحضرنى فى هذا الأمر مقارنة وتشبيه حالتنا بحافلة أى أوتوبيس حمولة ٥٠ مقعدا مثلا وظل لسنوات مريحا ينقل الناس فى يسر وسهولة وراحة لأن عددهم يقل عن ذلك، ولكن بدأ تدفق البشر فى ذات الحافلة، وظل فى زيادة مضطردة فانحشر الناس، وعندما صاروا نحو مائة لم يعد المكان كافيا بل صار خانقا، وتذكرت أوتوبيسات القاهرة بالفعل وقد خرج الركاب من الشبابيك ووقفوا على السطح ولم يعد على سلم الأوتوبيس موضعا لطرف قدم وباقى الجسد معلق فى الهواء كالبهلوان وهو منظر تعودناه وألفناه فى شوارع القاهرة لمدة طويلة ولازلنا نشكو منه فى ساعات الذروة تعبيرا عن أن سكان مصر قد زادوا كثيرا عن مواردها وقدرتها الطبيعية وأصبحت الحياة فى وادي النيل غير ممكنة.

وفى سابق الزمان كان الحكام يحلون مشاكل شعوبهم من خلال الغزوات والفتوحات بالعدوان على شعوب أخرى مجاورة، وتوسعت دول صغيرة حتى صارت امبراطوريات، ولكن هذا الأمر ووفق قيم المجتمع الدولى - وبعد حرب الخليج - لم يعد ممكنا.

ومن هنا نادت الدولة بالحد من الانجاب، وفى تقديرى، تجاوب الناس مع نداءات الحكومة على قدر ما تسمح به معطيات وقيم ومفاهيم المجتمع ولكن للأسف استجابت الأسر ذات المستوى الثقافى والاقتصادى الأعلى، لأنها أدركت أن العبرة بالنوع والكيف وليس بالعدد والكمية حتى يقال أن «العدد فى الليمون» بينما استمرت الأسر ذات القدرة الاقتصادية الأقل والضحالة الفكرية فى الانجاب وزيادة النسل لأن جهل المرأة، وقناعتها بأن «تقصقص» ريش الرجل بإغراقه فى «كوم» من الأطفال هو سبيلها الأكيد للإحتفاظ به، ولأنه لاتوجد متع أخرى فى حياتهما، فالأسرة المثقفة لديها ما تستمتع به من احتفالات بالترقية والحصول على الشهادات أو الأوسمة لأن حياتها مملوءة بانجازات لتحقيق الذات أما الأسر الأفقر فإن الانجاز الوحيد المثير فى الحياة فى مزيد من الانجاب.

وهكذا فإن المشكلة معقدة وكبيرة، ووجه التعقيد فيها هو أنها ثمرة لعلاقة دقيقة وخاصة جدا بين الرجل والمرأة وتحتاج فى المقام الأول إلى قناعة شخصية وهذه محصلة عوامل متعددة بعضها دينى وقيمى وأغلبها رؤية وفهم فضلا أن بها مصالح وآمالاً .

□□□

ولأولئك المتشنجين الذين لايرون إلا الجوانب السلبية فى الحياة، أقول إن انعقاد المؤتمر فى القاهرة قد أدى إلي فوائد متعددة، أذكر منها الطريقة التى اتبعتها الحكومة فى إنشاء المجلس الأعلى للسكان وتحويله قبل المؤتمر إلى وزارة ليكون واجهة «شياكة» تتفق علي ما تردده الحكومة من اهتمامها بقضية تحجيم الانفجار السكانى - وهو الجزء السلبي فى القضية - ولكن هناك جزءاً آخر إيجابياً وهو التنمية البشرية لأنه المفتاح - الذى سيجعل غدنا اكثر إشراقا.

وكم سعدت فى أن اضطرت الدولة - رغم أنف المعوقين فى وزارة الشئون الاجتماعية - لقبول تشكيل «اللجنة القومية التنفيذية للهيئات غير الحكومية»، وذلك استيفاءً للشكل لأن المؤتمر الدولى - حسبما أصبح ممارسة أساسية لقواعد عقد المؤتمرات الدولية للأمم المتحدة - يشترط عقد منتدى للجمعيات الأهلية غير الحكومية ليكون اجتماعا أو مؤتمرا موازيا للاجتماع الرسمى لممثلي الدول والحكومات، ولولا هذا المؤتمر ما تم تشكيل هذا التنظيم الشعبى المهم والذى عهدت الدولة بتكوينه إلى مجموعة من القيادات التى لها مصداقية وتتمتع برصيد شعبى داخل مصر وخارجها، وكم كنت أتمنى أن كانت هدية الحكومة لهذا المؤتمر بتعديل هذا القانون المتحجر والذى يقف سدا منيعا ضد تكوين الجمعيات الأهلية . وأتصور أن الحكومة وفى المناخ العام الذى ولده المؤتمر الدولى ستدرك أن تنشيط الجمعيات الأهلية بتعديل القانون

٣٢ لعام ١٩٦٤ سيكون الدم الجديد الذي يسرى فى عروق مصر لمزيد من الديمقراطية والمشاركة الشعبية.

وسنكون سائرين على الطريق الصحيح لحقبة ما بعد عام ٢٠٠٠ إذا ابتكرنا ما يحول اللغم إلى منجم ولاتوجد صياغة جاهزة فلكل شعب حضارته وقيمه بعضها يدفع إلى هذا التحول وبعضها معوق، وسنظل نفحص سر تقدم اليابان وندرس خبرة النمور الآسيوية ولكن مصر تركيبة حضارية مركبة، وعلى مفكريها أن يتمحصوا سرها وفك طلاسمها لكى ننطلق من خلال تنمية قدرات الإنسان المصرى والذى يحمل بذور حضارات ولكنها تحتاج إلى صقل من خلال التعليم والتدريب وشحذ العقول .

ولكى نصل إلى طموحات حقبة ما بعد عام ٢٠٠٠ علينا أن نطرح فى الجزء الثانى من هذا الكتاب جملة مفاهيم وقيم نراها أساسية لتواكب الألفية الميلادية الثالثة ، غير أن تعديل وتطوير المفاهيم والقيم عملية طويلة معقدة تحتاج إلى قناعة عامة لا تتوافر وتتدعم إلا مع الوقت.

الجزء الثانى

حاجتنا لقيم ومفاهيم جديدة تناسب العصر

ما بعد عام ٢٠٠٠

مقـــدمــة

قد يكون من الصعب ـ وربما من المستحيل ـ التنبؤ بدقة عما يمكن أن تكون عليه الأحوال ـ فيما بعد عام ٢٠٠٠ ـ على مستوى العالم أو المنطقة العربية أو مصر ، وهو الأمر الذى حاولت أن أطرحه بطريقة عامة فقد صار للتنبؤ بالمستقبل قواعد وأصولاً تدرس فى معاهد ، وإنما رغبت من خلال دراسات ومقالات متفرقة كنت قد كتبت بعضها عبر سنوات حقبة التسعينات ، لعلها ـ فى مجملها ـ تقدم للقارىء «وجبة» وكأنها «بوفيه مفتوح» تلقى الضوء على مابعد عام ٢٠٠٠ .

وتفتح شهية العقل لما يمكن أن يحدث فى غضون ٢٠ أو ٣٠ سنة قادمة مما يجعل بوصلتنا مستقبلية .

وفى هذا الجزء الثانى ، سأحاول أن أطرح ما أتصوره قيما وليست ماضوية ومفاهيم سائدة بالفعل الآن ، ولكنها فى حاجة إلى صقل وتعميق ، لعلها ـ إذا تطورت ـ وترسخت تجعلنا أكثر قدرة على الولوج إلى مرحلة ما بعد عام ٢٠٠٠ ، بحيث تؤهل مصر لموقع أكثر تقدما فى ريادة المنطقة ومن ثم تشارك بشكل أكثر فاعلية فى صياغة توجهات العالم ، فقد أثبتت الأحداث فى الفترة الأخيرة ، أن الدول الكبرى لابد أن تأخذ فى الاعتبار

طموحات وتوجهات دول أصغر ، وكما أن التقدم والازدهار والتنمية والرقى ـ داخل أى وطن ـ هو نتيجة تفاعلات أفراده ، وجماعاته من خلال قدراتهم وانتاجهم ومفاهيمهم كذلك سيكون توجه العالم هو محصلة مايجرى فى الدول والأقطار والحضارات والأديان السائدة فى أربعة أركان الأرض . لدى كل دولة وكذلك لدى كل بشرية فى اطار الدولة ، جملة قيم ومفاهيم هى حصيلة تراث وتاريخ هذه المجموعة البشرية أى أن هذه القيم متأثرة بالتاريخ والأديان والعادات والخبرة البشرية السابقة ، وغيرها وفى مصر ـ على سبيل المثال ـ زخم هائل من القيم والمفاهيم ـ وهى ليست متجانسة كما قد يبدو لأول وهلة ـ فأهل الريف لديهم قيمهم التى تتفق مع الواقع الاجتماعى والاقتصادى الذى يعيشونه فضلا عن التراث الحضارى بما فى ذلك الدين ، لذلك يقولون إن الفلاح المصرى البسيط حذر أو «حويط» أى يتأمل ويستمع قبل أن يتكلم حتى شاعت عبارة «الخبث الفلاحى» وتتكون مفاهيم أخرى لدى فئة العمال فى المدينة أو الموظفين فى إدارات الحكومة أو فى العمد وملاك الأراضى الزراعية أو أساتذة الجامعات أو لواءات الجيش أو الشرطة وغيرها كثير ، كذلك لأهل قرى الصعيد فى جنوب مصر مفاهيم تختلف عن أهل قرى وجه بحرى ، بل وتتغير القيم مع التغيرات الاجتماعية والحضارية التى يمر بها المجتمع ، فمصر التى تبلورت شخصيتها ـ فى العصر الحديث ـ مع الحركة

العرابية ورفع شعار «مصر للمصريين» تختلف عن مصر التى سيطرت عليها مفاهيم القهر والمذلة طوال حكم المماليك والحقبة العثمانية لنحو خمسة قرون أدت الى التخلف والقهر والتآكل من الداخل ، وفقدان الثقة بين الحاكم والمحكوم بل ووجود شرخ بين الحالى وحضارة الفراعنة وهو أمر عالجناه من قبل .

ومن ثم فان القيم والمفاهيم التى تحكم أى مجتمع متأثرة بالزمان والمكان ، فعبر الزمان تتغير القيم من حقبة الى أخرى كما سبق القول ثم هى متغيرة فى المكان أى من الريف والحضر وحتى من حى الى حى فى ذات المدينة الواحدة أو مع تغير الفئة الاجتماعية ولذا فالقيم متغيرة ـ وهو مفهوم علمى ـ بخلاف المفهوم الأخلاقى للقيم والذى يجعلها مطلقة أى ثابتة وليست بسيطة .

وفى جزء المعطيات والتغيرات المتوقعة فى القرن القادم ـ والتى أشرنا الى بعضها فى الجزء الأول ـ ستحدث بالفعل تغيرات متوقعة فى المفاهيم والقيم فى المجتمع المصرى فى السنوات القليلة القادمة وبمعدل سريع ومتدفق وسيتنازعها تياران رئيسيان أولهما مستقبلى والآخر ماضوى أو سلفى .

وما الديمقراطية وحق الاتصال بالناس من خلال الكتابة فى الصحف إلا محاولة لتعديل مفاهيم الناس ، وما السيطرة من الدولة على وسائل الاعلام الجماهيرية الشعبية ـ فى الاذاعة

والتليفزيون ـ إلا محاولة لأن يكون تغيير المفاهيم والقيم للقواعد الشعبية العريضة التى لا تلم بالقراءة والكتابة فى حدود مقبولة لاتهز المجتمع أو تؤدى الى زعزعة استقرار الحكم .

❑❑❑

ومن بين المسائل التى استوقفتنى برنامج اذاعى استحدثته الاستاذة نادية صالح رئيس اذاعة الشرق الأوسط أخيرا حول فتح مناقشة مع جمهور المستمعين ـ تصلها من خلال الهاتف ـ حول بعض أمثالها الشعبية ورأى الناس فيها وعلى سبيل المثال ، أخذت رأيى فى المثل القائل : «أنا وأخويا على ابن عمى وأنا وابن عمى على الغريب»

ولست ـ راغبا فى تحليل هذا المثل ـ وقد اعترضت عليه على أى حال لأنه يؤكد مفهوما منحازا بشكل مسبق ومنه الانتماء للأسرة وحدها فتتولد مفاهيم غير منصفة وغير متجردة ولكن هدفى هو أننا بالفعل أمام عملية المفاهيم والقيم القديمة وهى أمور موروثة يعود بعضها لمئات وربما آلاف السنين ، وهذه العملية التى تتم الآن مطلوبة لتحريك مياه تجعل الناس تفكر فى الأمثال والقيم القديمة .

لقد مرت مصر بعصور حضارة وازدهار ، ولدت مفاهيم وقيما طيبة تمثلت فى بعض ما وصلنا من خلال البرديات والآثار الفرعونية لعل أشهرها ابتهالات اخناتون ومعاناة «الفلاح المصرى

الفصيح» وغيرهما كثير بعضها ولاشك اندثر والبعض الآخر مازال كامنا ، فى ضمير الناس حتى البسطاء منهم ، ثم جاءت رقائق الحضارات الأخرى ـ وهى كما ذكرتها فى كتابى «الأعمدة السبعة للشخصية المصرية» اذ تلى الحضارة الفرعونية الطويلة ممثلة فى الحقبة المسماة اليونانية ـ الرومانية ثم الحقبة القبطية المسيحية وتليها الحقبة الإسلامية برقائقها الجزئية المختلفة.

ولذا فإنه يندر أن تتوافر لدى شعب هذا الكم من القيم والمفاهيم الموروثة ، بعضها يحث على الطموح والرؤى المتحضرة مثل

«صوابعك مش زى بعضها» أو «ما خاب من استشار» و «إن كبر ابنك خاويه» و «لسانك حصانك إن صنته صانك» وغيرها بالمئات تقدم مفاهيم متحضرة وراقية ، كانت مناسبة فى السابق ولابأس أن تستثمر ، وهى تحمل ذات المفاهيم التى طرحناها خلال عرضنا للجزء الأول والتى سنعرض لها فى شيء من التفاصيل فى هذا الجزء ولعله السبب فى أننى كثير الاشارة الى هذه الأمثال القديمة لأنها أكثر رسوخا من القيم الجديدة المستحدثة، كذلك فإننا فى حاجة الى تقنين مفاهيمنا القديمة مما تبقى من موروثات عصور القهر مثل : «اللى يتجوز أمى أقوله ياعمى» أو «إن عبدوا العجل احش وارميله » ثم «الميه ماتجريش فى العالى» وهناك مئات من الأمثال الكثيرة التى تمت على النفاق والتخلف والدوجما وهو

الأمر الذى دفعنا فى صياغة هذا المؤلف بهذه الطريقة لكى نستشرف المستقبل بقيم ومفاهيم أفضل ترفع المجتمع المصرى للتقدم والحضارة فضلا عن المشاركة ـ بالكلمة المطبوعة ـ فى تشكيل مستقبل أفضل لشعب جدير بذلك .

وسنحاول فى هذا الجزء الثانى ، تقديم بعض المفاهيم التى نراها أساسية فى صياغة مرحلة «مابعد عام ٢٠٠٠» معظمها قد تم ذكره ـ صراحة أو ضمنيا ـ فى الجزء الأول ، ولكننا سنحاول أن نلقى أضواء عليها لتأكيد معانيها ، وهى مذكورة تباعا فى هذه المقدمة للجزء الثانى ثم خصصنا بعدها ، عدة مقالات تقدم مفاهيم أخرى نراها مناسبة للعصر .

وليس معنى هذا أن هذه هى مجمل قيم ومفاهيم مصر أو المنطقة أو العالم فى حقبة مابعد عام ٢٠٠٠ ، وإنما هى نماذج أو «مفاتيح» هذه المرحلة ولكن باب الاجتهاد واسع ومتجدد ومفتوح !

❏❏❏

لقد اثبتت التغيرات الكبرى فى النصف الثانى من القرن العشرين أن النظمُ السياسية التى تنمو ولاتنهار هى تلك التى تحمل داخلها مقومات أو نهج أو آليات Or Medchansims Seef Correcting Syskem التصحيح الذاتى فقد سقطت الفاشية من خلال أتون الصراعات العسكرية أدت إلى تضحيات هائلة تحملتها البشرية جمعاء خلال الحرب العالمية الثانية وانتهت

الفاشية بالفعل عام ١٩٤٥ وبعد ذلك بنحو نصف قرن تفكك الاتحاد السوفييتي واهتزت كل دول أوربا الشرقية بأشكال ودرجات متفاوتة وقد عكف المحللون لتحليل الظاهرة ونحن نراها في أنه كنظام سياسي لم يكن يحمل آليات التصحيح الذاتي ، وهو أمر قد أشرنا اليه كثيرا في سياق ما قدمناه في الجزء الأول لذلك آثرنا في بداية الجزء الثاني ـ والذي يتعلق بالقيم والمفاهيم أن نعالج هذا المفهوم بشكل أوضح حتى تكون القناعة به أكثر وأوفى وقد سعدت أن هذا المفهوم ـ ومنذ أن كتبت عنه ـ قد صار يتردد في مصر ، وأراه نقطة البداية لأي اصلاح ثقافي أو سياسي للإنسان الفرد والجماعة .

إن الطبيعة هي معلمة الإنسان ، وظاهرة التصحيح الذاتي أمام أعيننا في التوازن البيئي والطبيعي ، ولعلها أوضح إذا تأملنا أنفسنا وكيف تعمل وظائف أعضاء ومكونات الجسم ، وكيف أن الخالق الأعظم قد سخر آليات التصحيح الذاتي للمحافظة على الحياة ذاتها ، فالاحساس بالألم هو أول المؤشرات التي تضغط على عقل الإنسان فيشعر ويعي أن هناك خللاً ما داخل جسمه ينبغي الاهتمام به وعلاجه أي تصحيح أحواله ، ولذلك فإن خطورة أمراض القلب على الرغم من أنها مصاحبة بآلام حادة في الصدر ولكنها لاتعطي ـ في بعض الأحيان ـ الوقت الكافي للعلاج ، فيقال إنه «مات بالسكتة القلبية» أي دون انذار كاف وكلنا نكره ان نذكر

اسم المرض الخبيث على مسامعنا على الرغم من أن أمره معروف من القدم ويطلق اسمه على أحد الأبراج المتعلقة بالغيب «السرطان» لأنه ينتشر داخل جسم الإنسان ، وتنشطر الخلايا دون أن تفصح عن ذلك عن طريق الاحساس بنوع من الألم ينبه الى خطورة مايجرى فى أحد أعضاء جسم الإنسان إلى أن يستشرى المرض ، ويصبح العلاج أكثر صعوبة ولذلك أسميناه بالمرض «الخبيث» .

ويوجد لدى الإنسان جهاز للمناعة ، ولولاه لما استمرت الحياة، ولذلك تكاتف العلماء فى أماكن كثيرة للبحث عن علاج لمرض «الايدز» لأنه يقضى على أجهزة المناعة فى جسم الإنسان ، فتكون النهاية المحتومة ، ولعل التشبيه المطروح الآن هو أن تسلسل قيم ومفاهيم «الانحلال» فى المجتمع يعبر عنها بمرض «الايدز الاجتماعى» لأنها تفقد المجتمع أجهزة المناعة الأخلاقية والقيمية !

ويفرز الجسم كل من كرات الدم الحمراء والبيضاء على حد سواء ولكن عدد كرات الدم الحمراء هائل وضخم ويفوق كثيرا عدد كرات الدم البيضاء فهى أقل عددا غير أنها وهى التى تهب لمقاومة الجراثيم ، وعندما تتراكم فى موقع ما ـ فى شكل صديد ـ يكون ذلك دليلاً على أن مقاومة الجسم الطبيعية نجحت فخيرا وبركة من خلال آليات التصحيح الذاتى للجسم ذاته ، وإن لم تنجح ، فإنها تولد الألم والمظهر البين فى القروح والتقيح والخراريج التى تدفعنا

الى تناول «المضادات الحيوية» أو اللجوء الى الجراحة وهى كلها آليات طبيعية أو صناعية للتصحيح الذاتى .

وينطبق ذات الشىء على الاجهزة الكهربائية الدقيقة مثل الترموستات لضبط الحرارة وقطع الكهرباء عن الموتور وإلا قضى على الموتور والمعدة كلها .

ومن هنا فإن مفاهيم التصحيح الذاتى وسيادتها من خلال آليات دستورية وقانونية وقضائية لهى السبل الرئيسية للتقدم ، وحماية المجتمع من الانهيار أو التحلل ولذلك فإننى لا أتوقع لمصر أن تدخل أى عمق يذكر لمراحل «تداول السلطة» من خلال السبل الديمقراطية المتعارف عليها والموجودة بالفعل فى الغرب لأن مفاهيم التصحيح الذاتى ليست متعمقة بقدر كاف ، فى عقول الشعب بكل فئاته أو عقول الحكام على جميع مستوياتهم .

كما وأن مفاهيم التصحيح الذاتى وفاعلية آلياته هى أحد الخطوات المهمة فى اقلال مسطح الفساد .

وبجوار هذا المفهوم الرئيسى وهو وجود آليات التصحيح الذاتى داخل أى منظومة اجتماعية أو سياسية ـ من الأمم المتحدة الى أى جمعية أهلية صغيرة مرورا بأجهزة وكيانات الدولة ـ فإن هناك مفهوماً آخر ـ ورد كثيرا فى الجزء الأول ـ وهو أن التنوع ظاهرة كونية Diversily is a Universal Phenomena وهو أيضا مفهوم تقدمه الطبيعة وظاهرة أمام أعيننا فى كل

مظاهر الحياة من حولنا لعل أبرزها هذه الزهور متنوعة الألوان والاشكال والرائحة وكذلك النباتات والاشجار وثمار الحقل والفواكه وغيرها ، وكذلك مؤكد فى عالم الحيوان بما فيها الحفريات التى اختفت كالديناصورات التى لم تستطع أن تتواءم وتكيف نفسها فى ظروف البيئة المناخية المتغيرة .

فلماذا يختلف الإنسان عن هذه وتلك فالتباين واضح فى أشكال الناس ، ذلك أن مكونات جسم الإنسان البيولوجية واحدة تقريبا ، ولكن هيئة ومنظر الناس مختلف فى الطول والعرض والبيئة والمشية ونغمات الصوت حتى صاروا يتحدثون على أن للصوت بصمة ، مثل التباين فى بصمات اليد ، بما فيها بصمة الابهام فهى تعتبر دليلاً جنائياً على شخصية الجانى فكلها تأكيد بيّن أن التنوع ظاهرة كونية لأنه لا توجد بصمتان متطابقتان على حد قول خبراء الجريمة .

ثم إن مكونات الوجه واحدة للبشر ، من عينين وأنف وفم وأذنين ولكن التركيبة والتنسيق لهذه المكونات على شكل الجمجمة ونوع ولون البشرة والشعر وطول الرقبة وقطرها وغيرها ، تجعل من صورة الوجه أو «سحنته» نسقا مختلفا من إنسان إلى آخر وفى العصر الحديث صارت صورة الشخص مطبوعة فى جوازات السفر والبطاقات الشخصية كدليل اثبات للشخصية وقلت عبارات جميل الصورة ، وغليظ الرقبة ، وعريض القفا ، وأن تقاسيم الوجه وسمنته كثيرا ماتفصح عن أسرار النفس الداخلية .

وقديما قالوا فى الأمثال . إن الله قد وزع الأرزاق فى وضح النهار فرأى كل منا رزقه ورزق غيره ، فلم يقنع أى منا برزقه ويطلب المزيد مثلما رزق الله صاحبه أو قريبه أو جاره ، ويقال ، ولكنه وزع العقول والأفئدة والمشاعر فى عمق الليل ، فلم يشاهد أى منا عقل غيره ، لذلك قنع كل منا بعقله ويرى أن رأيه هو الأصح .

فإذا كان هناك تباين واختلاف فى وجوه البشر لماذا لايكون هناك اختلاف مقابل فى رؤى وعقول ومفاهيم ومنطق الافراد ، وهو أمر معترف به من قرون وورد فى نصوص دينية متعاقبة وكل منا مقتنع بهذه المعلومة المتفق عليها ، ولكن الصعوبة تكمن فى أن كلاً منا له رأى فى قضية عامة أو خاصة كثيرا ما يتوهم أن رأيه أو رؤيته هى وحدها الصحيحة وأن وجهة نظرة الآخر ، خاطئة وقد يشتعل الغيظ فى النفس الداخلية وقد تمتد الكراهية الى الآخرين ويتجمع ذوو الرؤى المتقاربة ويصبح الحقد جماعيا حتى يصل أحيانا الى صراع بالايدى وفى أحيان نادرة تتطور الأمور وصولا الى الحرب الأهلية أو بين الشعوب ولذا فنقطة البداية هى قبول الاختلاف فى الرأى أى الاقتناع الداخلى بأن التنوع ظاهرة كونية.

وإذا كنا فى عالم مابعد عام ٢٠٠٠ نتمنى أن تقل فيه الصراعات والعنف والحدة ـ وهى أمور عالجناها مرارا فى الجزء

الأول ـ فإن نشر مفاهيم التنوع ظاهرة كونية وطبيعية ، يجعلنا قابلين لوجود وجهات نظر مختلفة وأن تعدد الآراء مسألة طبيعية وعلينا أن نتعايش معها ومن ثم تسود القيم التى تدعم الديمقراطية وحق الجماعات فى تشكيل جمعيات أهلية ومفاهيم ثقافة السلام والموازييك .

وليس معنى ذلك هو الميوعة فى المواقف ، وفى تقديم الأفكار ، فالتمسك بالرأى مهم ومطلوب ثم البحث والمناقشة فى المواقف بهدف تعديل الرأى ليصل الإنسان لما يعتقده الصواب أمر وارد ، ولكن فى ذات الوقت أعطى مكانا للرأى المخالف ، فقد تغير أنت رأيك مع الزمن ومن خلال عرض الآراء المختلفة أمامك، فالإنسان العنيد غير مؤهل لقبول التباين ، والإنسان الذى يفتخر بأنه لم يغير موقفه فى قضية بذاتها عشرات السنين ، لايحمل قيم التفاهم والسماحة بل قيم الصدام .

إن صلب مبادىء الليبرالية والديمقراطية يكمن فى القناعة بأن التنوع ظاهرة كونية موجودة فى الحياة الطبيعية ومن ثم فهى موجودة فى الحياة الفكرية والثقافية وإلا ماتقدمت البشرية ، فالتنوع ميزة كبرى للإنسان وهى المحرك وأحد أسباب التقدم والازدهار .

ولسوف يجد القارىء ـ فى الجزء الأول ـ ترديداً لنغم يحمل كل من القيمتين الأساسيتين وهما ضرورة وجود آليات التصحيح

الذاتى فى كل موقع فى المجتمع ، ثم أهمية قبول مبدأ وجود الرؤى والايديولوجيات - وحتى الأديان - المختلفة لأن بدون ذلك ستتجمد المفاهيم وسيكون دخول المجتمعات عالم مابعد عام ٢٠٠٠ أمرا صعبا .

□□□

ومن القيم والمفاهيم التى أود طرحها كذلك - على المثقفين والمفكرين فى مصر - وربما فى مواقع كثيرة أخرى - هو التناقض الذى يعيشه الإنسان كفرد بين «الذاتية والموضوعية» .

فالإنسان كائن يحمل داخله الإحساس بذاته وأهميته - ثم الاحساس بمصالحه الذاتية - وهو أمر طبيعى ، فبدون أنانية الإنسان - أى احساسه بـ «الأنا» لن يحدث طموح داخلى - وهو أحد محركات الحياة وتقدمها .

ولكن «الذاتية» وحدها - إذا سادت وعمت - تحول المجتمع الى جملة صراعات قاتلة من خلال اختلاف وتضارب طموحات ورؤى الافراد وتتحول الجماعة الى غابة ولما تكونت أسرة لأنها تتفكك اذا تضاربت المصالح بين الرجل وزوجته وقد تحتدم الصراعات وتهدم علاقات بين أشقاء - وهو أمر كثيراً مايحدث نتيجة اختلاف المصالح وحب الذات بين أبناء الأب الواحد على كيفية تقسيم الميراث وما أشبه ولذا وفى هذه الجزئية فان التماسك الأسرى بين الفقراء أقوى من بين الأثرياء ، لعدم وجود ثروة يختلفون عليها فيتجاوزون الذات ويتضامنون .

والوجه الآخر من الحياة يتوازن مع وجود قضايا «موضوعية» أى مسائل لا تحركها المصالح أو الطموحات الذاتية الشخصية وحدها ، فهناك قيم مجردة ، غالبا ماتكون ثابتة عبر الأديان ، وقد تكون متحركة لتناسب طموحات العصر مقابل مادى أو معنوى ، وما الى ذلك من قيم ومفاهيم عامة متفق عليها بين البشر وأحيانا على مستوى العالم كله .

ثم هناك مفاهيم وقيم موضوعية عامة يلتف حولها عدد أكبر من البشر تخص مثل حب الوطن والنضال من أجل رفيعته وتقدمه ثم مفاهيم العدالة الاجتماعية. ان درجاتها المتفاوتة ومن منطلقاتها المتباينة فهذه كلها أمور يلتف حولها البشر فى مجموعات ومن ثم يكونون أحزابا سياسية ، أو جمعيات أهلية ومع انتشارها تتحول الى ايديولوجيات يكون لها مفكروها ومنظروها وهى فى مجملها قيم «موضوعية محببة» الى النفس البشرية .

ويتحرك معظم الناس إما لأسباب ذاتية أو لأسباب موضوعية ، وهذه وتلك هى محركات الحياة الثقافية ، والفكرية وتكون مجالات طموحات البشر ، ولايوجد إنسان ذاتى فقط، وإلا أصبح «أنانيا» ينفض من حوله الناس إلا فى النادر القليل ، كما أن لايوجد إنسان موضوعى بحت ، أى تحركه القضايا العامة التى لاتعود عليه بأى نفع إلا فى النذر القليل أيضا ، ولكن أغلب البشر «بين ـ بين» ويتحركون بين الذاتية والموضوعية وكلها أمور جاءت بين

السطور بشكل مباشر مرات وبشكل خفى باطنى مرات أكثر وستأتى مرة أخرى خلال عرض موضوعات هذا الجزء الثانى مثل موضوع «كل ميسر لما خلق له» وأن «الحياة . خيارات وتوازنات» على أن مايكره الناس هو «خلط الأوراق» أى استغلال الموضوعية لأسباب ذاتية أى أن يركب فرد موجة حركة إنسانية راقية مثل حركة حقوق الإنسان أو مناصرة المرأة أو حماية البيئة ثم يستغلها لتحقيق مآرب ذاتية تعود عليه بالنفع الشخصى ، وكل ذلك يدخل فى إطار المعايير والقيم والمفاهيم التى ستسود فى القرن القادم حيث يزداد الاحساس بأهمية «الموضوعية» والتجرد حتى وأن كان على حساب المصالح الذاتية الأنانية الضيقة والموقوتة وكلما نحونا الى التجرد والموضوعية كلما كنا شعبا أرقى وأكثر احتراما بين الأمم .

ولايسعنى بعد هذه المقدمة للجزء الثانى ـ وقد تضمنت استعراضا سريعا لبعض المفاهيم الرئيسية والتى أوجزتها ضمن المقدمة ، أترك القارىء يستمتع باختيار وقراءة موضوعات تدخل فى اطار المفاهيم والقيم السائدة والتى تتطور لندخل بها مرحلة ما بعد عام ٢٠٠٠ ، وهى باقة من الافكار تناسب أذواقاً كثيرة وتؤكد معنى أن التنوع ظاهرة كونية وأن القضية التى تروق البعض ، ليس بالضرورة تروق كل الأمزجة والأذواق والثقافات .



كل ميسر لما خلق له

يحتاج المرء منا - بين الحين والآخر - لأن يقف ويتأمل حوله ثم يزداد التأمل ، فيغوص داخل نفسه ، ويراجع نجاحاته وربما إخفاقاته ويتذكر مسار حياته وأحيانا قيمه لأنه - بدون تلك الوقفة - يظل المرء يجرى ويسعى ويلهث بقوة الدفع الذاتى دون أن يكون له هدف أو مسار .

وتأتى مناسبات الصيام لتخلق مناخا عاما يستظل بظله كل من يعيش على أرض مصر مسلمون وأقباط فيوقف كل منا عجلة السير - ولو قليلا - وكأنه بالصيام يضغط على «فرملة» أنشطة الحياة فيتوقف اندفاعها وتقل سرعتها وعندئذ يلتقط الأنفاس ، فيتأمل الطريق حوله وغالبا ما يكتشف إنه كان مسرعا - دون أن يدرى - إلى حتفه أو أنه قد نسى مكان الوصول بالضبط ولكنه مندفع بحكم حركة السيارة أى «رحلة الحياة» التى تكونت حوله وحاصرته فى العمل والأسرة والأولاد أو من خلال طموحه (المدمر أحيانا) لتحقيق الذات أو بممارسته للحرفة التى أتقنها ، ولعله لم يدرك كيف أنه قد انصرف عن تجديد معلوماته أو نسى بعض صداقاته أو غاب عنه الاهتمام بروحانياته أو أنه قد غرق فى لعبة جمع المال حتى «همس» الناس مستفسرين على سبب هذه الثروة الهابطة دون مقدمات وأحيانا يقلق كل ذلك (أو بعضه) ضميره الذى لم يتحجر بعد . وباختصار تأتى مناسبات الصيام لتكون فترة تأمل وتعمق ومراجعة النفس ، ولكن كثرة تستمر في

طريقها ، حتى فى مناسبات الصيام .. فتغرق نفسها فى قضايا صغيرة جزئية قد تكون متصلة بفروض الصيام وممارسته أى التجهيز لموائد الإفطار وقائمة المدعوين والإعداد للسحور وتوقيتاته فتتسرب المناسبة الكريمة دون أن يحققوا شيئا إلا طقوسها الشكلية أى المظهرية التى يمارسها الكافة ، بمعنى آخر فإن البعض يتأملون الحياة بفهم وعمق وفلسفة ، وآخرون بتسطيح ولهث وتقليد للآخرين .

وهنا يطرح السؤال التقليدى الأزلى نفسه · لماذا يكون ذلك هكذا متفلسفا متعمقا مناقشا ، ومن ثم مصححا لمسار حياته فينجح ويتقدم وتعلو قامته ويسعد هو ومن حوله ، بينما الآخر يلهث ويجرى وفوق ذلك ممزق من الداخل ، على الرغم من ترديده لنفسه وللآخرين أنه يمارس كل العبادات ولكنها فروض يقبلها على مضض ، ثم تأتينى الإجابة فى الأثر الصالح المحقق «كل ميسر لما خلق له» وأتأمل حولى فأجد نوعيات متباينة من البشر «ما أنزل الله بها من سلطان» .

فكلنا أولاد آدم وحواء أو هكذا أفهمونا وقبلناها بالمفهوم الفيزيائى أو المجازى وكلنا لا نختلف كثيرا فى الشكل أو القامة ، فمكوناتنا البيولوچية وأجهزة الجسم واحدة أو متقاربة، ورغم ذلك لا تجد إلا فى أحوال نادرة شخصيتين لهم ذات الملامح ، بل قد تجد اختلافات شديدة فى الشكل والعقلية والمزاج

والمشارب وأسلوب التفكير حتى بين الأشقاء الذين لهم ذات الأب والأم ونشأوا فى مجتمع واحد وظروف بيئية متقاربة وتأتى الإجابة «كل ميسر لما خلق له» ، كلنا نلهث وراء قدر أكبر من الرزق هناك من يضعون أيديهم فى التراب فيتحول إلى تبر وآخرون يولدون وفى أفواههم ملاعق من ذهب ، ومع الزمن ووفق تصرفاتهم فى الأمور المالية وعلاقاتهم الإنسانية يفقدون معظم ما كان لديهم من ثروات .

ولماذا يولد ذلك فى أسرة فقيرة ويولد ذاك غنيا ، ويمتد الخيال بالسؤال ولماذا يولد ذلك ذكيا فذا ناجحا ويولد الآخر متعثرا فاشلا وما أن يحاول الفاشل أن يقلد طريق زميله الناجح حتى يجد أن المسار ليس بهذه السهولة وهذا اليسر . هل هو الحظ والتوفيق ، أم أنه سوء الطالع ، وهل الحظ هو فى الحقيقة مسألة عشوائية ومجرد مصادفة أم أن أمام كل منا فرصا تمر أمام البعض فيدرك مدلولها وينتهزها ويأخذ قرارا مناسبا ، وآخرون يتركونها تمر من تحت ذقونهم دون أن يدركوا أنها فرص تحقق النجاح ولماذا هذا له القدرة فيولد النجاح مزيدا من نجاحات ، ولماذا يتعثر آخر ويؤدى فشله مرة إلى مزيد من الفشل فيلجأ إلى القنوط والتقوقع . وهذا الشخص منفرج السريرة مقبل على الحياة يردد أن «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» فيستمتع بالحياة ويرتفع مستوى معيشته ويشار له بالبنان ويلتف حوله الناس ، وآخر يصر على أن

المال «أصل كل الشرور» ويؤثر القناعة بما قسم الله له ، وأن مسارات الحياة ليست كلها فى خط مستقيم ، وقد تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، فقد تتطور أمور ذاك الأول المقبل على الحياة فتصيبه حالة من الجشع فيندفع فى تصرفات مشبوهة فيصبح «حوتا» ويجد نفسه فى أعماق السجون وقد تتغير رؤية الثانى فى – لحظة صدق مع النفس ومراجعة لمسار الحياة – فيعود ليرتفع فى هدوء وبخطوات ثابتة ويتساءل الناس لماذا انتكست أحوال الأول وكيف تغيرت أحوال الثانى ولا يجدون إجابة إلا فى الأثر الصالح «كل ميسر لما خلق له» .

ولماذا تقتصر رؤيتنا على أمور الدنيا ، فإن ذات المنطق ينطبق على مجال الروحانيات فقواعد الدين ونصوصه واحدة والكل يقرؤها ويتعرف عليها ولكن كلا منا يفهمها ويصيغها وفق رؤيته وشخصيته، فتؤثر علينا بمفاهيم وأشكال مختلفة البعض يراها بسيطة سهلة وكيف انها «يسر لا عسر» فيأخذ لبها وقيمها «فيعقلها ويتوكل» ولا يعيقه التدين عن الإبداع والإنطلاق بالعلم والعمل فى كل ألوان الحياة ، أما البعض الآخر فيتعمق ويتعمق حتى يتصوف وتشده «الحياة الآخرة» للإنصراف عن «الحياة الدنيا» ، ونوع ثالث يأخذ ذات النصوص فى تزمت ويعيش حرفيتها ويجد نفسه وقد تطرف ، ولأن له مشاكلات شخصية (بعضها عائلى عاطفى وبعضها مادى اقتصادى

وبعضها ضياع فى مجتمع لم يقدم له بديلا مقنعا) يجد نفسه مسوقا لجماعة تسخره باسم الدين والجهاد وتغير المنكر باليد وينتهى به الأمر بالانفصال عن أسرته ومجتمعه ويهاجر إلى مجتمع آخر من صنعه هو وأقرانه .

ويظل السؤال مطروحا لماذا يتدين ذلك تدينا لينا بسيطا على «قده» حتى يتهم أنه «علمانى» ورغم ذلك فهو محبوب وناجح وسعيد بينما آخر متزمت وقلق ومكروه ، وثالث ثائر وعنيف وعنيد ، ولا تجد إجابة شافية إلا فى الأثر الصالح وأن «كل ميسر لما خلق له» .

ولأنى مشتغل بالسياسة أرى نماذج متباينة حولي كثيرة تلهث وراء السلطة والحصول على مقعد فى مجلس الشعب أو كرسى وزارة سيادية باعتبارها قمة العمل السياسى ، والبعض يلهث ويلهث ولكنه لا يصل إلى شئ وهو الأمر الذى طرح وفرض شخصية «عبده مشتاق» الشهيرة التى ابتدعها الكاتب الساخر أحمد رجب وآخرون ساروا فى طريقهم دون أن يؤهلوا أنفسهم لمنصب وزارى وإذا بالمنصب يهبط عليهم فى حجرهم حتى يبدو الأمر وكأنه خبطة حظ ، وقد يوفقون ، وقد لا يوفقون فهذه مسألة ظروف وملابسات ، وآخرون متمسكون بمواقعهم فى عالم المعارضة يسارا أو يمينا ولا يتصورون أنفسهم خارج هذا الإطار ويشكون كثيرا من أن تداول السلطة غير متاح ولكنهم

يؤثرون الإستمرار فى مواقعهم لأنهم بذلك يدفعون - أو يتوهمون أن يدفعوا - الأمور إلى طريق تداول السلطة فالبعض يجد نفسه فى موقع السلطة وربما فى قمتها ويعمل فى دأب وصبر وبنفس راضية ويواجه أزمات وأزمات ويستمر في الحكم سنوات وسنوات ويواجه بكمية من التهكمات من صحف المعارضة والموافقة وبعضها فى شكل رسومات كاريكاتيرية جارحة أحيانا ، ويقابلها بابتسامة دون تزمت ولا أجد تفسيرا أفضل من أنه «كل ميسر لما خلق له» .

ولماذا أذهب بعيدا وقد كنت فى موقع متقدم فى حزب التجمع ثم صرت فى ظروف معينة قريبا من السلطة عندما صرت رئيسا للجنة الإسكان فى مجلس الشعب ، ومع الممارسة أدركت أنه «غير ميسر» لى أن أستمر فى موقع السلطة آثرت أن أحقق ذاتى فى عالم الفكر والثقافة والكتابة ، ولم أحاول أن أقلد غيرى أو أسير في المسار الذى توقعه الناس لى واتجهت إلى نفسى الداخلية وتعرفت على مزاجى وقدراتى ونفسيتى وقارنت بين كل ذلك والواقع الذى أعيشه والظروف السياسية لما هو متاح وممكن ومن كل ذلك خططت لما أنا فيه ، وشعرت عندئذ أننى ميسر لما خلقت له أى بما يناسب المرحلة المصرية الحالية وهكذا أقنعت نفسى بأن «السياسة فن الممكن» ، وما يناسب طموحات وحماس وجهد الشباب لا يناسب الظروف الصحية في عمر الشيوخ وحكمتهم فالحياة توازنات وخيارات .

على أننى أرجو ألا يولد للقارئ إحساس بأننى «قدرى» ، أو أن الإنسان «ميسر» وليس «مخيرا» لأن محور فلسفتي فى الحياة يدور حول أن قدر الإنسان الفرد وقدر الشعوب والجماعات هو فى قراراتها وتوجهاتها وإرادتها .

ولذا فعلى كل منا أن يدرس ذاته ويتعرف على قدراته أى ما «خلق له» ثم يرسم طموحاته بما يتفق مع خواصه وقدراته وشخصيته وهذا هو سر النجاح والتوفيق وهو التطبيق لأن كلاً منا «ميسر» وليس «مسيرا» لما خلق له .

وفى حقبة ما بعد عام ٢٠٠٠ ، ستتغير الحياة فى مصر الى الافضل إذا وجدنا النسق العام فى مفاهيم المجتمع والدولة ونظام الحكم الذى يوفر لكل منا الفرص التى تتفق مع ما هو ميسر لكل منا فيكون العالم مثلا هو من يولد ليكون كذلك بقدراته الذهنية الطبيعية ، وتحاول الدولة الراقية إكتشاف مواهب أبنائها فى بدارى الوقت لتتفجر مواهبهم بسرعة ، حتى لتقاس درجة نجاح الأنظمة فى الدول المختلفة بقدر ما تسمح بتوافر قنوات تعليمية وإجتماعية لتمكن الأفراد من اكتشاف قدراتهم وتحقيق طموحاتهم وفق مالديهم من مهارات وامكانات أى بتيسير ما خلق لكل منهم .

مجمل القول ، هو أن أحد أسرار الكون هو تباين قدرات البشر والتى تولد معهم ، وقد تنمى هذه القدرات وقد تختفى دون

أن يكتشفها المرء ذاته أو يتعرف عليها الأهل ومن حوله ، ولكن المجتمعات الراقية - فى السابق - وفى ما بعد عام ٢٠٠٠ ، ستقاس درجة رقيها بقدر ما لديها من قنوات طبيعية فى مجالات التعليم وفرص العمل والترقى لكى يأخذ كل منا موقعه حسب القدرات التى وفرتها له الطبيعة ، ولذا فإن المجتمعات ترتقى إذا أعتلى موقع القياده فيها من هو مؤهل لذلك ، ليس فقط فى المجال السياسى ، وإنما فى جميع مجالات العلم والصناعة وغيرها ، فإذا وجد النظام السياسى الديمقراطى الذى يوفر ذلك تقدمت الشعوب والأمم وستكون أحد أهم القيم والمعايير لحقبة ما بعد ٢٠٠٠ هى اختفاء الوساطات وأن لا يحصل على الوظيفة إلا من هو أهل لها ، وأن تكون الشفافية هى الدرع الذى لا يسمح بأن يستمر فى موقع المسئولية إلا من هو أهل لها .



الحياة .. توازنات . وخيارات

يتصل بى بعض الأصدقاء الذين تخصصوا فى مداعبتى حول أن بعض التشبيهات البلاغية التى استخدمها فى كتاباتى تنم وتفصح عن مهنتى الأساسية فى «الهندسة الإنشائية» حيث قضيت سنوات العمر الخصبة فى تدريسها وممارستها، فكان طبيعيا أن تترك بصمتها على مفاهيمى، فالإنسان هو محصلة أمور كثيرة متباينة تبدأ من عوامل الوراثة، ثم الثقافة ، ثم المهنة وغيرها وهذا هو سر التباين والاختلاف بين شخصية وأخرى

وتقوم الركيزة النظرية والمحورية لكل علوم وفروع «الهندسة الإنشائية» ولها تطبيقات كثيرة فى عالم المنشآت الخرسانية أو الحديدية أو غيرها – على دراسة وتحقيق قوانين الاتزان «**الإتزان**» EQUILIBRIUM ، ومن هنا كانت إسقاطاتى على مفاهيم «**التوازنات**» فى جميع صورها، فلا استقرار بدون «توازنات» سياسية (تفحص وتوازن بين قوى المجتمع فى الداخل عن قوى أخرى فى الخارج) ثم مع التوازن الاقتصادى وله محاور كثيرة يعرفها المتخصصون وكالتوازن بين العرض والطلب أو بين الصادرات والواردات والتى يعبر عنها «الميزان التجارى» أو ميزان المدفوعات وغيرها.

وليس هدفى من هذه التأملات هو الحديث عن التوازنات فى القضايا المجتمعية فهذا أمر يطول شرحه ، ولكننى آثرت أن أطرح التوازنات الشخصية، فالحياة ماهى إلا سلسلة متعاقبة من

التوازنات من يدرك قواعدها ويتعمق فى أصولها يسعد ويستمر فى إطارها العام المقبول، ومن يعرف حيلها التى تتفق مع قدراته يتقدم ويحقق اللمعان، أما من يخرج على قواعدها المعروفة والتى حددها المجتمع (الخارجة عنه لأنها أقوى منه) فإنه يواجه صعوبات وغالبا مايشكو أن الآخرين لايفهمونه وأن العيب فى المجتمع نفسه وليس فى تركيبته الذاتية ذلك فإن الحياة أيضا «خيارات» فالإنسان يختار قراراته بل غالبا مايخطط كل منا لحياته غير أن البعض يخطط ليومه بينما آخر ينظر الى المستقبل فيخطط لمرحلة مرئية وقليل من الناس يخطط للحياة كلها فهذا أمر صعب لأن لكل مرحلة من العمر خصائصها التى تفرض متطلباتها وطموحاتها خصوصا أن ظروف المجتمع أى القوة الخارجية لايتحكم فيها الإنسان وهنا يظهر الإبداع وحسن التصرف ثم الاختيار فيظهر الاختلاف بين إنسان وإنسان.

وتختلف قواعد وقوانين التوازنات فى الحياة عن تلك التى تطبق فى عالم المنشآت الهندسية (من برج القاهرة وكوبرى النيل إلى السد العالى) فى أن قواعد «حساب الإنشاءات» مجردة ومطلقة أى مقننة بقواعد رياضية منضبطة حتى أصبح استخدامها من خلال برامج معدة مسبقا ليعمل وفقها الحاسب الاليكترونى «الكمبيوتر» أمرا عاديا يمارسه كل مهندس مبتدىء، ومن ثم فهى توازنات موضوعية مبنية على أسس علمية ثابتة.

بينما التوازنات فى الحياة تعتمد على الرؤى والمفاهيم والقيم وأسلوب التفكير بل يصل الامر فى اعتمادها على الانفعالات والنوازع الشخصية والنفسية، ولذلك فاننى قد تعودت - بعد أن ابيض شعر رأسى - أن لا اتخذ قراراً وقت الغضب بل أؤجل الأمر حتى صباح اليوم التالى وخلال النوم يعمل اللاوعى، فاقلب الامر على وجوهه الكثيرة ليأتى القرار «متوازنا» ولكنه ولاشك يحمل طابعا «ذاتيا» وهذا مايجعله قرارا - أكثر صوابا أو خطأ - من قرارات آخرين يتعرضون لخيارات مماثلة، ومن هنا كانت أهمية الخيارات لإيجاد توازن بين الذاتية والموضوعية، فالبشر عموما تحركهم دوافع «ذاتية» ومن هنا كان الحديث عن «الآنا» ولكن من النادر أن تجد انساناً ذاتيا أنانيا بمعنى أنه لايتحرك أو ينفعل إلا للأمور التى تتعلق بشخصه فقط (أو قد تتسع دائرة الآنا لتشمل أولاده أو أسرته) ذلك لأن مثل هذه الشخصيات الذاتية أى المتمحورة حول الذات تصبح أنانية قبيحة يكرهها الناس فينفرون منها «لأن المرء باخوانه» ولذا فلابد لهم من تبنى قضايا «موضوعية» أى الاهتمام بمشاكل عامة قد تخص بعض قطاعات المجتمع مثل الالتفاف حول التنظيمات الدينية أو الخيرية المحلية وهو أمر شائع فى المرحلة الحالية، وقد تتسع لرؤية قضايا الوطن أو الانسانية، ولكنها على أى حال قضايا تخرج عن دائرة «الذات».

وما تقدم البشرية فى مجال العلم والفكر والفلسفة والدين (فى أى موقع من العالم) إلا من خلال أشخاص قد تجردوا عن ذواتهم وتفرغوا لقضية أو موضوع، فالأنبياء بشر نذروا أنفسهم لرسالات غيرت وجه الحياة، والفلاسفة الأقدمون فى اليونان وغيرهم أبدعوا حتى صارت أسماؤهم أعلاما عبر التاريخ كله.

وفى العصور الحديثة نذكر باستير ومدام كورى ونيوتن وأنشتين فى مجال العلم والرياضة، وفى القضايا الوطنية الحديثة نذكر سعد زغلول وتضحياته ونفيه ونضاله ليس من أجل نفسه ولكن من أجل استقلال مصر ويقابله غاندى ونهرو فى الهند وأخيراً مانديلا فى جنوب افريقيا، ولابد لى هنا أن أذكر جمال حمدان راهب الفكر والابداع فى موسوعته الرائعة «شخصية مصر» .

هؤلاء ومئات غيرهم فى كل بقاع الارض أغفلوا ذواتهم وعاشوا لقضية وضحوا من أجلها بأساليب مختلفة فصاروا من الخالدين وتجاوزت أسماؤهم الحكام والرؤساء والملوك فى كل موقع على الرغم من شراسة وقوة السلطة الزمنية والأضواء التى يعيشونها طوال وجودهم فى السلطة ولكن ما أن يرحلوا حتى ترحل معهم أضواؤهم وأهميتهم ولا يتبقى منهم إلا النذر القليل، أما الخلود هو أن يذكر الانسان بعد الممات وبعد السلطة، فمن ينكفىء على ذاته يموت قبل أن يموت أما من يتبنى قضية أو فكرة

علمية أو انسانية أو عمرانية فغالبا مايكتب له الخلود بالقدر الذى أثر به فى المجتمع.

وهؤلاء فى مجملهم اطلق عليهم عبارة «كرات الدم البيضاء» ذلك أن جسم الانسان يجرى فى دمائه كثرة من كرات الدم الحمراء حاملة الأوكسجين والتغذية لكل خلايا الجسم وهى الكثرة العددية أى المواطن المتوازن العادى، ولكن كرات الدم البيضاء (وحمدا لله أنها قلة وإلا اختل التوازن البيولوچى للجسم) فهى الحامية للجسم من المخاطر اذ تهب وتتجمع ضد العدو والجراثيم التى تهدد سلامة الجسم ولذا فهى جزء من جهاز المناعة وكل مجتمع يفرز عددا معقولا من الأفراد أو الجماعات التى تعمل لحماية ووقاية المجموع.

إن الشخصيات التى تتجاوز ذاتها لفكرة أو مبدأ أو قضية أو بحث علمى هى الدروع الواقية للمجتمع وفى هذا الامر على كل منا أن يوازن بين ان يحقق ذاته من خلال تحقيق المطامع والطموحات الشخصية. وهى أمور طبيعية ومشروعة وبين أن يتجاوز ذاته ويصبح أكثر موضوعية بالتمسك بالقيم المجردة، وبين هذا وذلك يتحرك البشر وفق رؤيتهم وخياراتهم.

إن أحد ملامح حقبة ما بعد عام ٢٠٠٠ هو أن الانسان يخرج عن ذاته فيتأمل القوى الخارجية التى يعيش ثم يعود إلى ذاته «لأنه لايعرف الإنسان وأعماقه إلا ذاته» ليرى هل يستطيع أن يوازن

بين متغيرات وخيارات كثيرة تتفق مع قدراته وإمكانياته فالتوازن بين الذاتية والموضوعية من التوازنات الرئيسية ولكنه ليس هو التوازن الوحيد فهناك توازن آخر دقيق الثروة والشهرة والسلطة .

فمن منا لا يسعى لمزيد من الثروة على الرغم من أن مستويات الطموح فى المال متباينة، ولكنها - على أى حال - أحد المحركات الاساسية للحياة، ثم يليها الرغبة فى الحصول على قدر من السلطة، وليست السلطة فى المناصب السياسية وحدها، فإن غفير الدرك فى القرية أو عسكرى المرور الذى يسجل المخالفات يعتبر نفسه «سلطة» وصراف القرية الجابى لمستحقات الدولة هو ممثل للسلطة وضابط النقطة أو مساعد وكيل النيابة فى الاقليم يتصرف وكأنه صاحب سلطان، ومن ثم فالسلطة مطمع لكثرة من البشر، ولكن طموحات السلطة تختلف من إنسان لآخر، وفق القدرات والطموحات، كما أننا جميعا نطمع فى قدر من «الشهرة»، فهى تجسيد رئيسى لتحقيق الذات، ولها أيضا مستوياتها، فكل منا يعمل لأن يكون له سمعة طيبة بين أفراد أسرته أو قريته، وفى المدن يعمل الموظف فى مصلحة حكومية أو العامل فى مصنع لأن يكون معروفا بين أقرانه حتى يؤهل نفسه لدخول الانتخابات النقابية مثلا، والبعض الآخر يتمنى أن ينجح فى الانتخابات المحلية أو مجلس الشعب أو اتحاد البرلمانات العالمى، فكلها شهرة بمستوياتها المختلفة.

وهذا الثلاثى والذى يحسن أن يكون متناغما - يجسد طموحات البشر ويمثل تطلعات مشروعة، ومن ثم فالمال والسلطة والشهرة أمور طبيعية اذا كانت فى حجمها الذى يتفق مع شخصية الانسان، ولذا فهى ليست شرا أو خيراً فى حد ذاتها لو كان الوصول إليها بشكل تدريجى وعلى مراحل إذ يراقبها من هم حولنا حتى يكون نموها مقبولا ودون طفرات، فالثروة التى تهبط بغير تدرج تثير الشكوك والتساؤلات فضلا عن أنها تنمى الحسد والغيرة حتى من أقرب المقربين، كما أن القفز أو الوصول إلى السلطة - وكأنه هبوط عليها بالباراشوت - يفقد المرء التوازن وغالبا ماينتهى إلى الفشل، لأن السلطة مسئولية ولن تكتسب إلا بالمران فتصقل صاحبها وتكسبه من الداخل ثقة فى النفس فيتأنى ويحسب قبل اتخاذ القرار.

والشهرة أيضا فى حاجة إلى التدرج، ومن يحصل عليها دفعة واحدة يصيبه «الدوار» خصوصا اذا جاء ذلك بعد الحصول على كل من المال والسلطة، وعندئذ تتولد «النرجسية» ويسود الغرور وتوجد حالات لأفراد ظهروا الى السطح بسرعة، وبالذات فى حقبة الانفتاح فى مرحلة السبعينات، فحصلت على هذا الثلاثى المال والسلطة والشهرة فى وقت وجيز، ولقد هوى معظمهم بذات السرعة التى تسلقوا أو صعدوا بها، ومن هنا فإن الجمع بين المال والسلطة والشهرة دون تخطيط - واحيانا توفيق - أمر بالغ الصعوبة.

ويندر من فى قدرته التوجه الى السلطة فى بداية رحلة الحياة، كما أن الشهرة - كما يقولون - غالبا ما تأتى مع ظهور الشعر الابيض أى مع تقدم السن والخبرة أى النضوج.

إننا جميعا نسعى فى السنوات الأولى من رحلة الحياة - بعد حقبة التعليم إلى توفير قدر من المال فهو - فى الأغلب الأعم - الدافع لمعظم البشر فى الحركة والعمل والنشاط وحتى التقدم والتفوق العلمى لأن المال عصب الحياة وتوفير قدر معقول منه هو الضمان لتوفير الاحتياجات الاساسية للإنسان، وبعدها تبدأ رحلة الادخار، «**فالقرش الابيض ينفع في اليوم الاسود**» وقد يتحول الادخار إلى «الاكتناز» ويزداد الطموح ليصبح زيادة الرصيد فى البنك هدفا فى حد ذاته وهو أمر غير مستحب، وقد تتولد الرغبة فى تحويل الاموال الى عقارات أو ملكية لارض زراعية، وفى العصر الحديث تتجه الطموحات إلى المضاربة فى البورصة للحصول على مكسب سريع وكثيرا ما تأكل المغامرات - لغير الخبير - رأس المال ذاته وهو أمر شائع فى أمريكا حتى اصبحت اخبار المال تنافس أخبار السياسة وقد يتجه آخر إلى الاستثمار فى مجال الصناعة أو السياحة أو التجارة وقديما قالوا «**لله في خلقه شئون**» فقد يتحول الطمع الى نهم لسرعة الثراء، ولو بطرق غير شريفة فتصدق المقولة بأن «**المال أصل لكل الشرور**».

والانسان الفطن هو الذى ينمى قدراته المالية تدريجيا دون شح أو تقطير لكى يكفل لنفسه ولاسرته معيشة مستقرة حسب احتياجات كل مرحلة مع إحتياطى يضمن الامان ضد الكوارث والمجهول، وعندئذ يتجه الى غرض ونشاط آخر فى الحياة لايتعلق بجمع أو تنمية الثروة وحدها، فالبعض يلتحق بجمعية خيرية أهلية أو منتدى ثقافى أو حزب سياسى، أو ناد رياضى أو حركة دينية، فيجد هناك - وفق ميوله ومواهبه وقدراته وارتباطاته - ما يحقق ذاته فتكون هذه الخطوة هى بداية الطريق الى السلطة أو الشهرة.

وهناك علاقة أكيدة بين السلطة والثروة، فعندما تتحقق الثروة يتجه المرء غالبا للتفكير فى السلطة، وهناك أمثلة كثيرة لافراد وصلوا الى السلطة من خلال الثروة، ولعل أبرز مثال على ذلك الملياردير رجل الاعمال سيلفيو بيرلسكونى والذى سخر أمواله فى الانتخابات فوصل لأن يكون رئيس وزراء ايطاليا، واعتقد كثيرون أنه سيدير الدولة بذات الكفاءة التى ادار بها شركاته، ولكن النجاح فى ادارة الاموال والشركات يختلف عن ادارة الدولة، فإدارة الشركات لها اخلاقيات مرنة ومطاطة واذ يمكن عقد صفقات متبادلة قد لا تكون نقية تماما وقديما قالوا «**التجارة شطارة**» أما القرارات السياسية - وبالذات فى الديمقراطيات الغربية فهى موضع نقد وفحص ورقابة من خلال الصحافة والاحزاب السياسية فى معمعان تداول السلطة، وخصوصا فى

عهد «**المعلوماتية**» والتى تقود الى «**الشفافية**» وبحيث يصعب التعتيم على كل الصفقات والحوارات، ولذلك عندما أدار بيرلسكونى الامور السياسية بطريقة ادارة الشركات وقع فى مطبات برلمانية اضطرته الى الاستقالة.

وفى مصر نجح عبود باشا - قبل ثورة ١٩٥٢ فى إدارة شركات وظلت ثروته تتضخم حتى شبع من كثرة المال فتطلع الى اختراق حاجز السلطة فاخترقت أصابعه حتى أصابته بكل أنواع الاتهامات والتى عبر عنها إحسان عبدالقدوس ببراعة فى روايته «**شيء في صدري**» .

فالوصول الى السلطة من خلال الثروة ممكن ومشروع وبالذات فى المجتمعات الرأسمالية وعلى قمتها أمريكا، على أن العكس صحيح وغير أخلاقى فالوصول الى الثروة من خلال السلطة أمر غير مقبول وهو مايعبر عنه «**بالفساد**» حتى وإن اتخذ طرقا وسبلا مختلفة للتعمية أو التمويه، وكثير من أهل السلطة يتمسكون بها حتى تختفى أخطاؤهم معهم، ومن هنا الحكمة فى تداول السلطة.

وعلى كل منا أن يدرس تركيبته الانسانية ليختار ما يناسبه أى مايتفق مع قدراته وطموحه، ولعل أبلغ مثال يجسد هذه الحقيقة هو الاختيار بين عمل القاضى ومهنة المحاماة، وأشعر بالاختلاف الشديد بينهما من خلال بعض أصدقائى من كبار رجال القضاء

اذ هم يعملون ويكدحون ويسهرون الليالى لكى يدرسوا الأوراق ويفحصوا المستندات قبل أن يصدروا الاحكام فيقيموا العدل، فالقاضى يدرك أن زميله المحامى (والذى يلقبونه بالقضاء الواقف تعويضا لعدم تمتعه بسلطة إصدار الأحكام) يحصل على عائد مادى يقدر - فى القضايا الكبرى - بعشرات وأحيانا مئات المرات لما يتقاضاه القاضى فى سنوات، ولأن القاضى قد اختار مساره فى اتجاه السلطة وآثر أن يقوم بعمل يرضيه ويتفق مع تركيبته الإنسانية والتى تتجه الى الإنصاف والعدالة ثم يقوم بعمله باستمتاع وفى كبرياء، بينما يقف المحامى امامه مترافعا **(وليس بالضرورة مترفعا)** ويحاول جاهدا أن يكسب القضية ، ولذا فمن يكون طموحه زيادة الثروة فى القطاع الخاص أو المهنة عليه إن يكون لديه مواهب وقدرات فى هذا الأمر، أما دون ذلك فخلط للأوراق بين السلطة لأن هناك إجماعاً قيميا عالميا بأن اتخاذ السلطة وصولا للثروة أمر مرفوض من الكافة ولكن للأسف أمر وارد وموجود بل لعله منتشر.

أما الشهرة فقد صارت ادواتها مختلفة عن السابق وحتى منذ نصف قرن مضى، لعل أهم وسائلها المبهرة هو التليفزيون والاذاعة حتى صارت أحد اسباب إحتراق الفراشات التى تقترب منها أكثر من اللازم، لأنها فاضحة للنفس الداخلية مع تعدد الظهور وذلات اللسان، واصبحت صناعة النجوم فى كل مجال من

الفن والرياضة الى الثقافة والسياسة، من أهم أدوات الحكومات، بتركيز الاضواء على المريدين والاتباع وحجبها عن الخصوم والمعارضة، ولسوف تتحرر الجماعات والافراد من الاحتكار الحكومي للتليفزيون مع انتشار استخدام الاطباق المستقبلة للارسال من الاقمار الصناعية.

وكان من نتيجة هذه الادوات الحديثة، أن ضمر تكوين الشخصيات العلمية والادبية ذات الانتاج الرفيع، اكتسب المثقفون سمات أقرب الى السطحية والانتهازية.

وغالبا ما تأتى الشهرة مقرونة بالسلطة، وقليلون يخترقون حاجز الشهرة دون المرور بمرحلة السلطة، ويدحض هذه الظاهرة مسار كاتبنا الشيخ الوقور نجيب محفوظ والذى وصل الى الشهرة العالمية دون المرور بالسلطة، وعندما غمرته الشهرة الفائقة حتى صار ضمير الأمة، لم يصبه الغرور كما يحدث عادة.. بل زادته تواضعا وبساطة فأصبح فى قلب ووجدان كل مصرى وعربى، وعندما حصل على جائزة نوبل كان طلبه من الثروة «**كيس من السوداني**» فأكد على أن المال لم يفسده من الداخل، فأصبح وكأنه من الملائكة وتجاوز البشر.

على أن من يكتسب الشهرة من خلال السلطة دون مقومات ذاتية، غالبا مايتحول الى انسان مغمور بمجرد أن يترك أو يطرد من السلطة، وربما كان ذلك أحد أسباب تمسك بعض الوزراء

بالسلطة الى الحد الذى لايتفق مع الكرامة، لأنهم لايحملون قدرات تمكنهم من استمرار الاستمتاع بالشهرة دون سلطة.

وفى مرحلة ما بعد عام ٢٠٠٠ ستتغير السبل والموازين للحصول على كل من الثروة والسلطة والشهرة فالثروات والأموال لم تعد وطنية محلية بل صارت عالمية تهرب تحت جناح الليل وعن طريق الفاكس من طوكيو إلى نيويورك ، ومن ثم تفقد بريقها ، وستلقى بالشكوك حول الثروات الزائدة، بل لعل أصحابها سيكونون موضع اتهام بدلا من أن يكونوا موضع اهتمام أما السلطة فإنها ستحتاج إلى مقومات ذاتية عالية، فلن يصبح الوصول إلى السلطة من خلال الباراشوت أو من خلال شلة أو بالتقرب إلى الجالس على العرش بل ستحتاج إلى كاريزما لأن السلطة سبيلها هو الديمقراطية وهى فى حاجة إلى شفافية وإبداع.

أما الشهرة فستكون من خلال أعمال فكرية إبداعية عن طريق الفن أو العلم ، ولن تكون قاصرة على السياسة أو السلطة أو اتخاذ القرار ولذلك فإن التوازنات والخيارات فى رحلة الألفية الميلادية الثالثة سيكون لها معايير ومفاهيم غير تلك التى تتعارف عليها القيم الحالية التى تحمل معانى الانتهازية وقنص الفرص .



اكتشاف الأرضية المشتركة وتوسيعها بدلا من استنفار العداء والتباين

كان المؤتمر السابع للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية الذى عقد فى الاسكندرية ، ومن خلال ما قدم من كلمات وشعارات، وما خلقه من مناخ عام بين القيادات الدينية فى العالم الإسلامى، نقطة تحول فى الفكر الدينى. وسيكون لذلك انعكاساته على صورة الإسلام فى العالم الغربى ، ومن ثم تحاشى امتداد وتوسع الصراعات الساخنة فى يوغوسلافيا السابقة وحصرها فى أضيق الحدود. ولكن الأهم من ذلك هو نزع فتيل الكراهية للإسلام والمسلمين فى معظم انحاء أمريكا وأوروبا، ما يخفف من تصاعد «الصراع بين الحضارات» وهى النظرية التى ابتدعها صموئيل هانتجتون وتبناها مفكرون وسياسيون كثيرون يصبون الزيت على النار، بينما آخرون يعملون على إيقاف امتداد ألسنة اللهب بل ربما اطفاء النيران المشتعلة حاليا .

هناك أولا ملاحظات من ناحية الشكل لعل ابرزها اختيار الشعار الذى كان عنوانا للمؤتمر وهو «عطاء الاديان لخدمة الإنسان» . ففى هذا الشعار وربما لأول مرة لا يورد عنوان المؤتمر اسم دين من الأديان، لكى يحل كلمة «الأديان» ثم يضيف أن ما تعطيه هذه الأديان فى مجملها، هو لخدمة الانسان ، أى خدمة البشرية جمعاء، وليس لخدمة المسلمين وحدهم. فكانت هذه البداية مشجعة ومختلفة عن الشعارات فى سنوات سابقة.

ومن ناحية الشكل أيضا لاحظنا أن الرئيس مبارك لم يحضر بنفسه الجلسة الافتتاحية وعهد الى وزير الأوقاف بقراءة كلمته-

المعدة بإتقان مسبقا . ولهذا الأمر دلالته المحلية والاقليمية والعالمية، وهى أن الدولة لم تعد طرفا فى دعم التوجهات الدينية - سواء كانت معتدلة أو غير معتدلة، وان رؤيتها فى هذا الأمر لا تختلف عن إنابة وزير الخارجية أو الزراعة أو الصناعة فى مؤتمرات مماثلة ، فضلا عن أن الدولة منحازة إلى التوجه العالمى وتقدم الوجه الآخر للاسلام، وهذا ما يؤكد عبارات ومفاهيم خطاب الرئيس ذاتها، وسنشير الى ذلك فيما بعد. وليس معنى هذا أن مصر كدولة وحكومة قد صارت توجهاتها «علمانية » أو أنها صارت محايدة بالنسبة للدين عموما والاسلام خصوصا ، مثلما هى الحال وفق الدساتير والممارسات فى معظم دول أوربا الغربية بدرجات متفاوتة فذلك أمر غير ممكن فى إطار المفهوم الثقافى العام فى مصر وفى المنطقة . ولكن هذا يعنى ان الدول بدأت تمسك «العصا من المنتصف» ، كما كانت تفعل منذ ١٩٧٥ . فقد صبرت أو غضت النظر بنفس طويل على حوادث العنف لسنوات طويلة الى ان كانت محاولات الاعتداء على وزيرى الاعلام والداخلية ثم رئيس الوزراء . فشعرت اجهزة الدولة ان التطرف يمسك برموزها القيادية بعد أن أمسك بجمهور الشعب العادى فى قرى ومدن الصعيد ، فضلا عن محاولات قتل السياح الاجانب فى احداث متتالية لايفوت مدلولها أى متابع للامور بعمق .

ومن المؤكد ان حادث الاعتداء على الرئيس مبارك نفسه فى ٢٦ حزيران (يونيو) فى اديس ابابا ومن منطلق ذاتى وموضوعى

معا ، قد ادى الى استقطاب ووضوح رؤية فى سياسة الحكومة واصبحت توجيهاتها الفكرية والايديولوجية اكثر تحديدا ، وهو الامر الذى سلكه الحوار والتوجه فى هذا المؤتمر المهم . ومن المتوقع ان تستمر الحكومة فى هذا التوجه الجديد من اجل سلامتها .

وما استوقف نظرى فى الخطاب الافتتاحى للرئيس ، والذى لم يلقه الرئيس كما سبق الذكر عبارات واضحة تربط الحضارة الفرعونية بالفكرة الدينية الحديثة ، وهو توجه جديد تماما - ولطالما ناديت به - وكان يقاوم بشدة من التيار الاصولى الذى كان يتوهم ان الحضارة الواردة من الحقبة الفرعونية تناظر ما كان فى الجزيرة العربية فى حقبة الجاهلية ، أى انها تناظر عبادة الاوثان ، بينما ترى غالبية من المثقفين ان مصر بحضارتها وتراثها اول من نادى بوجود الثواب والعقاب من خلال آثار كثيرة لعل أبرزها صورة الميزان وجلسة المحاسبة بخصوص الآلهة فى وثيقة كتاب «كتاب الموتى» الشهيرة ، وكيف ان هناك حياة أخرى بعد الموت ، ومن ثم كان التحنيط وحفظ الاطعمة فى المقابر ، كما هو معروف ، احدى سمات الحضارة الفرعونية . ويذهب كثيرون بمن فيهم جيمس هنرى بريستد الى ان الفراعنة كانوا الاساس الاخلاقى فى الوعى الدينى الذى ما لبث ان ساد الشرق الاوسط .

قال الرئيس : كانت مصر أول مكان فى ارض الله انتمى اهلها الى الله وعرفوا الاديان قبل الزمان بزمان ، واقام فراعنتها

الاهرام كى تحفظ فيها اجسادهم فى انتظار البعث والحساب بين يدى الله بل هى الدولة الاولى في تاريخ البشرية التى أعلنت التوحيد على يد اخناتون. وهذه العبارات بإلقائها فى «المؤتمر السابع للمجلس الاعلى للشئون الاسلامية» مسألة لها مدلولتها الثقافية وتعبر عن دخول الدولة فى الصراع الفكرى الدينى من منطلق جديد .

ومن دون ان يكون هناك أى اتفاق مسبق فيما اتصور ، وردت فى خطاب الانبا شنودة هذه العبارات «ان علاقات المسلمين بالاقباط متعاضدة وليست متعارضة ، متعاونة وليست متفرقة ، متساندة وليست متباعدة ، لاننا لو ركزنا على خلافاتنا العقائدية لضعفت علاقاتنا بانفسنا وبالله ، ولو ركزنا على نقاط التلاقى لتعاوننا جميعا لصالح البشرية ولصالح بلادنا» .

وهكذا يتضح أن هذا المؤتمر فيه طرح ثقافى جديد لان الاسلام - كدين - يحمل قيما انسانية رفيعة ، ولديه كم من النصوص والتاريخ والتراث عبر أربعة عشر قرنا طويلة شاهدت - كأى حضارة وتراث - مراحل تقدم وانتشار. كما شاهدت مراحل ضمور ورجوع الى الوراء . ومن أبرز عناصر قوته فى مصر ، مثل اديان أخرى مرت بها، امتزاجه بالحضارات التى اختلط بها أو حتى قهرها فالمسيحية مثلا، لها نماذج أصبحت معروفة بالنمط الغربى ممثلا فى الكاثوليكية والبروتستانتية ، ثم النمط الشرقى،

ثم فرق أخرى امتزجت بآسيا وحتى بافريقيا ، وكذلك الاسلام قدم ألوانا من الثقافة من خلال الاجتهادات لمواجهة مشاكل العصر ، وهى متغيرات لها محدداتها التى تختلف بحكم المكان والزمان.

فى هذا الاطار استطيع كمصرى منتم الى التراث القبطى أن أقر بان فى مصر اسلاما متأثرا بكل الحضارات السابقة التى مرت بمصر ، ويمكن أن يلمس ذلك أى دارس لتاريخها وللممارسات الجنائزية واحتفالات اعياد الميلاد وحفلة السبوع (أى مضى سبعة أيام على وصول المولود الرضيع) وعوائد احتفالات الزواج ورش الملح والشمع وربط رداء العروسين بخيط رفيع، وصولا الى الأعياد الدينية ذاتها حيث يشترك كل من المسلمين والاقباط فى الاحتفال بصلاة العيد فى الليل أو فى الفجر بتقديم «الكعك» والذى يبدو أنه – وفق ما اكتشف فى مقابر الفراعنة – من ممارسات قدماء المصريين ، والمسلمون فى الاحتفالات (بالموالد) بكل من مشايخ الإسلام وربما قديسى المسيحية (وكلهم شهداء من أجل الديانة) بالطريقة ذاتها، ويعود ذلك فيما أعتقد الى أيام قدماء المصريين والذين كان لديهم إله لكل اقليم يتشفعون له. وحتى احتفال المولد النبوى يتم الاحتفال به فى مصر بطبخ الحلوى والتى يصبغونها على شكل «عروسة المولد» وهو مطلب كل فتاة صغيرة، من فقراء الريف الى أثرياء المدينة، كل حسب ثرائه

ومقدرته المالية. ثم هناك الفوانيس فى رمضان وغير ذلك من أمور تتطابق أو تتشابه بين كل أفراد الشعب المصرى من الديانتين .

ان هذا النموذج المصرى - الذى عاش وقاوم قرون التخلف فى العصور الوسطى - ليدل على أن الإسلام فى مصر ثقافيا وحضاريا يقف مع المسيحية القبطية ، أى المصرية ، على أساسات واحدة هى الحضارة الفرعونية القديمة التى تمتد لنحو ثلاثة آلاف سنة من التاريخ المكتوب قبل الميلاد

وهكذا بمجئ هذا الاحتفال السنوى المهم لمؤتمر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - وهو هيئة دينية فى المقام الأول - يتقدم فكر دينى اسلامى مقبول من الكل لأنه مصرى يواجه الحجج المستفزة التى بثها الدكتور صموئيل هانتجتون حيث أشاع فكرة الصراع بين الإسلام والغرب، وهى الفكرة التى تتبناها هيئات غربية عديدة، وفى ضوئها يتم اضطهاد المسلمين والعرب المقيمين فى بلدان أوروبا وأمريكا ، وهذا أمر لابد لنا من التصدى له ليس دفاعا عن الاسلام ولكن حماية للإنسانية ونزعا لفتيل الكراهية والتعصب

ولقد حاولت منظمة اليونسكو أن تجعل من عام ١٩٩٥ عاما للتسامح ونشر قيم «قبول الآخر» من منطلق أن أحداً منا لم يختر لون بشرته أو العقيدة الدينية أو المذهب الذى ينتمى إليه ، وهذه مفاهيم بسيطة مبدئية تقتنع بها ملايين من البشر من كل الحضارات، ومن ثم فان الغرب ليس كله ضد الاسلام كما يتوهم

ويدعو البعض، بل هناك قوى متوارثة (فى عالم السياسة والثقافة) تنشر فكرة قبول الأمير تشارلز ولى عهد بريطانيا خير مثال واضح، وعلينا نحن فى العالم العربى والاسلامى أن نكون فكرا مستنيرا جديدا لنكشف أننا والغرب وكل الحضارات ، تقف على أرضية مشتركة هى الإنسانية والتقدم، وأن يكون السباق وهو فى المباراة فى مجال العلوم والتكنولوچيا وما إليها .

إن التراث المصرى فى هذه الخصوصية له ابعاده التاريخية ومرتكزاته الفكرية والثقافية الشرقية. بجوار الإسلام المصرى الوطنى طوال هذه القرون دون صعوبات تذكر، وذلك قبل أن تكتشف أمريكا أو تظهر للوجود مواثيق وعهود حقوق الإنسان أو قضايا الاقليات . والفكرة المحورية لهذه المعايشة تكمن فى البحث عن الارضية المشتركة واجتناب نقط الخلاف والصراع .



من ثقافة «التلقين» إلى ثقافة «الحوار»

إن الأمر يستدعي أن نخطط برفق وإصرار ومثابرة لتحويل ثقافة «التلقين» التي سادت مصر - ربما لآلاف السنين - لننتقل بها تدريجيا وفي رفعة إلى ثقافة «الحوار» لأن ذلك هو الركيزة الفكرية لممارسات المشاركة من خلال قبول الآخر، وبعدها ستفرض «الديمقراطية» نفسها كاملة ، ومن خلال هذه الآلية ستنطلق الطاقات الخلاقة الكامنة عبر تراث «رقائق الحضارات» التي تراكمت عبر التاريخ وتجد القنوات الطبيعية للتعبير عن نفسها ثم تنميتها فكلنا يشكو من أن كبتها قد أوصلنا إلى «بثور» التطرف تعبيرا غير صحي عن طاقات مكبوتة ترغب في الانطلاق.

فالمكون الثقافي المصري ومنذ عصور الفراعنة - يعتمد أكثر ما يعتمد - على التلقين أي «المنولوج» وليس «الديالوج» فالفكر والعقيدة والقرارات وحتى التشريعات تأتي دائما من اتجاه واحد من أعلى إلى أسفل، من كبير السن إلى صغير السن ، ومن العمدة إلى الفلاح ، ومن الوزير إلى الموظف والغفير ، فعندما يقرر «فرعون» «يتحرك الكهنة» وهم مثقفو الأزمنة القديمة ولهم ما يناظرهم ليقننوا ويشرحوا ويقنعوا الصناع والعمال والشعب، وعندئذ تظهر الإبداعات والمهارات الفنية للحرفيين لتصنيع كل رغبات وتوجهات فرعون في شكل هرم أو معبد أو تمثال أو تنظيم حشد لمقاومة فيضان أو شق ترعة أو بناء قنطرة أو تحنيط جسد لعظيم أو إمرار قانون في منتصف الليل .

ودون الخوض في تاريخ مصر كله عبر عصوره المتباينة الطويلة ، فإن ثقافة التلقين تبدأ داخل الأسرة الصغيرة أو الممتدة الكبيرة فلا مازلنا نعيش ثقافة «المجتمع الأبوى» وقد صيغت فى مقولة «واللى مالوش كبير يشترى له كبير» وقد استفاد السادات من هذا المفهوم الثقافى المصرى ، فنصب نفسه - دون قرار - رب العائلة المصرية وكان يشعر أنه شخصيا كبير العائلة المصرية ومن عارضه فقد خرج على إجماع الأسرة المصرية وهو مفهوم ينحو إلى الفاشية وقد أوصلنا وأوصله إلى ما حدث فى ٦ أكتوبر ١٩٨١ .

فالأب داخل الاسرة يتصور أنه هو وحده صاحب القرار وأدرى بمصالح الأسرة وغالبا ما يتخذ القرار بعد أن يخلو لنفسه وقد يتحاور مع أقرانه ولكنه نادرا ما يشارك زوجته ويكتفى بأن يعطيها الحق في أن تكون «وزيرة المالية» لتصرف شئون الحياة اليومية ، وهكذا حفرت شخصية «سى السيد» والتى رسمها بإتقان وإقتدار الكاتب العملاق نجيب محفوظ وجسدها الفنان الراحل يحيى شاهين لكى تعبر عن واقع الحياة الأسرية فى الحضر للطبقات الثرية والمتوسطة ، ولعل الطبقات الفقيرة تحذو حذوها .

ومع التقدم الثقافى ورقى المعارف والانفتاح على حضارات أخرى أخذت بعض العائلات بأساليب الحوار فى اتخاذ القرار ومع تعليم

المرأة أصبحت الزوجة مشاركة للرجل فى تصريف أمور الأسرة واتجه كثيرون لفتح الحوار مع الأبناء والبنات وقديما قال الجدود «إن كبر ابنك خاويه» أى ، اتخذه أخا صديقا ومحاورا ، وفى بحر النصف الأخير من القرن العشرين زادت فكرة الحوار والمشاركة فى اتخاذ القرار داخل الأسرة ولم يعد الأب قادرا على أن يفرض رأيه فى قضايا زواج أولاده وبناته كما كان الحال سابقا واتجهت بعض العائلات المتحضرة إلى فكرة عقد اجتماع للأسرة عند كل منعطف مهم لاتخاذ قرارات تؤثر على كيان الأسرة كلها وهذا المناخ الجديد يدعو للتفاؤل من ثم فليس من سبيل لتنمية ثقافة الحوار على مستوى الوطن ما لم تتم وتتدعم مفاهيم وممارسات الحوار والمشاركة داخل الأسرة أولا .

ثم تؤثر مرحلة التعليم على التكوين النفسى للفرد ، فالتعليم يرتكز – وبدرجات متفاوتة – على التلقين ، وأن العلم والمعرفة والحكمة كلها فى حوزة المدرس وأن الطالب ما هو إلا متلق فقط ثم انتشرت عبارات دينية كهنوتية لتتحول إلى قيم ومفاهيم تحمل مقولات شهيرة وهى أنه : «على أن ابن الطاعة تحل البركة» ثم تتحول الطاعة إلى خضوع ويتحول الخضوع فى أحوال كثيرة إلى خنوع ، ولا عجب إن سادت السلبية فى انتظار التوجيه[1] . من أعلى

إن الطفــل قــد تعـود التلقين والتـوجيـه مـن المدرس ، وبذات الفـهم تعـود المدرس أن ينتظر النصــائح من «الموجـه» ثم ينتظر «الموجــه» تعليـمــات «مـدير المنطقـة» والذى يتلقى المنشـورات والتعليمـــات من الوزارة ...

ومن المؤثرات على الفرد العادى المصرى ما يصـغى إليه من خلال الوعظ والارشاد فى دور العبادة – على أنواعها – فمعظمـها يعتمد على التلقين وبالتالى فان المناخ الدينى السائد هو تجسيد لثقافة التلقين بل لعله فى معظم الاحيان يقاوم ثقافة الحوار وهو أمر عانيت منه شخصيا ، فما أن ناقشت رأيا سياسيا لقيادة دينية حتى فتحت تلك القيادة نيرانها وأذنابها لأن تلك القيادة لا تعرف ثقافة الحوار بل تتعايش مع سياسة التلقين وتدعمها لأنها مصدر قوتها ونفوذها .

كلها مسلسل التلقين من أعلى إلى أسفل وتنتقل ذات المفاهيم إلى مواقع مختلفة ، ويفقد المجتمع آلية «التصحيح الذاتى» لأن القرارات ليست نتيجة حوار أو مشاركة وهو أمر فى حاجة إلى تغيير فى المفاهيم الثقافية ، ولذا «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» .

وبذات المفهوم لثقافة التلقين فى الأسرة ، نجد الأب أو الأم تلاحق الطفل والصبى والشاب وتضغط عليه بالمذاكرة أى حشد «الذاكرة» أو الحفظ عن ظهر قلب لكل مــا يتلقنه عن طريق كـتب الوزارة

«المقررة» ، وأصبح أهم ما فى تعليم اللغة العربية هو «المحفوظات» وليس تذوق القيم البلاغية لهذه اللغة الثرية فى الألفاظ والمعانى والمفاهيم ، وكانت نتيجة كل ذلك هى سيادة الموروث والنصوص ومن ثم كان الطريق ممهداً للفكر السلفى لأننا كمجتمع لم نعمل على تنمية ملكات الإبداع والنقد والتطور من خلال الثقافة العامة والفكر العلمى .

ويحاول الصديق د حسين كامل بهاء الدين وزير التعليم جاهدا تغيير هذه المفاهيم ، بتعديل مناهج التعليم وإدخال نشاط «المناظرات» تجسيدا لمبدأ «الحوارات» وكيف أن العديد من القضايا تتحمل الخلاف فى الرأى ، لأن أحدا لا يحتكر الحكمة وحده وأن التنوع ظاهرة كونية وأن الجمال هو فى تباين .

ومن أهم الكيانات التى كان ينبغى أن تبنى على أساس «الحوار» هى الأحزاب السياسية والمؤسسات الدينية والجمعيات الأهلية غير الحكومية والجامعات وما إليها وإذا بها تتحول فى مجملها إلى تنظيمات للتلقين بدعوى الانضباط الداخلى لأنها تأثرت بالمناخ الحضارى العام للمجتمع .

إن الأحزاب السياسية فى كل بلدان العالم الديمقراطى هى «المفرخة» الطبيعية للقيادات السياسية للمجتمع ، ويتم التعرف على الشخصيات القيادية من جيل أكبر إلى جيل أصغر سنا من خلال الجلسات الخاصة والعامة داخل حركة الحزب أى

من خلال الحوار الذى يظهر الملكات والقدرات، وهو أمر نلمســـه فى التغيرات المتعـــاقبة فى الأحزاب من أمريكا وإنجلترا غـــربا إلى اليـــابان والهنـــد شرقا بينما تستمر ذات الوحدة الكالحة فى مواقعها جيلا بعد جيل دون تغيير إلا بالرحيل الأخير المحتوم وهى ظاهرة مصرية ليست قاصرة على حزب الحكومة وحده

وفى مـصـر لدينا عـدد من الأحـزاب السـيـاسـيـة تحـولت إلى كـيـانات ديكورية وكـأنهـا أجـسـاد بلا روح ، فـقـد صـارت بـالفـعل تنظيـمات وهياكل فوقيـة دون تفاعل إنسانى من خلال الحوارات وتبادل الرأى داخل اللجان ، ومـا ينطبق على الاحزاب السيـاسـيـة ينطبق على كل مؤسساتنا الأخرى .

إننا نتـحـدث كثيـرا عن الديمقراطيـة ، وتعديل الدسـتـور ومنح فـرص أوسع لقيـام الأحـزاب دون التـقـيـد بأحكام قـانون إنشـاء الأحـزاب ، ثم نطالب كـثـيـرا بـأن تكون مـواقع القـيـادات فى المحافظات والمدن عن طريق الانتخابات مثلما هو الحـال - وكمـا نسمع كل يوم - فى كل أقاليم أوروبا وأمريكا وحتى الهند وقبرص ومـالطا ، ولكن كل ذلك لا أراه قـريب الحـدوث فى مـصـر ، لأننا كشـعب لم نطالب ونمارس بثقافـة الحوار بدلا من ثقافـة التلقين والتى أراها للأســف الشـــديد مقبـولة وســائدة إلـــى ما بعد عام ٢٠٠٠ .



وأخيرا التقى الغرب بالشرق

منذ أن أطلق الكاتب والمفكر الإنجليزى جوزيف دورياد كيبلنج (Kipling) (١٨٦٥ - ١٩٣٦) بيت الشعر المعروف الذى يحمل معنى أن «الشرق شرق والغرب غرب ، وهما ثقافتان ومفاهيم لن يلتقيا» نقول أخذت هذه العبارة مصداقية شهرة فاقت حجم مؤلفها ، وذلك فى كل من الشرق والغرب على حد سواء .

ولم تأت هذه المقولة من فراغ ، فقد ولد كيبلنج فى بومباى فى الهند من أسرة إنجليزية ، لكنه تعلم وتربى فى انجلترا ، ثم ظل يتنقل بين انجلترا غربا والهند شرقاً فكتب إبداعاته التى استحق عليها جائزة نوبل عام ١٩٠٧ ، ونشرت أعماله الكاملة فى ٣٥ مجلدا عام ١٩٤١ لتحمل بين دفتيها تراث الشعر والقصة القصيرة والأدب ، وذهب كل ذلك فى جوف الزمن وبقيت مقولته الشهيرة تتناقلها الأجيال .

منذ منتصف القرن الماضى ، استمر مفكرو الغرب فى ذات التوجهات السياسية التى تحكمها المصالح الاقتصادية بعقلية باردة ، لذا كان مبدأ وتكريس فصل شئون الدين عن الدنيا ، وأزاحوا الروحانيات جانبا وتحجم أو ضمر دور الكنائس وصار روادها من كبار السن ، وتحولت المؤسسات الدينية لتؤدى أساسا وظيفتها الرسمية كجزء من أجهزة الدولة وتراث المجتمع .

وفى الوقت ذاته استمر الغرب فى التقدم العلمى وطور الصناعات من خلال التطبيقات التكنولوجية ، واتجه رأس المال

الذى تراكم من خيرات الشرق إلى الإنتاج الوفير الذى يغذى طموحات وتطلعات البشر ، ليس فى سوق الغرب وحدها وإنما أقبل على منتجات الغرب أهل الشرق ، فاقروا بذلك ضمنيا بتفوق الغرب فى الأمور المادية ، وفى المقابل عزوا أنفسهم بأنهم (أى أهل الشرق) لديهم راحة البال والاستمتاع بالدفء الأسرى والمظلة الروحية الدينية وتوجوا ذلك كله بأن القناعة كنز لا يفنى .

ولأن الغرب يحمل قيم الديمقراطية التى تقود إلى «الشفافية» ، فقد اعترف وشكى فى العلن أن مجتمعه قد أصابته أمراض اجتماعية نتيجة اختلال التوازن الداخلى للإنسان ، لأنه فقد الاهتمام بالجانب الوجدانى أى الروحى معتمدا فقط على سيادة العقل ، لذا ضاع الشباب والأبناء نتيجة قيم الزيجات غير الشرعية ، بل وصل الأمر إلى حد الإعلان أخيراً عن زيجات شرعية قانونية وأحيانا كنسية ، لكنها من ذات الجنس ، أى بين ذكرين أو انثيين ، ثم تعرضت فوق كل ذلك لمشكلات انتشار المخدرات وأمراض الايدز نتيجة الانغماس فى الشهوات الجسدية وحدها . وصرنا نتساءل أيهما أسعد للإنسان ونقارن بين طاحونة الحياة المادية فى الغرب أن ينعم الانسان بالاسترخاء ومظلة الروحانيات فى الشرق ؟

□□□

وعاش العالم مرحلة الاستقلال الوطنى لنحو قرن أو يزيد .

وكانت كل الدول المستعمرة (بكسر الميم) في أوروبا الغربية ، وكانت معظم الدول المستعمرة (بفتح الميم) منتمية للشرق ، الذى أطلقوا هم عليه الشرق الأقصى أو الأوسط أو الأدنى ، لكنه كله شرق من فيتنام إلى الهند إلى مصر إلى الجزائر ، وتصادف فى حركة الدول والشعوب من أجل الاستقلال أن جاءها الدعم من القصب المقابل فى الاتحاد السوفيتى ، ولعل أبرز مثال لذلك ما نعرفه وعشناه من هذه العلاقة الحميمة بين مصر والاتحاد السوفيتى فى حقبة الخمسينات وما بعدها ، ولم نكن ندرى - وقتها - أن هذا الانحياز يتضمن اتفاقا مع مقولة كيبلنج ، فتجمعت الانتماءات الأيدلوجية مع الانتماءات الجغرافية وكرست الحرب الباردة وحركة عدم الانحياز هذا الشرخ بين الشرق والغرب وكان هذا الفاصل الذى أسموه فى الغرب بالستار الحديدى ، وتجسد ذلك فى تحطيم حائط برلين عام ١٩٨٩ بين الشرق والغرب فى أوروبا ، ثم جاءت زيارة كبير أساقفة «كنتربيرى» لتعبر عن إمكانية التواصل بين الشرق العربى الإسلامى وبين الغرب الانجلوساكسونى المسيحى فى خلال الأسبوع الأول من اكتوبر ١٩٩٥ ، بزيارته لمصر وإلقائه محاضرة فى الأزهر ، ثم زيارته التى تلتها إلى السودان ومقابلة للشيخ الترابى على الرغم من الفارق الكبير بين الزيارتين .

على أن هذه الفرقة بين الشرق والغرب ، ليست وليدة القرن التاسع عشر وحقبة التوسع الاستعماري وإنما هى أمر يعود إلى صراعات متتالية ظهرت خلال الالفية الميلادية الأولى ، أي مع ظهور المسيحية إلى أن كان الانشقاق في العقيدة بين مجمل الكنائس الشرقية المسماة بالارثوذكسية ثم الكنيسة الغربية ممثلة أول الأمر فى الامبراطورية البيزنطية ثم مع الكنيسة الكاثوليكية فى روما فيما بعد .

وفى القرن السابع ومع ظهور الإسلام ، بدأ الصراع بين الشرق والغرب ، ومع الألفية الميلادية الثانية شن الغرب «المسيحى» حربه «الصليبية» ضد «الشرق» .

وطوال هذه القرون كان ميدان الصراعات والحروب والغزوات فى مجمل الدول المطلة على البحر المتوسط ثم كان أن حقق «الغرب» انتصاره على الشرق فعادت اسبانيا (وهى فى أقصى الغرب أيضا) لتكون معقل الكثلكة ، وفى المقابل حقق «الشرق» انتصارا ضخما فى قلعة الامبراطورية البيزنطية القديمة فى آسيا الصغرى ، وتحولت لتكون مركز الخلافة العثمانية .

وهكذا جاءت مقولة كيبلنج لتؤكد أن الفرقة والصراع بين الشرق والغرب ليست وليدة اليوم ، لكن لها عمقها التاريخى ، فهل يا ترى يمكن أن تتغير هذه المفاهيم لمناسبة أننا قرب نهاية عام

١٩٩٥ الذى أعلنته هيئة اليونسكو ليكون عام التسامح الدولى عن طريق قبول الآخر .

□□□

أصل من كل هذا إلى مربط الفرس ، لكى أطرح مقولات مختارة جاءت فى خطاب رئيس أو كبير أساقفة «كنتربيرى» ، (وهى الكنيسة الانجليكانية ذات النفوذ التاريخى فى انجلترا بالتحديد ، وهى تختلف عن كل من الكنيسة الكاثوليكية ذات النفوذ العالمى ومركزها روما كما هو معروف أو عن كنيسة اسكتلندا) ، لذا فلها موقع خاص فى العالم المسيحى ، ومن ثم فهى مؤهلة ثقافيا وعقائديا للحوار مع المؤسسة المقابلة فى مصر وهى جامعة الأزهر ، ذات الانفتاح «الوسطى» فى العالم الإسلامى ، لذا فإن لهذا اللقاء أهميته الخاصة إذا كانت رؤية المثقفين له كأنه جسر ولقاء بين الشرق والغرب ، وإذا تمت متابعته بلقاءات وتنظيمات تستمر فى فتح قنوات الحوار بين الشرق والغرب ، والذى يمكن أن يكون دينيا أول الأمر ثم يتطور ليكون ثقافياً وإنسانيا وفق معطيات العصر . كان خطاب د . جورج كيرى – كرأس للكنيسة الانجليكانية – دسما وعميقا ، اكتفى أن أعرض بعضا من فقراته المهمة التى تتسم بالصراحة وفتح قنوات التواصل ، قال :

أولا : عبارات تقيم جسور الحوار

* إن إتاحة الفرصة لى لإلقاء محاضرة مهمة فى جامعة الأزهر لشرف كبير يعتز به كل مسيحى .

* لقد أدى كل من الإسلام والمسيحية مآثر جليلة للمجتمعات الإنسانية عن طريق التعليم والتكافل الاجتماعى وزرع القيم الأخلاقية السامية من أجل خير البشرية .

* بدون سلام بين الأديان ستكون هناك حرب بين الحضارات.

* لا سلام بين الأديان بدون حوار بينها .

* لا حوار بين الأديان بدون البحث فى أسسها .

ثانيا   الأرضية المشتركة

* إن الأديان عامة ورجال الدين خاصة يحملون على عاتقهم مسئولية عظيمة تجاه هذا العالم ، نحن فى حاجة إلى رسم طرق جديدة للتعاون والسلام المبنيين على الفهم والنوايا الصادقة ، فهناك اختلافات بين الأديان يجب عدم إنكارها ، ولكن هناك تفاهماً واتفاقاً أكبر مما نعتقد فى بعض الأحيان ، فهناك إلتزام مشترك نحو صراع الإنسانية ضد قوى الشر والفقر والمرض . فكل من المسيحية والإسلام يحث اتباعه على أن يكونوا أعضاء نافعين وجيرانا متعاونين والالتزام بعدم إيذاء مشاعر الود والاهتمام تجاه الآخرين .

* إننى سعيد بتعاون وكالة الإغاثة الإسلامية مع المعونة المسيحية بمجهود مشترك فى البوسنة .

* إن المشاكل الإنسانية مثل الفقر والشقاء الإنسانى ، تقف قدراتنا الفردية عاجزة عن حلها لكن لكل من عقيدتينا تراثا طويلاً فى التكامل الاجتماعى .

ثالثا : تجاوز الماضى والاعتذار عنه

* لا يشعر أى مسيحى فى الوقت الحاضر بالرضا عن الطريقة التى اتبعها أسلافنا فى حسم الصراعات ، فقد تسبب الصليبيون فى إحداث آثار جسيمة فى علاقات المسيحيين ببعضهم وعلاقاتهم بالمسلمين ، وهناك الكثير الذى ينبغى أن نعتذر عنه .

رابعا : تشخيص الأزمة الراهنة

* إن مسائل الفقر واليأس يتم إقحامها فى مسائل العقيدة ، فيظهر الوجه القاتم فى تلك المناطق من العالم (لم يحدد تلك المناطق لأنه يود أن يبنى جسور الحوار والسماحة) التى يتم فيها إخراس صوت الإيمان العقلانى الهادئ (ولعله يجد فى مشيخة الأزهر ودار الافتاء هذا الصوت) لتعلو عليه صرخات التعصب والجهل ، فيحدث أحيانا أن تستغل فئة من المضللين عدم فهم أو تخوف تجمعات عقائدية معبية عن سوء قصد ليحل العنف والقتل محل الحوار الصريح والسلوك الحضارى (أعتقد أنها عبارات منتقاة بعناية شديدة للتفرقة بين صحيح الدين وبين التعصب الذى يقود إلى العنف والقتل ، لذا جاءت تصريحاته أثناء زيارته للسودان مختلفة تماماً فى ألفاظها وروحها ومضمونها عن هذه المحاضرة التى ألقيت فى الأزهر حيث السماحة المقابلة) .

* لقد تكلمت كداعية مسيحى مخلص لدعوة المسيح ، ولكننى تكلمت أيضا كإنسان ، تعلم على مدار السنين أن يقدر ويشعر

بالإكبار نحـــو الكثير من معتقدات المجتمعات الدينية المخالفة له في العقيدة.

* إنني مـقتنع تمامـا بحيـوية دور الدين كـجزء أسـاسي في السعي نحو السلام والنظام والتآلف بين الأمم .

* نحن مطالبـون بوضـع أسس الحـوار بين الأديان والعــمل المشـترك من أجل الأجيـال التي لم تولد بعد لكي تعيش يومـا مـا (أي أنه واقعي لا يشعر أن الحوار سيحل المشاكل العام القادم أو في غـضـون سنوات قليلة) في عـالم يسـوده السـلام والتسـامح الحـقيقي والفهم المتبـادل والتعـاون فيـتعـايش من خـلال كل ذلك الإسلام والمسيحية .

□□□

إن العـالم يمر الآن بمرحلة دقـيقـة من تاريخـه ، حيث أوجدت ثورة الاتصـالات بما تشمل من اعلام وتنقلات وزخم من المؤتمرات والندوات والمقـابلات ، لكي تبني جـسور الاتصـال بين الثقـافـات والحضـارات في جـميع المجـالات السيـاسيـة والفكرية والعلميـة والتكنولوجية وغيرهـا .

وفي ضوء اختفاء الأيديولوجية الماركسية ووجود فراغ فكري ، وفي ضوء أن آليات السوق وحدهـا لا تشفي غليل الإنسان ولا تقدم الوجبات الروحية والوجدانية التي توفر للإنسان استقراره النفسي وتوازنه العقلي ، لذلك برز دور المؤسسـات الدينيـة على مستوى

العالم بعد أن كان قد ضمر فى حقبة الحرب الباردة ، وفى هذا الإطار ينقسم الفكر الدينى إلى نوعين رئيسيين ، الأول يسعى إلى التعرف على الأرضية المشتركة وينسى الجروح التاريخية التى تمت بالفعل نتيجة أخطاء أجيال مضت وانتهت وصارت تاريخاً ، ليس من مصلحة أحد إثارتها بفتح جروح قد اندملت ، فمن المؤكد أنه يوجد لدى كل بشر عواطف خيرة يمكن أن تجمع فيلتف الناس حول أغراض نبيلة مقرونة بقيم أخلاقية راقية مستمدة من النصوص الدينية وهى جزء من التراث الإنسانى كله .

وهناك جزء آخر من البشر ليس لديه اتساع فى المفهوم الثقافى فيزكى نار الأحقاد القديمة ، وهو قادر على أن يستثير حماس الشباب مستغلا وجود بعض أمراض اجتماعية ليست لها علاقة بالدين . بل هى من أخطاء التخطيط الاقتصادى مثل البطالة والفقر والتشرد والضياع وما إليها .

وفى هذا الإطار تجئ معظم العبارات التى وردت فى خطاب د.جورج كيرى مملوءة بالحكمة والتعقل والفهم ومعبرة - بصراحة ودون مواربة - عن روح الفريق الأول الذى يبغى الخير العام ويعترف بأخطاء الماضى ويدرك معطيات العصر ويستشرف المستقبل .

وأجد فى خطاب فضيلة الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر ذات المعانى والمفاهيم إذ يقول . إن الإسلام هو أكبر دعوة

للسلم والأمن سلام الإنسان مع الله وسلامه مع نفسه ومجتمعه ، وأن الأديان السماوية كلها تدعو إلى تحقيق السلام والأمن بين أبناء الأسرة البشرية كلها

□□□

وفى زيارتى الأخيرة إلى لندن - بترتيب من الخارجية البريطانية - تقابلت مع كل من الكانون كولن فلتشر سكرتير الكنيسة الانجليكانية للشئون المسكونية (وهى وظيفة تناظر مسئول الشئون الخارجية) وبرفقته مساعده الدكتور ريتشارد مارش ، وكان حوارا مثمرا صريحا عن الأوضاع والصراعات الدينية فى العالم ، شعرت خلاله بذات التوجهات والمفاهيم بالفعل التى وردت فى خطاب رئيس الكنيسة د . كيرى ، كما لاحظت أن العالم صار بالفعل كرة صغيرة ، حيث يتم تبادل المعلومات والبيانات بسرعة وبشفافية لم تكن متاحة منذ سنوات قليلة مضت .

دعنا نأمل أن تكون هذه الزيارة السريعة الخاطفة لرئيس أساقفة انجلترا وخطابه الجيد فى جامعة الأزهر ، سبيلا لبناء جسور تزداد قوة ومتانة مع الزمن ، وتكون رصيدا من الصداقة والفهم بين الشرق والغرب ، يتراكم مع زيارة سابقة قام بها د. محمد سيد طنطاوى مفتى الديار المصرية وبرفقته د . صموئيل حبيب رئيس الأقباط الانجيليين ، فكلها رحلات خير تقرب بين الأديان ، ومن ثم نتحاشى الصدام بين الحضارات إلى أن نبنى الود والفهم فى مرحلة قادمة بإذن الله .



التسامح وقبول الآخر قضية ثقافية تنويرية

عندما انعقدت الجمعية العمومية للأمم المتحدة فى دورة عام ١٩٩٣ لاحظ ممثلو الدول الأعضاء ان الصورة الوردية التى رسمها الرئيس بوش عن الرخاء والسلام الذى سيعم العالم فيما أسماه «النظام العالمى الجديد» قد تبخرت وحل بدلا منها حالة عامة سادت العالم كآبة وإحباط نتيجة للصراعات والحروب الأهلية بحيث تراجع كثيرون وأعتقد ان شرور الحرب الباردة كانت أهون وأخف "

وهكذا قررت الجمعية العمومية أن يكون عام ١٩٩٥ مخصص ليكون «عام التسامح الدولى» ، YEAR OF (*)TOLERANCE ولكن فى تسارع الأحداث والحروب الأهلية وزحمة المؤتمرات الدولية والاقليمية والمحلية ، غفل الناس عن قرار الامم المتحدة وقد دهشت ان الصحافة المصرية – وحتى العربية – لم تبرز هذه القضية بالقدر المطلوب ومات عام التسامح الدولى قبل ان يعطى فرحة الانتشار

ومع تزايد القتال فى البوسنة والهرسك من سنوات كان ان قتل عدد من الصحفيين والمصوريين الذين كانوا يتابعون هذه الأحداث ، وهم ليسوا طرفا فى هذا النزاع – فقام مسيو فيديريكو ماير المدير العام لمنظمة اليونسكو فى ٣ مايو عام ١٩٩٤ ، بزيارة سراييفو وازاح

---

* وجدت صعوبة فى إيجاد كلمة عربية واحدة تناظر كلمة Tolerance ، وكلمة التسامح وحدها لا تعطى ذات المعنى ، والكلمة الانجليزية مستخدمة وشائعة بين المهندسين وتعنى حدود الخطأ المسموح به فى التصنيع ، وأفضل عليها بالعربية كلمتى «قبول الآخر كما هو» ..!

الستار عن النصب التذكارى الذى أنشىء تخليدا لذكرى هؤلاء الصحفيين وأعلن أن يوم ٣ مايو من كل عام سيكون يوم الاحتفال بحرية الصحافة فى كل العالم .

هذا وقد عهدت الجمعية العامة للأمم المتحدة الى منظمة اليونسكو (باعتبارها الهيئة المسئولة عن الثقافة والتربية والتعليم) لكى تقوم بالحملة العالمية لسنة التسامح ، فقررت بالفعل ان تخصص يوم ٣ مايو ١٩٩٥ ليكون يوم الدعوة العالمية للتسامح من خلال كل وسائل الاعلام من صحافة وغيرها فى مصر ولكل شعوب المنطقة العربية ، ليس فقط لكى ندفع عن أنفسنا شبهة التطرف والعنف والتعصب ، ولكن لأن يقينى أن هذه المنطقة – والتى كانت مهد الأديان الرئيسية فى العالم – كانت وستظل حاملة لواء التسامح والحب والرحمة والتعاطف .

□□□

لقد أثبتت الأحداث التى ارتبطت بالانفجار البشع فى مدينة أوكلاهوما ، أن الرأى العام الأمريكى مسمم ومشبع بالكراهية للعرب الى الحد أنه بمجرد أن اعلن عن وقوع الحادث ، زعموا أن الفاعل يبدو أنه من «الشرق الأوسط» ، واذ بالتحقيقات تثبت بعد ذلك ان مصدر الارهاب قابع فى عقر دار أمريكا ذاتها ومن ثم فإن العنف والتطرف ليس ظاهرة عربية بل إن الارهاب صار ظاهرة عالمية ، وما تم مؤخرا فى اسرائيل حيث اهتز جميع الشعب اليهودى فى كل أنحاء العالم ، لأن رئيس وزراء اسرائيل قد تم اغتياله بواسطة شاب متطرفا دينيا ،

ومن ثم فقد اليهود ما كانوا يصورونه بانهم شعب الله المختار ، فهم فى التحليل النهائى بشر ومجتمع مثل سائر المجتمعات يفرز التطرف إذا توافرت له الظروف الاجتماعية . لذا فتشت لأعرف مصادر هذه المقولات غير الصحيحة .

وهكذا اتجه فكرى الى الدراسات والنظريات التى يطرحها بعض كبار علماء فلسفة العلوم السياسية فى أمريكا ، وكيف ان تتالى هذه الأفكار كان البداية التى افرزت هذه الكراهية والتطرف والتى أدت – فى نهاية المطاف – الى مثل حادثة أوكلاهوما .

ولسنا فى هذا الأمر نتشفى فيما حدث من فجيعة انسانية قتل فيها اطفال ابرياء أمريكيون بل نزيد على ذلك فنقول ان التطرف فى الشرق الأوسط وغيره من انحاء العالم هو فى الأساس صناعة وتخطيط أمريكى بحت ، ونذكر كيف كانت البداية فى منتصف الخمسينات عندما ابتكر جون فوستر دالاس وزير خارجيتها فى تلك الحقبة أن مقاومة الفكر الماركسى تكون من خلال تقوية الأديان وتحجيمها فيما أسماه «مؤسسة التفاهم» .The Temple of Understanding

وبادرت أمريكا بإنشاء مجلس الكنائس العالمى وتشكيل مجموعة من التنظيمات لفتح الحوارات بين الإسلام والمسيحية وكانت معاهد الدراسات العربية فى جامعات أمريكا هى صاحبة النظرية بأن الإسلام هو الدين الذى يقاوم الشيوعية بطبيعته.

ومن عجب أن الكثير مما نشكو منه فى منطقتنا العربية يعود إلى التشكيلات التى اسستها وجندتها ومولتها المخابرات الأمريكية CIA عندما جمعت المتطوعين من كل ارجاء الوطن العربى لمقاومة النظام الشيوعى فى افغانستان، ونظمت تدريباتهم فى معسكرات جهزت خصيصا فى باكستان قرب حدود افغانستان ولم تكن تدرى - لا هم ولا الحكومات العربية التى باركت هذه التوجيهات - إن ذات المواطنين المتطوعين قد عادوا إليها بعد أن اندحرت الشيوعية فى افغانستان مزودين بالفكر والتدريب الذى كان المصدر الرئيسى للمنظمات الأرهابية.

واختفت اليد الخفية الأمريكية لكى تتفجر الصراعات والإرهاب فى كثير من الدول العربية وفى داخل افغانستان نفسها..!

□□□

وفى مناخ هذه الصراعات الطائفية والعرقية والمذهبية، يأتى معهد بحوث السلام فى جامعة اوبسلا الشهيرة بالسويد ليسجل أن عدد الصراعات أو المصادمات المسلحة فى العالم من عام ١٩٨٩ حتى عام ١٩٩٤ قد زاد عن ٩٠ صداما مسلحا منها ٤ مصدامات بين دول وأخرى مثل حالة الغزو التركى لارض العراق بهدف تأديب الأكراد وهو أمر قبيح غير مبرر اما الباقى وقدره ٨٦ صداما كان داخل حدود الدول ذاتها أى نوع من الحرب الأهلية.

وهكذا يأتى العام الدولى للتسامح فى جو سياسى غير مواتى، ولذلك لم نسمع له حسا ولا خبراً ، في وقت كان المنتظر أن يكون الإعلام بكل صوره ناشرا لأفكار التسامح فى مواجهة الكراهية والتعصب لأن الواقع المرير أقوى من كل قلم.

وكم كنت أتمنى أن يحظى عام التسامح الدولى بالإعلام قريباً مما حدث لمؤتمر السكان فى القاهرة أو القمة الإجتماعية فى كوبنهاجن. او المؤتمر الدولى فى بكين عن المرأة

ورغم ذلك – ووسط هذا الظلام الثقافى الدامس – أجد فى نفسى الرغبة فى أن احيى فكرة ومبدأ يوم التسامح العالمى ولو بإضاءة شمعة تشع بضوئها الخافت من مصر التى قدمت عبر العصور نماذج حية ومستمرة للتسامح فى كل صوره، لأن التسامح واحتمال قبول الآخر هو – فى التحليل النهائى حالة ذهنية واقتناع عقلى نتيجة التعليم والتربية والثقافة ومرتبطة أساسا بالمناخ التنويرى العام.

❑❑❑

وهكذا طرحت منظمة اليونسكو برامج تفصيلية للتعليم ، وكلها تهدف الي خلق مناخ التسامح وقبول الآخر فى جميع المجالات ، ففى فرنسا – وكثير من دول أوروبا الآن – يوجد فى الفصل الدراسى الواحد بيض ملونون بكافة درجاته ، كما يوجد المتدينون من المسيحية والاسلام واليهود بل حتي غير المتدينين وكل طفل أو شاب جامعي يحمل تراث ثقافته وديانته وجذوره ولا سبيل لاستمرار الحياة دون صراعات الا خلق تعاليم التسامح والمعايشة وقبول الآخر وهو امر صار حتميا

لاستمرار الحياة في العواصم الكبرى ومعظم اوروبا حيث صارت خليطا من الاجناس والحضارات والاديان .

أنني أحيي هيئة اليونسكو على مبادرتها ولسوف تجد في مصر - أرض التسامح موطنا صالحا لقبول افكارها ومبادئها كما اتوقع ان تتم مبادرات أخرى في دول أخرى كما انني على يقين أن د . حسين كامل بهاء الدين - ومن خلال تطويره للمناهج الدراسية - قادر على خلق جيل جديد متسامح ، امتدادا لجيلنا الذى يسلم العلم لجيل جديد أقوى اذا تسلح بالعلم والتسامح معا .



حوار الأديان له أصول مرعية

أود – دون أن أكون من أهل الاختصاص – أن ادلى بدلوى كمفكر وإنسان ، ما اتصوره ملاحظات – وليست شروطا واجبة – تكون تحت نظر أهل الاختصاص لفتح حوار بين الأديان – كل الأديان – من أجل الإنسان – أى إنسان – لأن الحقبة القادمة ستكون حافلة بالصراعات الدامية من البوسنة والهرسك إلى أفغانستان والأكراد والتامل وغيرها الم تسد مفاهيم قبول الآخر Tolerance بوضع المعايير الأكثر ملاءمة للعصر.

وتتلخص – من وجهة نظرى – فى الآتى:

اولا : كل دين لديه عقيدة ومسلمات ثابتة ترسخت مع الزمن وهى ماتسمي في الغرب «الدوجما » فبدون «دوجما» يكون الدين فكرا وفلسفة ، ولما كانت العقائد والمسلمات ذات حساسية خاصة، ومحفورة في وجدان كل من القيادات الدينية والشعوب المؤمنة بهذا الدين فإن فتحها للحوار محفوف بالمخاطر وقد يضر أكثر مما يفيد ، ولا طائل من مناقشته ، لان أحدا لن يغير ديانته او مذهبه لمجرد ان الحجج أقوى أو اكثر إقناعا ، لان «الدوجما» لاتستند إلى منطق عقلى مجرد ، وهذا ما اتضح من مناقشات المؤتمرات الدينية من أن الدين واحد وليس متعددا او مناقشة قضايا التثليث وعلاقتها بوحدانية الخالق فقد كان من الممكن ان تفجرالمؤتمرات كلها .. !

ثانيا : تختلف العلوم الطبيعية عن العلوم الانسانية ، فى ان النظريات لمجمع العلوم Sciencesوتطبيقاتها في الزراعة

والهندسة وما إليها تستند الى «حسابات» بين العلماء المتخصصين في الرياضيات والطبيعة والكيمياء وما إليها ، وتنتهي المناقشات الي نفوس صافية دون رواسب داخلية او تخزين الاحقاد تتفجر في شكل كتب ومقالات تستفز الآخر ، بينما تكون المناقشات والحوارات وحتى النظريات في العلوم الانسانية محفوفة بتداخل العناصر الذاتية مع الموضوعية ، ولذلك فالمناقشات لابد من ان تكون من خلال كلمات منتقاة بدقة بعيدة عن إثارة الحفيظة حتى بين العلماء لان الانتماءات الموروثة في العقيدة الدينية في حاجة الي تفهم خاص ومن هنا فإن علماء الانسانيات عموما والدين خصوصا عليهم الحذر في وضع مفاهيم من اجل الحوار .

ثالثا : ان النصوص الدينية - في الأغلب الأعم - لابد ان توفر للمنتمين اليها درجة من «التفاخر» أو «الاستعلاء» وإلاّ ماضحى الناس بأنفسهم من أجل العقيدة الدينية بالاستشهاد أو بالمال أو بتحمل الضيم من أجل الدين الموعود ويبرز ذلك فى الأديان السماوية التى نشأت في منطقتنا العربية ، فاليهودية تردد ان اليهود هم شعب الله المختار» ثم تجيء المسيحية فتبشر بالمسيح ابن الله والذي جاء ليوجد المصالحة بين الله والناس وبذلك صار المسيحيون هم «ابناء الله» وتعطى هذه الميزة الاحساس بالمظلة الالهية العلوية للبشر ، ثم يجيء الاسلام فيؤكد ان المسلمين«خير امة اخرجت للناس » وان رسالته هى الأخيرة ومن

ثم تجب ماسبقها . ومن ثم فإن فتح الحوار بهذه الخلفية لن يكون له نتيجة الا اثارة مزيد من الكراهية للآخر ، خصوصا وانه توجد نصوص واحيانا تفسيرات ظهرت في مراحل التاريخ السابقة ، يمكن احياؤها في اتجاه يكرس النفور والتباعد ولا يؤدى الي التقارب والسماحة ، وهذه الامور في مجملها يمكن ان تثار داخل أماكن العبادة للرب الواحد ، وينبغى تحاشيها فى موائد «الحوار بين الاديان» .

رابعا : ارتبطت الأديان السماوية الثلاثة ببعضها البعض ، فالتوراة كانت بأسفارها المتتالية هى البداية ويصير رجوع المسيحية الى التوراة في مواقع كثيرة لان المسيح «ماجاء لينقض بل ليكمل » ثم جاء الاسلام فأشار الي اهل الكتاب «موسى وعيسى والانبياء» ومن المؤكد ان هذه النصوص متطابقة في بعض الامور ومتقاربة في أمور أخرى وربما كانت متضادة في أمور كثيرة ، فظروف الوحى والتنزيل مختلفة زمنيا وبيئيا اى مجتمعيا ولذلك فالمناقشة على أرضية الأجزاء المشتركة هى التى تقرب بين البشر ، والبعد عن نقاط الخلاف امر مستحب وذلك ان كان هدفنا هو الحوار بين الاديان من أجل الانسان» .

خامسا : فى كل دين توجد نصوص تدعو الى التسامح والمعايشة وقبول الآخر ، والا ماصار الدين دينا ، وهذه النصوص معروفة في كل الاديان فالركيزة الاولى جاءت فى الوصايا العشر بعبارة «تحب قريبك كنفسك» والقريب هو الانسان في اي مكان

ففى المسيحية جاءت عبارات كثيرة حول قبول الآخر اهمها ان «الله محبة » ..وأحبوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم» .. الخ في الاسلام توجد عشرات الايات التي تحض على قبول الاخر ، لعل اكثرها شيوعا «وجادلهم بالتى هى أحسن...» ثم «وان جنحوا للسلم فاجنح لها...» وغيرها كثير .

إن مثل هذه النصوص التي تدعو لقبول الآخر هى الاسمنت الذي يربط حبيبات الزلط والرمل ، اى تجعل من المجتمعات متعددة الاديان نسيجا متماسكا ، وهى تمثل خبرة مصر الطويلة والتى ادت لاستمرار المسيحية القبطية في التآخى نادر المثال بين المسلمين والاقباط .

ولكن هذا النموذج يتآكل بسرعة لاستبعاد الاقباط من الحملات الثقافية والسياسية ، وسيؤدى هذا الأمر اذا استمر لعدة سنوات قادمة الى ضمور النموذج المصرى للمعايشة وسيحل التطرف والعنف مكان الوفاق والسماحة ولذلك فان هذه القضية يجب ان تشغل فكر المثقفين المصريين ليس لمصلحة الاقباط - ولكن من أجل مصر وسلامتها.

سادسا : منذ ان اختفى الاتحاد السوفييتى ظهرت نظريات سياسية وفكرية جديدة لعل اهمها هي نظرية «حتمية الصراع بين الحضارات » والتى قدمها صموئيل هانتجتون استاذ النظريات السياسية بجامعة هارفرد بأمريكا والتى دعت الغرب لتوقع ان يكون الصراع القادم بين مجمل الحضارة الغربية المسيحية

والحضارة الاسلامية الاصولية ، ويضع رجال السياسة والحرب الزيت فوق اللهب ويشعلون نار الكراهية للاسلام وهو امر لن ينتهي بالحرب ، فالصراع الفكري بالكلمة والمقال لن يقود الي صراع ساخن بالمدافع لان الغرب غير قادر علي قهر الاسلام والذى سيمتد ليشمل شعوبا يفوق عددها المليار ، كما ان الاسلام مهما عبأ شعوبه ووحد صفوفه ، لن يمكنه القضاء علي الغرب ،ومن ثم فلا سبيل الا بالمعايشة وقبول الآخر ، وعلينا كشعوب عربية (مسلمين ومسيحيين) ان نعمل معا علي نزع فتيل الكراهية التى يثيرها الغرب مستفيدا من التصرفات غير المسئولة لبعض الفرق الدينية ، والتى تقدم الدليل للغرب علي نظرياته .

وفي هذا الاطار فان مثل هذه المؤتمرات للحوار بين الاديان من اجل الانسان ، ستكون خطوة مهمة في الكشف عن ان الاسلام متحضر وراق لانه متعايش مع الاقليات المسيحية التي عاشت في كنفه لقرون طويلة ، ولن يكون بالقهر او النفاق وانما بالاقناع والاقتناع وعلينا ان نؤكد ذلك من خلال الانتخابات والحوار والاتصال مع القوي المتعاطفة في اوروبا وامريكا .

فى تقديرى علينا ان نرسم في هدوء خططا مصرية وعربية تقدم النماذج الناجحة للمعايشة السليمة لقرون في البلدان العربية فان في ذلك خير دليل على إبراز وجه الاسلام الحضارى في مواجهة حملات ونظريات الفكر الغربية .



الخيط الرفيع بين التدين والتعصب

الأديان السماوية الثلاثة - والتى نشأت وسادت فى منطقة الشرق الاوسط - تتفق فى أنها تبدأ وتلتقى عند سيدنا ابراهيم خليل الله : فاليهودية بدأت منذ نحو ألفى سنة قبل الميلاد وهى ديانة - مغلقة - لأنها تدعى اليهود - شعب الله المختار - ولذلك فإن فكرة - البشارة - أو الدعوة للدخول فى الديانة امر مرفوض، وذلك بخلاف كل من المسيحية والاسلام حيث يقومان علي اساس التوسع والانتشار، ولذلك فواجب المسيحية نشر رسالة المسيح الى كل انسان، وواجب الاسلام توسيع دائرة نفوذه ليشمل العالم كله لو امكن.

ورغم ذلك فان العرف العام فى بلدان الشرق

الاوسط هو تمسك كل منا بالديانة التى ولد ونشأ عليها ، ويتولد لدى كل منا إحساس بالاعتزاز بديانته بل وحتى بالمذهب الذى ينتمى إليه داخل هذه الديانة أو تلك، وهذه المشاعر قوة وشديدة حتى صارت أحد الاسباب الرئيسية فى تماسك المجموعات الدينية فى جميع بلدان العالم العربى وربما غيرها من البلدان المتدينة.

وقلة قليلة منا هى التى تدرس الأديان والمذاهب الأخرى ، وإذا درستها فيكون ذلك بوجهة نظر - نقدية - أكثر منها نظرة - حيادية - ولأن لكل دين مسلمات ثابتة ، لذلك فهو لايخضع كله للمنطق وسيادة العقل والاديان والمعتقدات يختلف فى هذا الامر

عن الدراسات للعلوم الطبيعية ، مثل الفيزياء والكيمياء و الميكانيكا وما إليها ، والتى يمكن التحدث عنها بتجرد وحياد ، وغالبا ماتخضع ككل تلك العلوم للتجربة المعملية وليس لذاتية الانسان اى انفعاله وانحيازه العاطفى والوجدانى ، ولذلك فهذه الباقة من العلوم المجردة لا تثير الحماس أو الغضب .

وتزداد موجة التعصب أو تقل حسب العصر الذى يحياه الانسان ، والدولة من خلال التعليم والاعلام والممارسات هى التى تقوم بصياغة الوجدان الوطنى الفكرى فإما ان تجعله متجها إلى - المواطنة - اى الانتماء الى الوطن كما فى حالة كل دول العالم المتقدم ، أو ان تثير النعرة الوطنية بتعبئة الناس الى الحرب كما فى حالة العراق ، وإما أن تزيد روح الانتماء إلى الدين أو المذهب أو الطائفة حسب الأحوال ووفق الضغوط المحلية أو الاقليمية او العالمية .

ومن يدرس تاريخ الاديان فى منطقتنا - عبر القرون الطويلة - يجد انه فى حالة حركة مستمرة وتطور دائم مرتبط بنفوذ الاديان بشكل عام وكذلك فالخلافات والصراعات حولها مستمرة ودائمة ، حتى يبدو كان تاريخ المنطقة هو جملة هذا المسلسل من الانتصارات والهزائم فى هذه القضايا الدينية المتعاقبة .

نشأت المسيحية فى احضان اليهودية ، - والى خاصته جاء ولكن خاضعة لم تقبله - وعندئذ توجهت المسيحية الى - الامم - ،

وانتشرت المسيحية فى كل البلدان المطلة على البحر المتوسط حتى القرن السادس تقريبا . ولكن اليهودية استمرت ولم تنته إلى يومنا هذا ، ومن ثم تعـايشت المسـيحـيـة مع اليـهـودية فى مناطق ومؤسسات ثقافية كثيرة مدونة فى كتب التاريخ .

وحدثت شقاقات عنيفة فى داخل الفكر واللاهوت المسيحى ، وانعقدت كذلك مجامع مسكونية ومحلية كثيرة ، ولكنها لم تحسم الخلاف ، وبالفعل ظهرت مذاهب مختلفة ، وتشهد بعض الدول العربية - والتى استمرت فيها الديانتان المسيحية والاسلام - مثل العراق ولبنان وفلسطين وسوريا - أى بلاد الشام والهلال الخصيب - ، والجماعات المسيحيه يصعب حصرها ، ويوجد عدم فهم لدى البعض من كثرة التفريعات المذهبية والعرقية للتجمعات المسيحية ، وقد عرفنا من خلال الحرب الاهلية فى لبنان مدى التشرزم المسيحى والاسلامى . من الموارنة الكاثوليك إلى عدة طوائف من الارثوذكس ونظيراتها من البروتستانت وهنا كالسنة والشيعة والد روز وغيرهم وفى منتصف القرن السابع الميلادى ، ظهر الاسلام وانتشر بسرعة هائلة ، ومثلما حدث للمسيحية فى القرون الاولى لها ، حدث للإسلام ، فكان الخوارج ثم الانقسام الرئيسى الشهير إلى السنة والشيعة ، وحدثت تفريعات لكل منهما ، وتوجد مذاهب اثنى عشر للشيعة وحدها ، ورغم انتشار الاسلام فى بلدان الشرق الاوسط وغيرها ، ولكن المسيحية بتفريعاتها

استمرت كذلك ، مما يؤكد أنه لابد من تعايش الاديان وان يتفهم كل منا دين الآخر دون كراهية او ازدراء وتعال . وفى القرن السادس عشر ، ونتيجة لطغيان ونفوذ الكنيسة الكاثوليكية ثم مأساة اصدار - صكوك الغفران - ، خرج مارتن لوثر - محتجا - على هذه الممارسات وانشأ الكنيسة - البروتستانتية - وانتشرت فى معظم دول اوربا الغربية ، ثم عبرت المحيط الاطلسى مع اكتشاف امريكا وتحولت إلى عشرات الفرق والمذاهب والاسماء المتباينة ، ولكن بقيت الكثلكة فى اورويا الوسطى وانتشرت فى امريكا اللاتينية ، واستمرت الارثوذكسية هى المذهب السائد فى روسيا وأورويا الشرقية .

ولكن فى كل تلك الصراعات الفكرية - وحتى العسكرية أبان فترة الحرب الصليبية - استمرت اليهودية والمسيحية والاسلام ، وبقيت الكثلكة لتكون اكبر تجمع ينتمى اليه اى دين او مذهب ، وستظل كل تلك الاديان - وغيرها - مذاهبها ، وكل منه - يتصور - انه افضل الاديان وانقى المذاهب ، مما يؤكد ان - لا أحد يحمل الحكمة بمفرده - وان الحماس للدين الذى يولد مع كل منا اى التدين مطلوب ولابأس به فهو الاسمنت الذى يبقى الافراد متماسكين متضامنين ولكنها شعرة عندما يزداد التدين ينقلب الى تعصب وربما كراهية للآخرين وهو أمر غير مستحب ، لانه لن

يغير من الواقع كثيراً ، وستظل الخلافات والتباينات الى نهاية العالم .

ولسوف تمر الحقبة حالية – التي يسودها التعصب – ليس فى مصر وحدها وانما فى بلدان كثيرة – ولسوف تعود مصر – ربما فى الألفية الميلادية الثالثة – كما كانت لقرون موطنا للتسامح الدينى ، حيث يعيش القبطى محترما الممارسات الاسلامية كما تراكمت فى مصر حضاريا ، ويشعر المسلم ان القبطى هو أخوه وجاره وان مصر تتباهى بهذه التعددية الدينية التى أثرت على كل من الممارسات والتقاليد فى الدينين .



الالتفاف حول الشرق أوسطية أمام المثقفين المصريين

أمام المثقفين المصريين تحد هائل، فالحوار الذى يتم كل يوم فى القاهرة حيث عشرات الندوات حول قضايا ومفاهيم متعددة لابد أن يوصلنا إلى مسار يحدد مكاننا فى القرن القادم.

هناك كتل اقتصادية تشكلت معالمها بالفعل، «فالنافتا» فى أمريكا الشمالية ثم الكتلة الأوروبية، ورغم تنافسهما ولكن توجههما العام متقارب فيما يسمى «بالحضارة الغربية» ثم هناك ذاك التمساح الهائل فى الشرق الأقصى حيث الرأس فى اليابان والجسد فى الصين والاطراف فى عدد يتنامى من النمور، وترتكز على حضارة مختلفة تماما عن الغرب وعن مجمل الحضارات التى نشأت حول حوض البحر المتوسط قديما وحديثا.

ويظل التحدى: أين نحن فى هذه الكتل الاقتصادية الثلاث؟

وهل نترك أمرنا لغيرنا يحدد موقعنا وإلى أى كتلة ينبغى أن ننضم، كما يحدث فى كل مرة وكان آخرها حين شجعت بريطانيا على انشاء الجامعة العربية بعد حرب العالمية الثانية.

وهل نستنزف جهدنا فى الجدل الدائر الآن، فيما إذا كان موقعنا مع مجموعة دول الشرق الأوسط حيث يرغب ويخطط الغرب أم يكون بالعودة إلى الحظيرة العربية حيث الصراعات والمحاور والخلافات. والرأى عندى أن الخيار صعب وفى وقت دقيق، ولن يمكن الفكاك من هذه الكماشة إلا باستخدام كل ما لدى مصر من مميزات وارتباطات

وانتماءات تراكمت لديها عبر تاريخها الطويل، وقديما قالوا: الحكيم من لايضع كل البيض فى سلة واحدة.

□□□

سيظل انتماء مصر الأول هو مع العالم العربى، فمن المؤكد أن هذه الدائرة الأولى - رغم كل ما تحتوى عليه من صراعات واحيانا مؤامرات هى الحلقة الرئيسية والأولى فى اهتمامات مصر، وفى هذا الأمر لا أمل من تكرار التشبيه بأن العالم العربى وكأنه خيمة هائلة من القماش المتين وأن مصر أحد الاعمدة الرئيسية الحاملة لهذه الخيمة، فإذا كسر هذا العمود بدون القماش أى الكسوة الخارجية يتحول إلى قائم خشبى معرض لكل أنواع الرياح والانواء ويتحول من دولة فاعلة إلى كيان مغمور.

على اننا قد أعدنا النظر بعد الخبرات المرة لحرب يونيو ١٩٦٧ ثم الصراعات من خلال المفاوضات «الثنائية» مع إسرائيل ثم التمزق نتيجة حرب الخليج وشماعة اتفاقية دمشق، ولذا فقد أحسنت مصر صنعا بالتركيز على العلاقات «الثنائية» بين الدول العربية بدلا من الشعار الفضفاض من المحيط إلى الخليج، واتخذت من البحث عن المصالح الاقتصادية المحددة بين مصر وسوريا - والتى تنمو باطراد وفى هدوء - نموذجا للعلاقات التى تتفق مع مقتضيات الحال فى المنطقة ومع مفاهيم العصر.

□□□

ومن المؤكد أن الدائرة الثانية والمهمة والتى ينبغى أن تهتم بها مصر هى وجودها فى «المؤتمر الاسلامى» وهى مجموعة هائلة من الدول، وينبغى أن يكون التحرك والفاعلية - على أساس المصالح الاقتصادية المشتركة فى المقام الأول مع توسيع العلاقات الثقافية التى تنشر الوجه المشرق للحضارة الاسلامية.

أما الدائرة الثالثة بالمهمة فهى الدائرة الافريقية، ونظرا لاهميتها لمستقبلنا فإننى أكرر ما كنت قد طرحته - من أهمية أن يتفرغ وزير أو نائب وزير لشئون افريقيا.

وقد لفت نظرى بعض رجال الخارجية إلى أن لدينا مساعد أمين عام منظمة الوحدة الافريقية مؤهلا لتولى هذا الموقع بجدارة وعن خبرة وبدون إثارة مشاكل أو حساسيات داخل الوزارة، وكم سعدت. فى زيارة أخيرة للمعهد الدبلوماسى المصرى - أن وجدت باقة من الشباب الافريقى يؤهل بالتعليم والتدريب ليأخذ مكانه فى العمل الدبلوماسى لدولة جنوب أفريقيا عقب الانتخابات فى ابريل ١٩٩٤، حيث تولد «جنوب أفريقيا جديدة» بعد المشاركة فى الحكم بين البيض والسود.

كما سعدت لأخبار وجود اتصالات بين رجال الاعمال فى كل من مصر فى أقصى الشمال ودولة جنوب أفريقيا فى أقصى الجنوب، فالكل يعلم أن مركزى الثقل الحضارى والاقتصادى هو فى هاتين الدولتين الكبيرتين، ولذا فإن العمل بهمة ومن الآن، لبناء كبارى وجسور فى كل المجالات، مسألة حيوية لابد من استثمارها حتى يكون لمصر دور أهم

وأقوى فى أفريقيا، لأن ذلك هو ما يزيد من قيمة مصر لدى كل من العرب والمؤتمر الاسلامى.

□□□

وألمس فى الحقبة الأخيرة حركة واسعة مع دول البحر المتوسط.

وهى نقطة سياسية وثقافية مهمة ، فإن مصر لعبت - وستظل تلعب - دورا رئيسيا فى هذه الدائرة المهمة ، ليس فقط على المستوى الاقتصادى والتبادل التجارى، وإنما لان هذه الدائرة هى همزة الاتصال بيننا وبين مجموعة الدول الاوروبية والتى يزداد نفوذها عالميا سنة بعد أخرى، خصوصا أن لمصر رصيدا حضاريا غير منكور عندما أثرت الحضارة الفرعونية القديمة فى الحضارة الاغريقية، وتلك الاخيرة أثرت على الحضارة العربية الاسلامية والتى أخذ منها الغرب فى العصور الحديثة أى أنه قد تراكم لديهم مجمل حضارات الإنسان، فكأن هذه بضاعتنا ردت إلينا، ويؤكد هذه الصلة بالبحر المتوسط تلك الحقبة التاريخية المسماة «اليونانية - الرومانية» والتى امتدت من دخول الاسكندر الاكبر مصر عام ٣٣٢ق.م إلى دخول العرب عام ٦٤١ ميلادية أى أن مصر قد ارتبطت بحضارات البحر المتوسط ارتباطا عضويا منفردا لمدة تصل إلى نحو ١٠٠٠ عام.

وفى هذا الاطار استوقف نظرى تحقيق صحفى نشرته مجلة «المصور» أخيراً من خلال رسالة الاستاذة فريدة الشوباشى عن معرض اقامه باحث فرنسى مقيم بمصر هو «جان مارسيل هومبير» مدير قسم

الآثار المصرية بمتحف اللوفر، والذى كانت دراسته للدكتوراه مثيرة لطرح «الهوس بحب مصر» ويبدو أن هذا الغرام بمصر وحضاراتها الفرعونية أمر ليس بجديد فهناك شامبليون ثم مريت ثم ماسبيور وغيرهم أو ما أصبح يعرف حاليا بالفرنسية أو بالانجليزية بـ «الايجيبتو - مانيا» إذ قد عرض هومبير اللوحات والاعمال الفنية الاوروبية التى ترجع إلى ما قبل الحملة الفرنسية، وكيف أن الغرام الثقافى والحضارى بإعجاز رقائق الحضارات المصرية قد أوجد حالة من الحب تصل إلى حد «الهوس» بالآثار الفرعونية بالذات، مما يدفعنى لان اطرح أن حضارتنا القديمة قد اكتشفها الغرب منذ قرنين من الزمان، وأن الأوان لان نعيد اكتشافها ونتعرف عليها حتى نقع نحن فى غرامها، واتصور أن أبرزنا لرقائق الحضارات فى مصر سيكون إحدى المميزات التى دعم وجودنا ثقافيا وحضاريا فى العالم ومن هذا الفهم، فإن أحد الأبعاد الجديدة التى أدعو الدبلوماسية المصرية إلى الاهتمام بها هو نشر الابعاد الثقافية والتاريخية لمصر، ليس فقط لان فى ذلك دعما للنفوذ السياسى، ولكنه أيضا اقتصادى مهم لدعم السياحة المصرية فى كل عصورها القديمة (وهم كثرة هائلة فى كل انحاء العالم) وان بجانب ذاك هناك من يهوى الحقبة «اليونانية - الرومانية» والتى تركت آثارها فى مدينة الاسكندرية وعلى طول الساحل الشمالى الغربى، وما مواقع مراقيا - مارابيلا - مارينا بهذه المسميات إلا تأكيدا على الروابط بين مصر والامبراطورية الرومانية القديمة، ثم هناك الحقبة القبطية المسيحية

والتى لها أيضا عشاقها فى أوروبا المسيحية وفوق كل ذلك هناك مجالات الثقافة العربية والاسلامية والتى لمصر موقع الريادة فيها.

وفى حوار حضرته مصادفة فى مكتب الصديق الدكتور حازم الببلاوى للإعداد لمعرض المنتجات المصرية الذى اقيم بمدينة كازبلانكا بالمغرب ، وجدت الدكتور حازم ينبه إلى أهمية تصدير المنتجات الثقافية المصرية من كتب وكاسيتات وأشرطة فيديو لانها سلع مطلوبة بشدة فى المغرب، واتصور أننا لم نسخر بعد الثقافة كمورد اقتصادى للتصدير وهو أمر لايغيب عن اهتمامات وزارة الثقافة، لكى نعبر الحقبة الحالية الحرجة حيث فرضت حوادث الارهاب ضمور تدفق السياح لمصر وعلينا أن نفكر فى تصدير مصر الثقافية من خلال افلام الفيديو التسجيلية للمواقع السياحية المتباينة وكذلك تصدير المسرحيات والافلام السينمائية والمسلسلات والفوازير وكل ألوان الفن بعد تسجيلها على الفيديو لملايين الراغبين فى اقتنائها فى العالم العربى فهذا كنز هائل لم نستثمره بعد بالقدر الكافى.

□□□

إن ما رغبت أن اطرحه للحوار أمام كل المثقفين وواضعى استراتيجيات السياسة الخارجية، هو أنه إذا كان مقدرا لنا - برغبتنا أو بظروف عالمنا - أن نشارك فى أن نكثف النشاط الدبلوماسى فيما هو متوافر لدينا من دوائر - اكتشف بعضها عبدالناصر وسجلها فى كتابه «فلسفة الثورة» - وزادت عليها الظروف دوائر ومناطق انتشار

جديدة، وقد نختلف فى ترتيب أولويتها وأهميتها ولكن المجالات العربية والاسلامية والافريقية أساسية ومهمة وقائمة من خلال تنظيمات موروثة، ثم هناك دوائر البحر المتوسط ومجموعة دول حوض النيل وما تبقى من مجمل دول عدم الانحياز، فكلها مجالات لمصر فيها رصيد ودور يمكن تنشيطه فورا ومن الآن، وبحيث ستكون مشاركتنا فى السوق الشرق أوسطية من واقع نشيط يمكننا فيه أن نكسب أرضا فى مواجهة دول أخرى ربما يكون لها مميزات نسبية أفضل فى مجالات أخرى أو تطلعات لكسب رقعة أوسع من السوق.

أما القضية الأخرى.. ربما الأهم - فهى أن ما يتوافر لمصر من تاريخ خارج الدوائر الجغرافية المشار إليها - فهو كنز اكتشفه فينا الغرب، ولم نستثمره بعد بالقدر الكافى فانتماءات مصر إلى الفرعونية والقبطية والاسلام ثم بما لدينا من تراث فنى حديث فى السينما والمسرح والكتاب وغيرها، لهى كنوز لانلجأ إليها إلا من باب الوجاهة والتباهى التراثى ، وأن الأوان لوزارة الثقافة لان تتحول من عبء انفاق على الخزانة العامة إلى مصدر دخل بخطط مدروسة للتصدير، ولتساهم فى ذلك كل من أجهزة الدولة والقطاع الخاص على حد سواء .

إننى متفائل بأن غدنا سيكون بالفعل أكثر اشراقا، ولنتناسى ولو مؤقتا ما لدينا من مميزات وكنوز فهذا على الأقل يبعث الامل والاشراق.



تجديد فكر القومية العربية وفق المتغيرات الإقليمية والدولية

كانت إرهاصات أيديولوچية القومية العربية، فى نهاية القرن التاسع عشر، مبشرة بإمكان تحقيق مبكر لوحدة عربية بشكل أو بآخر، وتجسدت الفكرة، مع بطء حركة التاريخ فى تلك الحقبة - فى المؤتمر العربى الأول الذى عقد فى باريس فى حزيران (يونيو) عام ١٩١٣ أى قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) وتصارعت فيها دول أوروبية ، ثم تلتها حرب ع لمية ثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) ، وتكاد تكون بين الكتل المتناحرة الاو ربية ذاتها وبعد مضى قرن من الزمان، إذ بالدول والشعوب الاوروبية التى تقاتلت فى حربين مدمرتين ، تتخذ من «السوق المشتركة» طريقا الى «الاتحاد» ثم « الوحـ ‌ ‌ ‌ ‌» ربما فى غضون أعوام قليلة، فى حين أن الدول والشعوب العربية التى استشرفت الوحدة قبل مائة عام، مجموعة من الكتل أو الدول المتناحرة أو المتحاربة على رغم رفعها شعار الوحدة بين الحين والآخر .

هذه مفارقة أولى كبيرة ! أما المفارقة الأخرى الأصغر فهى كيف ان الهمهمة العالمية فى العشرينات من هذا القرن قد رشحت كلا من اليابان ومصر لتدخل العصر والحضارة والتقدم على الطريقة الأوربية . وكان سبب هذه الهمهمة ان كلا من مصر واليابان كان لديها وقتها تجربة سابقة فى التاريخ ، فضلا عن مقومات الحضارة ، وقد خاضت كل منهما إرهاصات توحى باحتمالات مستقبل أفضل ففى اليابان كانت حركة إصلاح شامل

للتعليم والبنية الثقافية التى قامت بها عائلة ميجى الحاكمة فى القرن الماضى ، وفى مصر كانت التجارب التى خاضها كل من محمد على باشا فى إنشاء حركة صناعية وعمرانية أوائل القرن التاسع عشر ، ثم حركة العمران والثقافة واسعة النطاق التى خاضها الخديو اسماعيل فى حقبة إنشاء قناة السويس وافتتاحها عام ١٨٦٩ مع وجود مجالس نيابة تشريعية وقد طرح فى تلك الحقبة شعار «مصر قطعة من أوربا» .

وها هى ذى الأيام والأعوام والأحداث تمر ، وتصبح اليابان من أكبر القلاع الاقتصادية فى العالم وتحتل الموقع الأول فى قائمة ترتيب الدول وفق تقارير «التنمية البشرية» التى تصدرها الأمم المتحدة بينما صارت مصر من أفقر الدول ويتأرجح ترتيبها عند الرقم ١١٠ تنازليا فى التقارير المحايدة التى تصدرها سنويا الأمم المتحدة .

ولا أحد يستطيع أن يفسر المفارقة الأولى حين تشرذم العرب بينما اتجهت أوربا نحو الوحدة ، ولا أن يفسر المفارقة الثانية حين صعدت اليابان إلى القمة وهبطت مصر إلى عداد الدول متوسطة أو محدودة النمو.

جاءتنى هذه الخواطر وأنا استعرض التقارير الصحفية التى وصلتنا قبل اسابيع قليلة عن مؤتمر وزراء الخارجية لدول إعلان دمشق الذى عقد فى تموز (يوليو) ١٩٩٥ فى دولة البحرين

وتنخفض عن ورقة منشورة تحمل عنوان ، وثيقة العمل العربى المشترك . وربما تثبت الايام ان العرب – فى هذه الساعة المتأخرة من العمل المشترك – قد أدركوا أن تحقيق الوحدة أو التعاون لن يكون برفع الشعارات الرومانسية التى وضعها الاجداد فى نهاية القرن الماضى بالتغنى بالوحدة أو بالمبارزة والتنظير الشاعرى عن القومية العربية وإنما أدركوا واقع السياسة الاقليمية والعالمية ومعطياتها فى نهاية القرن العشرين، إذ أصبحنا على عتبة عالم جديد لم تتحدد معالمه بعد، ولكن الدول والشعوب – فى كل أرجاء الأرض – تدرك أن العالم صار قرية صغيرة ، وأن المستقبل هو للكيانات الاقتصادية الكبرى، ولا سبيل إلا أن نراجع أفكارنا فى حلم الوحدة لأنها لم تكن واقعية مدركة – حتى فى وقتها لمعطيات الزمن وناظرة للمستقبل ، بل ظلت تتغنى بالماضى فسقطت فى مستنقع السلفية ودخلت الكهوف المظلمة التى تتجه الى أسفل وبدلا من الانطلاق عبر الصواريخ الى الفضاء اللانهائى .

ها نحن نجد الولايات المتحدة الامريكية وهى بلا منازع أكبر دولة وكيان مفرد فى العالم من وجوه كثيره، – مدركة لمعطيات العصر، وتعمل على ايجاد صياغة للتعاون الإقتصادى مع كندا شمالا ثم مع المكسيك جنوبا، فيما يعرف بمجموعة دول «النافتا» ثم تبنى جسورا اقتصادية وثقافية مع دول أمريكا الجنوبية ، والكل يتوقع ان تكون القارتان الأميريكيتان قوة اقتصادية ضخمة فى

الألفية الميلادية الثالثة، لها ارتباطاتها وفاعليتها مع كتل اقتصادية أخر تتبلور حاليا .

ثم ها هى ذى أوروبا – التى مزقتها الحروب العالمية مرتين فى قرن واحد تنفض التراب والانقاض عن كاهلها ، وتتناسى العداوات والجروح التاريخية من بقايا قرون مضت لتبنى صرحا هائلا من التعاون الاقتصادى لمرحلة السوق الأوروبية المشتركة فى اتجاه الاتحاد الأوروبى، ثم تتطلع لأن تكون هيكلا ونسقا يشمل أيضا مجموعة دول أوروبا الشرقية التى كانت حتى أعوام قليلة مضت فى قائمة الدول المعادية فى حلف وارسو ، لكى تغرقها أوروبا الغربية بالمعونات والاصلاحات الاقتصادية، لأن لها نظرة مستقبلية – وليست سلفية – وتتطلع لأن تتوحد معها وصولا إلى روسيا ذاتها فى إطار «البيت الأوروبى المشترك» .

ومن عجب أن مجموعة الدول الرابضة فى الشرق الأقصى ، قد تناست عداوتها المذهبية الحديثة بين دول شيوعية ممثلة فى الصين ودول رأسمالية ممثلة فى اليابان، ثم تناست العداوات والحروب التاريخية بين اليابان وكوريا والصين وغيرها لتكون «تمساح» اقتصادياً سيكتسح العالم – وفق تقدير بعض المحللين الاقتصاديين – فى غضون ٢٠ أو ٣٠ عاما ، إذ يقع «رأس» هذا التمساح فى اليابان شمالا، ويقع جسمه فى الصين بتعدادها وإمكاناتها ، ثم هناك «الأطراف» ممثلة بالنمور الأربعة : كوريا

وتايوان وهونج كونج وسنغافورة، ثم يمتد النجاح والرقى والنمو إلى «الذيل» ممثلا بأندونيسيا وتايلاند وماليزيا وفيتنام وغيرها كل ذلك يتم أمام أعيننا نحن العرب ، وإذ بنا فى الحقبة ذاتها نتشرذم ، فبعد حقبة عبد الناصر وما حملت من محاولات لم تكتمل للوحدة مع سورية ، ثم شهدت مشاعر متدفقة بأهمية «القومية العربية» التى سرت حرارتها وامتد نفوذها بالفعل « من المحيط إلى الخليج» إذ بنا ننتكس فى حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، وتحتل اسرائيل «أراضى » فى مصر وسورية والاردن وفلسطين ولبنان ، ولا نزال نصارع لنحصل على ما فقدناه فى أيام ستة كالحة السواد.

ثم نجمع الشمل ونخوض معركة حرب تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٧٣ ونحقق انتصارا «محددا » كان من نتائجه ان ارتفع سعر البترول بشكل مفاجئ وهائل ، أدى - من جانب ايجابى - إلى تدفق مدخرات هائلة لدى الدول البترولية، ولكنه أدى - من جانب سلبى - الى انزعاج الغرب فخطط حتى يفرقنا، لأنه أدرك خطورة وحدتنا عليه فكان أن وقعنا فى «مصيدة التشرذم والتفرق» وانقسم العرب الي مجموعة دول أو دويلات قليلة العدد أو واسعة الثراء، تقابلها مجموعة أخرى على النقيض منها- وفيرة العدد من السكان بل لعلها متضخمة أو متفجرة بسبب الزيادة الرهيبة فى السكان، ولكنها قليلة أو محدودة الموارد ، وأدى هذا التقسيم إلى فرقة وحسد فبدل ان يساعد الغنى الفقير، إذا بالغنى يخاف من الفقير ، وإذا بالفقير يحسد الغنى على ما هبط عليه من ثروة.

ثم لعبت اسرائيل بذكاء لعبتها السياسية وطبقت مفاهيم السياسة الاستعمارية القديمة «فرق تسد» وتركت الدول العربية مصر يعانى اقتصادها من الشح والفقر بعدما انهكته الحروب المتتالية ، وخططت اسرائيل لاخراج مصر عن الاجماع العربى، وتمت الزيارة «التاريخية» التى قام بها السادات للقدس، فدخلت المنطقة مرحلة «جديدة» وبدلا من أن يلتف العرب بثرائهم حول مصر لدعم اقتصادها (كما فعل الأمريكان مع أوروبا بعد الحرب العالمية الثانية بمشروع مارشال، وكما تفعل الآن المانيا وفرنسا وحتى أمريكا والبنك الدولى مع دول أوروبا الشرقية) خاصم العرب مصر وقرروا فصلها عن الجامعة العربية ، ولكن مصر لم تسقط بل قبلت العزلة أعواما إلى أن عادت جامعة هرمة قد شاخت وانفض الحماس من حولها فصارت شبحا فى حاجة الى دم جديد.

ومن الطبيعى أن تنتهز اسرائيل الفرصة، فتعزل حركة التحرير الفلسطينية بكل فصائلها التى وقعت فى المصيدة نفسها وصارت تحارب بعضها بعضا وتتهم فرقها بالخيانة فهربت قيادة المنظمة من بيروت إلى تونس، ووقع لبنان «العربى» فى مصيدة الحرب الأهلية، ولولا صلابة أهله وإدراكهم أهمية عروبتهم لانقسم الى «كانتونات» وكان المخطط جاهزا .

وعادت مصر – بعد أعوام من العذاب – الى الصف العربى ، وبدا ان التقارب العربى يمكن أن يتحقق، ثم قسم العالم العربى

إلى ثلاث مجموعات أولاها وأقواها وأكثرها تماسكا هو مجلس التعاون الخليجي، فقد تبلورت شخصيته ومصالحه ثم تجمعت دول المغرب العربي في اتحاد مفكك، له فاعلية محدودة لأنه يحمل داخله مظاهر وأمراض الاختلاف في الثروة والتراث . فهناك ليبيا ذات الكتاب الاخضر والمواجهة لامريكا والغرب ، ثم تونس التي تحاول ان تكون «قطعة من أوربا» ثم الجزائر الغارقة في الحرب الاهلية من اجل «الهوية» ثم المغرب الذي لديه نوع من الاستقرار النسبي على الرغم من المناوشات مع «البوليساريو» فضلا عن الغزل المتبادل مع أوربا واسرائيل.

تجمعت دول القلب في اتحاد او تجمع يشمل مصر والعراق كدعامتين رئيسيتين وكان من الممكن ان تلتف الاطراف في الغرب والشرق حول القلب لكن جاء القرار الأرعن بغزو الكويت عام ١٩٩٠ كجزء من مخطط تقليب فقراء العرب على اثريائهم . ووقع العرب الرافعون شعاراتهم أمه واحدة في مصيدة التفرق والتحزب و الكراهية العربية - العربية» واشتعلت حرب الخليج التي لاتزال آثارها المدمرة باقية حتى الآن وبعدها - ووفق المخطط العالمي - صارت الأمة العربية جثة مقطعة اشلاء فكان مؤتمر مدريد وما اعقبه من مخططات الصلح المنفرد بين اسرائيل من جانب والدول العربية حولها منفردة واحدة واحدة من جانب آخر .

واجتمعت دول مجلس التعاون الخليجي الست مع كل من مصر وسورية ، فيما يمكن ان نسميه بلغة هذا العصر «اتفاقية ٦+٢»

ووقع اتفاق دمشق فى السادس من اذار (مارس) عام ١٩٩١ لامتصاص غضب الحالمين بالوحدة العربية من بقايا القومية العربية وللايحاء بأن الحلم لم يمت وأن حماية الثروة البترولية ليست احتكاراً للدول الغربية ، وأن للدول «الصديقة» العربية التى وقفت فى صف الكويت نصيبا فى «الكحكة» ولكن – على الطريقة العربية – وضع الإعلان فى الادراج أو فى البراد «الفريزر» يخرج للحياة بين الحين والاخر ليعبر عن انه كان اجتماع وزراء الاموات بعد ان كان اجتماع وزراء الخارجية العرب فى البحرين فى تموز (يوليو) ١٩٩٥ اخيرا وهو ما اشرنا اليه فى صدر هذا المقال وكان المحرك الاول لتفجير الحماسة التى نرجو ان تصل بنا الى تجديد القومية العربية عبر ادراك المتغيرات فى المنطقة وفى العالم خصوصا بعدما تفكك الاتحاد السوفييتى وظهرت الاصولية الدينية فى العالم وفى المنطقة كبديل للفكر العقلانى العلمانى وهو احدى السمات الرئيسية للمفكرين الاوائل المنشئين لايديولوچية القومية العربية .

حاولت وثيقة العمل العربى المشترك (الصادرة عن اجتماع وزراء خارجية دول اعلان دمشق فى البحرين) وضع مبادئ مهمة وجديرة بالتذكر والتحليل وهى :

١ – أنها حاولت حقن دماء جديدة فيما تبقى من الجامعة العربية ، فأشارت إلى المادة الثانية من «معاهدة الدفاع المشترك»

ولكنها أدركت منطقيا ان هذا الميثاق قد مات ، ولم يعد له فاعلية ، لأنه لن يستخدم عند غزو العراق للكويت ، فاضافت أنه من حق الدولة المعتدى عليها اتخاذ ما تراه من اجراءات ووسائل أخرى - غير ما نصت عليه هذه المادة - للدفاع عن نفسها وازالة العدوان عنها ، وفى ذلك اشارة واضحة الى ان ما تم من تدخل دولى فى حرب الخليج يمكن أن يتكرر إذا تكررت المأساة وهذه رسالة واضحة للجميع ، لأن الأمن العسكرى ليس فيه شعر أو رومانسية.

٢ - أما فى مجال التنسيق والتعاون الاقتصادى فجاءت الوثيقة أكثر تفهما لمعطيات العصر والمرحلة ، وأدركت أن التناقض بين الأثرياء والفقراء لا يزال قائما ، فاتفقت على مراعاة مبدأ سيادة كل دولة عربية على مواردها الطبيعية والاقتصادية ، وعلى الرغم أن هذا أمر مسلم به دوليا وعالميا ، فإنه كرس ما هو قائم من تفاوت وصراعات علما بأن الميثاق أقر اقامة «منطقة تجارة حرة عربية » وصولا إلى قيام « سوق عربية مشتركة» . وهو أمر بالغ الأهمية وعلى الطريق الصحيح .

فمثل هذه الخطوة البسيطة والمتواضعة قد تكون نقطة بداية لو تحول إلى واقع، وبشكل سريع، لأنه يعنى بداية إدراك لمعطيات العصر، وكيف أن الأمور السياسية الكبرى تبدأ من أسفل إلى أعلى ، خطوة خطوة ، وليس بأحلام رومانسية ، أى بإعلانات الوحدة التى صدرت فى بداية القرن ثم تحطمت فى الواقع المعاش الذى فرض علينا افكارا ورؤى مختلفة .

لقد تأخرنا كثيرا عن أحلامنا لأننا كنا نود أن نقفز على الواقع، ولكن أمامنا خبرة أوروبا فى «السوق المشتركة» وصولا إلى «الاتحاد» ثم أمامنا خبرة الشرق الاقصى الذى يسير وفق تراثه وفلسفته ولكنه في الاتجاه الصحيح . ومن غير الممكن أن نسير على «النص» ذاته أو على ما يسمونه الآن «السيناريو » هنا أو هناك لأن لكل منطقة ظروفها ومعطياتها ، ولذلك فإن التحدى أمام المثقفين والمبدعين العرب هو اكتشاف قواعد «نظرية» لتجديد القومية العربية على خطوات ومراحل كى تناسب المعطيات والمتغيرات فى المنطقة والعالم .

رقم الإيداع
٩٥ / ٩٢٦٤
I. S. B .N

977- 07- 0422 - 9

الفهرس

الجزء الأول : ما بعد عام ٢٠٠٠
العالم والمنطقة ومصر إلي اين؟

مقدمه : ٧

١ – تغييرات هيكلية فى البناء العالمي ١٧

٢ – أمن البشر والشعوب يسبق أمن الدول والحكومات .. ٢٩

٣ – الجامعة العربية نواه لكتلة اقتصادية رابعة ٤٥

٤ – من نظرية «صراعات الحضارات» الغربية
إلى مفاهيم «ثقافة الموزاييك» العربية .. ! ٥٩

٥ – خصوصية مصر ٧٣

٦ – الايجيبتومانيا – أو الوله بحضارة الفراعنه
من اللوفر إلى الانتكخانة. ٨٧

٧ – الثقافة المصرية لها ساقان ١٠٣

٨ – الشفافيه والمعلومات.. هما جناحا «بناء الثقة»..! ١١٩

٩ – من ضمور الدولة إلى المشاركة الشعبية. ١٣٣

١٠ – البشر هم اللغم والفقر وهم أيضا المنجم والرخاء .. ١٤٣

الجـــزء الثانى

حاجتنا لقيم ومفاهيم تناسب العصر

مقدمة ١٥٤

١ - كل ميسر لما خلق له ١٦٩

٢ - الحياة توازنات .. وخيارات ١٧٩

٣ - اكتشاف الأرضيه المشتركة وتوسيعها بدلا
من استنفار العداء والتباين ١٩٣

٤ - من ثقافه التلقين إلى ثقافة الحوار. ٢٠١

٥ - وأخيرا التقى الغرب بالشرق ٢٠٩

٦ - التسامح وقبول الآخر قضية ثقافية تنورية ٢٢١

٧ - حوار الأديان له أصول مرعية ٢٢٩

٨ - الخيط الرفيع بين التدين والتعصب ٢٣٥

٩ - الالتفاف حول الشرق أوسطية ٢٤١

١٠ - تجديد فكر القوميه العربية وفق المتغيرات
الاقليمية الدولية ٢٤٩

الهـــلال

المجلة الثقافية الأولى فى مصر والعالم العربى

.. تقرأ فيها :

- الأدب والعلم والثقافة الثالثة .... د. أحمد مستجير
- تعطيل الإبداع .... د. مصطفى سويف
- القفز على الأشواك «ملحمة الضياع» .... د. شكرى عياد
- الاسلام والتقدم .... د. محمد عمارة
- جمال عبد الناصر .. مؤسس مصر المعاصرة .. . .
... . د. عاصم الدسوقى
- باولو فريرى .. أهم مفكر تربوى فى القرن العشرين ....
.... د. حامد عمار
- عرض نقدى لكتاب هيكل « القنوات السرية » . ...
. . .. د. رءوف عباس
- المصريون يعطرون العالم .... چانيت ديون ايروت
- محمد حجى ودواوينه المرئية .... محمود بقشيش
- سينما الهند والصين .... مصطفى درويش
- قراءة فى إبداعات عراقية معـاصرة - الرواية - القصة القصيرة
.... حسين عبد العليم
- العالم المجهول لأليفة رفعت .... د. عبد العزيز الدسوقى
- تعليم اليوم هو قضية القرن الـ ٢١ .... محمد فتحى
- نحن أهم وأعظم جيل أنجبته مصر الحديثة ....
.... محمد عودة

القصــة والشــعر

- رحلة فى مخ السيدة ن.ع (قصة) ... . **محمد مستجاب**
- صلاة الى الكلمة .... «شعر» **جليلة رضا**
- لا فــرق .. .. «شعر» **أحمد سويلم**

عشوائية الجوائز - جزء خاص

- الجوائز الأدبية العربية السلطان والفنان ....
د. عبد المنعم تليمة
- جوائز الأدب العربية : وجهان للعملة .. ..
د. ماهر شفيق فريد
- التقدير همّ الكاتب الأصيل ....
د. عبد اللطيف عبد الحليم
- آلية الجوائز الأدبية .. «مسابقات» .. أم تشجيع .. أم تكريم ؟ .. ..
محمود قاسم

واقرأ الأبواب الثابتة :

عزيزى القارىء - أقوال معاصرة - من الهلال الى الهلال - أنت والهلال - الكلمة الأخيرة

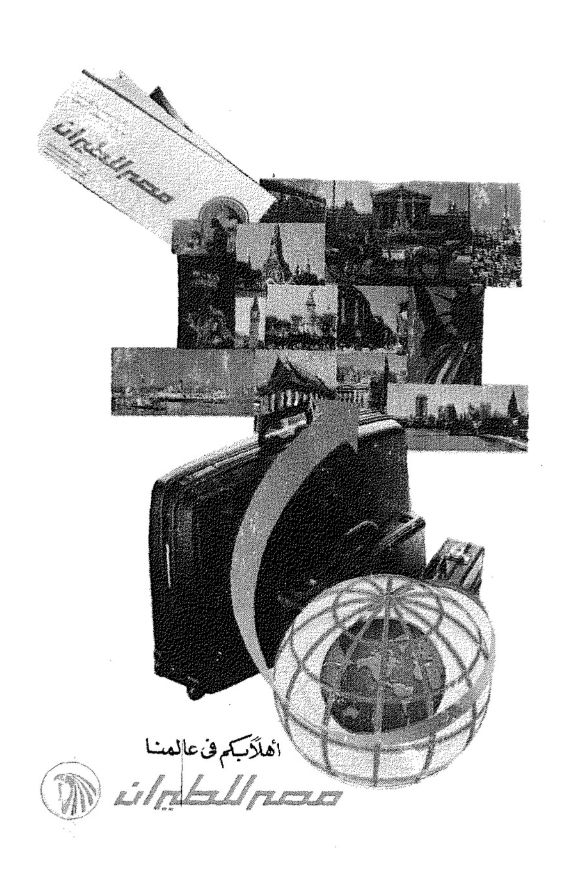
هذا الكتاب

كل منا يود أن يعرف المستقبل ، والمستقبل تتضح معالمه من اليوم وهذا الكتاب محاولة لقراءة المستقبل من رؤية موضوعية علمية عرّف بها الكاتب .

الجزء الأول من الكتاب يحتوى عدة موضوعات عن التغيرات المتوقعة فى العالم والمنطقة العربية ومصر ومن بينها قضايا مثل الايجثومانيا ولماذا وقع الغرب فى وله مصر وتوقعات المؤلف أن المصريين سيهتمون فى الحقبة القادمة بتراثهم الفرعونى وكيف أن خصوصية مصر ستحميها من رياح التطرف .

أما الجزء الثانى فيركز على القيم والمفاهيم التى تتناسب ما بعد عام ٢٠٠٠ ، وبالذات ما نحتاج إليه منها لكى يناسب التغيرات المتوقعة فى الألفية الميلادية الثانية.

سيجد القارىء عبارات تتردد بين الحين والآخر مثل التنوع ظاهرة كونية وأن التصحيح الذاتى للفرد والشعوب هو سر التقدم والفلاح ترى هل تقدم رؤية المؤلف فى تصويره لعالم ما بعد عام ٢٠٠٠ ولننتظر ونرى فالكتاب سيعيش إلى ما بعد عام ٢٠٠٠ .


مصر للطيران
أهلاً بكم فى عالمنا
مصر للطيران